سلسلة البحوث الاجتماعية
٥



الحب

تأليف
عمر رضا كحالة

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحب

الطبعـة الاولى
١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨

مؤسسة الرسالة : شارع سورية - بناية صمدي وصالحة
هاتف : ٢٤١٦٩٢ - ٢٩٥٥٠١ - ص. ب. ١١٧٤٦٠ - برقيا : بيوشران

مقدّمة

كاد يكون الحب أعظم عامل في هذه الحياة ، فهو لا يقتصر على الحب المتعارف والمتداول بين الناس، بل يتعدى ذلك، فيشمل حب الوطن ومواطنيه ، والأسرة وما تنجبه من أطفال ، وقد يتجاوز ذلك إلى حب بني الإنسان على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، ونكران الذات ، فيكنّ لأخيه الإنسان كل خير وفلاح وهداية وصواب ، وأن يجنبه كل شر ومأساة .

أما كتابنا هذا فينقسم قسمين : الأول منه يبحث في ماهية الحب وتعريفه وأنواعه وأقسامه ، وفي طبائع الرجل والمرأة في الحب .

ويشتمل القسم الثاني من الكتاب على الحب في عالمي العرب والإسلام ، ويشمل أسماء الحب وتعاريفها ، والحب وفلسفته وأنواعه ، والحب وأقسامه وأشكاله ، وهي : الحب الجنسي ، والحب العُذري ، والحب الإلهي .

وختمنا بحثنا هذا بذكر قصص من الحب في المجتمع العربي. وفقنا الله ومدّنا بعون من عنده انه على كل شيء قدير .

دمشق : ١٦ من ذي القعدة ١٣٩٧ هـ
٢٦ من تشرين الأول ١٩٧٧ م

عمر رضا كحالة

ماهية الحب وتعريفه

يمكن تعريف الحب أنه تجمع وتمركز عواطف الإنسان وشعوره بميل وعطف وحنان على شخص وبإخلاص وتضحية وثبات مع رغبة شديدة في التمتع تناسلياً بهذا الشخص ، وبذلك يتألف الحب من حالتين رئيسيتين :

١ — حالة نفسية يتميز بها الإنسان عن الحيوان .

٢ — وغريزة جسمية حيوانية .

والحب أعظم قوة في العالم يلعب في قلب الإنسان ، ويخضع لقوة غير منظورة ، تقوده إلى حيث لم يكن راغباً .

قال نقولا حداد : إن ما بين الأميب ، والداس أتوم ، وبين الكرة البيضاء ، وجرثوم الستر بتوكوك مثلاً ، تجاذباً يقضي بتداخل الواحدة بالأخرى ، والغرض من هذا التجاذب حفظ حياة الفريقين ، أو اندماج الفريقين في حياة واحدة ، ويمكننا أن نعبر عن هذا التداخل أو التجاذب بلفظ الحب ، لما بينه وبين صنوف الحب من المشابهة [١] .

واختلف منذ القديم في تعريف الحب فقال أفلاطون : العشق قوة غريزية متولدة من وسواس الطمع وأشباح التخيل ، نام بنصال الهيكل الطبيعي ،

---

(١) نقولا حداد : الحب والزواج .

محدث للشجاع جبناً وللجبان شجاعة ، يكسو كل إنسان عكس طباعه حتّى يبلغ به المرض النفساني والجنون الشوقي ، فيؤديانه إلىالداء العضال الذي لا دواء له [١] .

ثم قال أفلاطون : ما أدري ما الهوى غير أنه جنون والهوى لا محمود ولا مذموم [٢] .

وعرف أفلاطون الحب بقوله : الحب قوة توطد العلاقات بين المخلوقات وان ابتسامة الحب تلمع بين السماء والأرض . وان الحب إرادة ثابتة جذابة تجذب الجنسين وتجعل الاثنين واحداً [٣] .

وقال جالينوس : العشق من فعل النفس ، وهي كامنة في الدفاع والقلب والكبد . وفي الدماغ ثلاثة مساكن للتخيل وهو في مقدم الرأس ، ومسكن للفكر وهو في وسطه ، ومسكن للذكر وهو في مؤخره ، ولا يسمى عاشقاً إلاّ من إذا فارقمعشوقه لم يخل من تخيله فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال الكبد ، ومن النوم باشتغال الدماغ بالتخيل والفكر والذكر ، فيكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت [٤] .

وقال أرسطاطاليس : العشق عمى العاشق عن عيوب المعشوق ، وهذا ما مشى عليه أبو علي ابن سينا وغيره من الأطباء ، ان العشق مرض وسواسي شبيه بالمالوخيا يجلبه المرء إلى نفسه بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور والشمائل ، وقد يكون شهوة جماع وقد لا يكون [٥] .

---

(١) أحمد بن أبي حجلة التلمساني : ديوان الصبابة .
(٢) المسعودي : مروج الذهب .
(٣) مجلة الإخاء ٣ : ١٥ ، ١٦ .
(٤) النويري : نهاية الأرب .
(٥) احمد بن أبي حجلة التلمساني : ديوان الصبابة .

وقال الاسكندر : العشق نور شعشعاني أوجده واجب الوجود في اللطايف القدسية مؤلفاً بين المتنافيين لبقاء سره الخفي في كتابهما [١] .

وقال بقراط : الحب هو امتزاج النفسين كما لو امتزج الماء بماء مثله ، عسر تخليصه من الاحتيال ، والنفس ألطف من الماء وأرق مسلكاً ، في أصل ذلك لا تزيله الليالي ، ولا تخلقه الدهور ، مجهول عن الأوهام مسلكه ، وخفي عن الأبصار موضعه ، غير أن ابتداء حركته من القلب ، ثم تسير إلى سائر الأعضاء ، فتظهر الرعدة في الأطراف والصفوة في الألوان واللجلجة في الكلام والضعف في الرأي حتى ينسب صاحبه إلى النقص [٢] .

وقال جالينوس : المحبة تقع بين العاقلين لتشاكلهما في العقل ، ولا تقع بين الأحمقين وإن كانا شكلين في الحمق ، لأن العقل يجري على ترتيب ، فهما يجريان فيه على طريق واحدة ، والأحمق لا يجري على ترتيب ، ولا يجوز أن يتفق فيه اثنان ، ولا يختلفان [٣] .

وقال أوقليدس : العشق وفق هندسي وجزء معنوي لقي شكله فطابقه وصادف مخالفه ، فنافاه [٤] .

قال سقراط : المحبة أفضل رياضات النفس ، وفيها جلاء العقول وصقل الأذهان . [٥] .

قال أفلاطون : روضوا أنفسكم بالمحبة فإنها خاصية الحي من حيث هو هي [٦] .

---

(١) صلاح الدين الصفدي شرح لامية العجم (مخطوط) .

(٢) المسعودي : مروج الذهب .

(٣) المسعودي : مروج الذهب .

(٤) صلاح الدين الصفدي : شرح لامية العجم (مخطوط) .

(٥) لسان الدين ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف .

(٦) لسان الدين ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف .

قال سلاوس : المحبة ارتياح الأرواح ، فإذا أفرطت صارت عشقاً، بحيث ان النفس، تخمد بها خطوط النفس الشهوانية ، وتسجد بها النفس الناطقة [١] .

قال أرسطو : لو لم يكن في المحبة إلاّ أنها تشجع قلب الجبان وتسخي كف البخيل ، وتصفي ذهن الغبي وتبعث حزم العاقل وتخضع لها الملوك وتفقد لها صولة الشجاع وينقاد لها كل ممتنع لكفى بذلك شرفاً وجميع ما قاله يشهد له الحسن والتجربة .

قال جالينوس : كما أن البدن يحتاج إلى الرياضة ، كذلك النفس رياضتها المحبة [٢] .

قال أبقراط : من منح المحبة أغنته عن كل رياضة [٣] .

قال انكاغورش : المحبة نور من أنوار النفس الكلية يضيء بها الخليط ، فإذا أدبرت أظلم الخليط وفسد الكون [٤] .

ورأى طائفة كبيرة من الحكماء القدماء : ان الوجود كله مبدأه المحبة والبغضة ، وهما علتا الكون والفساد وان البغضة تقابل المحبة مقابل العدم كالنور والظلمة وهي صفة من صفات واجب الوجود [٥] .

قال بعضهم : إن كل ما في الوجود ، بل الوجود كله محب عشاق بتفضيل غريب .

---

(١) لسان الدين ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف .
(٢) لسان الدين ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف .
(٣) لسان الدين ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف .
(٤) لسان الدين ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف .
(٥) لسان الدين ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف .

وقال بعضهم : إذا تمكن الحب استحال السلو تعلق بيد المحبة بتلابيب القلب ، فلا يمكن التخلص فيدور معها في دار المداراة [١] .

قال فيثاغورس : العشق طمع يتولد في القلب يغني عن النظر ، ثم ينحو ويحدث اللجاج والاحتراق ، حتى ان الدم يهرب عند ذكر المحبوب ، وقد يموت من شهقة أو برؤية المحبوب بغتة ، وربما اختنقت الروح من نحو ذلك ، فدفن ولم يمت .

وعن جالينوس : إن العشق من فعل النفس ، وذلك كامن في الأعضاء الرئيسية ، فمتى تمكن أفسدها ، وهذا كله إشارة إلى الراتب إجمالاً [٢] .

قال فيثاغورس : العشق طبع يتولد في القلب ويتحرك وينمو ثم يتربى ، ويجتمع إليه مواد من الحرص وكلما قوي ازداد صاحبه في الاهتياج واللجاج والتمادي في الطمع والفكر في الأماني والحرص على الطلب حتى يؤديه ذلك إلى الغم المقلق [٣] .

قال أرسطاطاليس : العشاق هو عمى الحس عن إدراك عيوب المحبوب [٤] .

قال أفلاطون : العشق حركة النفس الفارغة بغير فكرة .

---

(١) لسان الدين ابن الخطيب : روضةالتعريف بالحب الشريف .
(٢) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفضيل أشواق العشاق .
(٣) النويري : نهاية الأرب .
(٤) النويري : نهاية الأرب .

وذكر الجاحظ عن بعض حكماء الهند انه قال : إذا ظهر العشق عندنا في رجل أو امرأة غدونا على أهله بالتعزية [١] .

قال عباس محمود العقاد : فهل للعشق وصف أصدق من أنه مزيج من جنون وسحر ، فليس تأثير العشق مما يقف عند الغرض الأول منه ، ولا هو بمقصور على العلاقة النسلية بين الرجل والمرأة ، ولكنه يمتد إلى كل غريزة سواء أكان لها ارتباط بالشوق الجنسي أم لم يكن [٢] .

قال ليون تولستوي : إن الهيئة الاجتماعية تنظر إلى الاتصال الغرامي كأمر ضروري للصحة وفكاهة حلوة للشباب ، بل غبطة سامية شعرية لا تتم سعادة الحياة بدونها ، حتى أصبحت خيانة الزوجين بين جميع طبقات الناس من أبسط الأمور الاعتيادية ، وتعدت المدن وتوصلت إلى القرى بواسطة الجيش... اما أنا فأخالف هذا المبدأ وأنادي على رؤوس الأشهاد بوجوب الانقطاع عنه .

وللعدول عن تلك الحالة ونبذها من بين الناس ، يجب أن يتحول نظر البشر عن المحبة الجسدية الحيوانية ، ويتهذب الرجال والنساء تهذيباً حسناً في العائلات ...

ثم قال : إن الناس كما قدمنا مجمعون على استحسان الحب الغرامي ، وانه ضروري لكل إنسان ولذا تراهم يهتمون اهتماماً زائداً بتحسين مواد هذا الحب والأشياء المؤدية إليه وأمام أعيننا شواهد كثيرة لذلك كالروايات والأشعار والصناعة النفسية التي لا يقصد بها غير الوصول للمرأة والتمتع بقربها ، فالشبان يصرفون أثمن وقت في حياتهم بالنظر والمشاهدة والسعي والتفتيش ،

---

(١) النويري : نهاية الأرب .

(٢) عباس محمود العقاد : الفصول .

واقتناء أحسن أدوات الحب ، إما للإغراء والمخادعة ، أو للزواج ، والنساء والعذارى يصرفن أكثر أوقاتهن بل جميعها في اجتذاب الرجال وإيقاعهم في مصائدهن إما للزواج أو للغرام والمغازلة .

ولذا فأحسن وأمتن قوى البشر تذهب جزافاً سدى في الأشغال والأعمال المضرة التي تجر على هذا الكون وبالاً عميماً (١) .

قال غوتن : كثيراً ما تنتهي الصداقة بالحب ، ولكن لا يمكن الحب أن ينتهي بصداقة (٢) .

قال لونجفلو : من أجمل صفات الحب ان يظن السوء في محبوبته (٣) .

قال هربرت : الحب كالسعال ليس من المستطاع إخفاؤه (٤) .

قال لاروشفوكو : ليس شيء يظهر الحب حيث لا يكون ولا شيء يستره حيث يكون (٥) .

قال ميرابو : الغياب القليل يحمس الحب ، الكثير يقتله (٦) .

قال غوته : الحب الحقيقي يوهم صاحبه انه وحده يحب ، وانه لم يسبقه ، ولن يأتي بعده من يحب مثله (٧) .

وقال هوغو : إذا كنت حجراً فكن صواناً وإذا كنت نباتاً فكن حساساً ، وإذا كنت إنساناً فكن حباً (٨) .

---

(١) مجلة الإخاء ٢ : ١٤٨-١٥٢ .
(٢) مجلة الأخلاق بنيويورك ٩ : ٩٦ .
(٣) المصور ١٩٢٧ م ١٥٠ .
(٤) المصور ١٩٢٧ م ١٥٠ .
(٥) المصور ١٩٢٧ م ١٥٠ .
(٦) المصدر سنة ١٩٢٧ م ١٥٠ .
(٧) المصور ١٩٢٧ م ١٥٠ .
(٨) مجلة الأخلاق سنة ١٩٢٤ م .

وأول من نسب إلى الجماد عواطف الناس امبيروكليس ، الفيلسوف اليوناني الذي نشأ قبل المسيح بأربعة قرون ، فإنه ذهب إلى أن جميع القوات الطبيعية كالفلكية والكيماوية ، هي نفس الإرادة البشرية ، ولو لم تكن كاملة النمو مثلها ، وان أشد العواطف المتسلطة على الإنسان أي الحب والبغض هما الفاعلان في إدارة شؤون الكون . وقال : إن العناصر الأربعة أي الأرض والماء والهواء والنار ، كانت قبلاً ممتزجة معاً بفعل الحب ، ثم داخلها البغض فانفصلت إلى أشكال عديدة ، وتولد منها النبات والحيوان على التعاقب ، وكانت هذه المخلوقات قبلاً منفصلة ، ثم جذبها الحب ، فتألفت منها أجسام الحيوانات المعروفة اليوم .

وذهب مذهب الفيلسوف اليوناني ، ليو الإيطالي الذي عاش في القرن السادس عشر ، وزاد عليه أن قسم هذا الحب أو الجاذبية إلى ثلاثة أقسام : الحب الطبيعي والحب الشعوري والحب العقلي ، وعنى بالأول القوة التي تجتذب مياه النهر إلى البحر والحجر إلى الأرض ، وتحفظ النظام الشمسي والنجوم في دوائرها . وبالثاني محبة الحيوانات بعضها لبعض وتعلقها بمن يحن إليها ، وبالثالث الحب بين الخلائق العاقلة كالملائكة والبشر .

ولم ينحصر هذا المبدأ في باحثي القرون القديمة والمتوسطة ، بل قام له أنصار بين باحثي هذه الأيام أيضاً ، فقال الدكتور لودويج بخنر : إن الحب وقد تلبس بشكل الجاذبية يجذب الحجر إلى الحجر والتراب إلى الأرض والنجوم إلى بعضها ، ويثبت دعائم هذا البناء العظيم الذي ندبّ على سطحه كالحيوانات الحلميّة ، ونحن نكاد لا يشعر بنا في هذا الكون الذي لا حد له ، وهذا البناء العظيم سيدوم مدة طويلة حتى تنحل أجزاؤه .

وقد تطرق بخنر إلى ما وراء ذلك فقال : إن الألفة الكيماوية التي بين الدقائق وبين الجواهر الفردية في مظهر آخر من مظاهر الحب ، وفي ذلك

قوله : كما أن الرجل والمرأة يجذب أحدهما الآخر ثم هكذا يجذب الأكسجين الهيدروجين ويؤلفان الماء باتحادهما معاً بالمحبة ، وللبوتاسيوم والفسفور غرام شديد بالأكسجين حتى أنهما يحترقان تحت الماء ، أي أنهما يتحدان مع محبوبهما [1].

ومن يتأمل الطبيعة ، حيوانها ونباتها ، يجد أنها مهمومة ، بل مجنونة بالحب والغرام ، فمنها أنواع كثيرة جداً تجعل الغرام غاية إذا تمت انتهت الحياة ، كبعض الفراش إذا انسلخ من فيلجته ، قصر حياته على التزاوج ، ثم البيض ثم الموت ، والحال كذلك في معظم النباتات تنتهي حياتها بالتلاقح ثم البيض (البذرة) ثم الموت . وهذا ما يرى في القمح والذرة ونحوهما ، وفي كثير من النباتات ينفصل الذكر من الأنثى ، كما يرى في النخل والتوت ، ويجهد الذكر نفسه لكي يحمل الرياح التي تهب حوله ملايين الجراثيم المنوية إلى الأنثى وهو اذا لم تحمل الرياح جراثيمه استغوى الحشرات لحملها .

ولكن النبات وإن عرف الحب واحتال لإيصال جراثيمه إلى الأنثى ، فإنه لا يعرف المغازلة التي هي وقف على الحيوان ، والمغازلة مشتقة من الغزل أي الفتل ، فالذكر يغازل الأنثى لكي يغويها ويوقعها في حبائله ، وهو يفعل ذلك بأساليب مختلفة ، فأحياناً يرقص أو يعرض ألوانه الذهبية أو ينفش ريشه .

وأما الآدميون فقد قصروا التبرج على المرأة ، ولكن الحقيقة الواقعة ان التبرج هو في الطبيعة من خصائص الذكر ، وليس من خصائص الأنثى ، وهذا يرى على أظهره وأوضحه في الطيور والزواحف واللبونات ، وذكر الدندي يتبرج ويتبهرج ، وكذلك ذكر الطاووس ، بينما الأنثى عاطلة لا تلفت النظر .

---

(١) مجلة المقتطف : ١٧ : ٢٧ – ٣٢ .

وقد رؤي من النبات أن الطبيعة تقنع منه أحياناً بالتلاقح فتموت الأم عند ما تكون البيضة (أي الجنين أو البذرة) ، وذلك لأن بقاء النوع في نظر الطبيعة أهم من بقاء الفرد ، وهي ما دامت ترى أن حياة الذريات القادرة قد تفلت بالبذور ، فليس لحياة الفرد عندها شأن عظيم ، ولهذا السبب نجد أن العنكبوت والعقرب ، وغيرهما ، تأكل الأنثى الذكر عقب التلاقح ، والأنثى في هذه الأنواع قوية ضخمة لا يتحمل منها الذكر المسكين ضغطة واحدة حتى تتزايل أعضاؤه ، وإذا أريد تعليل هذه الفاجعة التي تعقب الغرام لم يوجد تعليل لذلك سوى الاقتصاد ، فإن هذه الأحياء تقتصد باستبدالها بذكورها طعاماً تأكله .

والعناكب والعقارب من أقدر الحيوان على المغازلة ، يتقدم الذكر في خوف وتردد ، فإن أحست به الأنثى حملت عليه تريد التهامه ، فيتراجع ، ولكنه يعاود فيبسط بطنه ويقف على رجليه ، ويميل ذات اليمين وذات اليسار متقدماً متأخراً إلى أن يستثير في الأنثى تلك العاطفة الجنسية الكامنة فتستجيب له ويتم التلاقح ، وهو هنا يحاول الهرب فيجري بأقصى سرعة وأحياناً ينجو ولكنه في الغالب يكون طعام حبيبته السابقة .

وحيث يكون التلاقح خارجياً لا تكون هناك مغازلة ويراد بالتلاقح الخارجي ما يحدث مثلاً بين بعض الأسماك حين تلقي الأنثى بيضها ويلقي الذكر جراثيمه في الماء فيلتقي الاثنان ويتم التلاقح في الماء دون أن يعرف الذكر أنثاه . ولكن هذا قليل حتى بين الأسماك ، والأغلب أن يتعارف الاثنان ويتغازلا ، فيعرض الذكر اعانته على الأنثى ويساعدها في بناء العش وحراسة البيض .

وهنا يجب أن يلاحظ الإنسان شيئاً مهماً جداً في مغازلة الحيوان ، وهي أنها في أحيان كثيرة لا تقتصر على التعارف الجنسي ، بل تتجاوزه إلى العناية

بالعش والأطفال،وأن الذكر حين يريد استشارة الميل الجنسي في الأنثى ، إذا صدت عنه وتأبت يعمد إلى المواد التي يبني منها العش كالحصاد والقش والورق فيحملها إلى الأنثى فتستجيب له بعد الصدود . ومن هنا يفهم من أن الغزيرة الجنسية تلابسها غريزة أخرى هي غريزة الأسرة والأولاد .

وأكثر الحيوان مغازلة هي الطيور ووسيلة الذكر في قتل الأنثى وإغرائها هي ريشه وعرفه ورقصه وشدوه ، ولكن الملاحظ أن الطيور التي تشدو لا تكون مزينة بالريش ، وتلك التي تتزين لا تشدو ، لأن الطبيعة تقتصد في الوسائل وتقنع بواحدة .

وليس من شك في أن الأنثى تختار الذكر ، ومن هنا يبذل جهده في إقناعها بجماله كما يفعل الدندي حين يزيف لأنثاه ويتنقش ويبسط ذنبه كالمروحة ويدور حول نفسه .

ويفعل ديك الدجاج شيئاً قريباً من ذلك ، بل هو ينبش التراب ويفحص عن الحب ، فإذا رآه استدعى الأناث ليلتقطنه ، وهو واقف يؤثرهن على نفسه .. ثم هو لا يتأخر عن قتال ديك آخر ليدفعه عن إناثه .

ومن هنا يفهم أن الإيثار والشجاعة يلابسان العاطفة الجنسية ، وليس القتال من لزوميات التنافس بين ذكرين من الطيور أمام الأنثى ، فإن هذين الذكرين يقنعان بالعرض حيث يبدي كل منهما محاسنه ، وعلى الأنثى أن تختار .

ولاحظ سيلاس عرضاً تكرر جملة أيام ، فوجد أن الذكر الذي كان يحظى بقبول الأنثى هو ذلك الذي امتاز في نظره بالجمال والحسن ، فكأن الآدميين والطيور يسيرون على ذوق ونهتدي بمعايير واحدة للاستحسان أو الاستقباح [١] .

---

(١) المجلة الجديدة ١٩٣٠ م ٨٣٨– ٨٤١ .

ويرى في معظم الطيور أن الذكر هو الذي يغازل ويغري ويتقدم بالطلب والرجاء ، وللانثى المغازلة والإغراء على قدم المساواة وهي لذلك أيضاً تتساوى في الزينة لا يمتاز الذكر عن الأنثى .

ومعظم هذه الطيور مائية يمارس الحب ممارسة طويلة يغطس الذكر مع الأنثى ، ثم يصعدان ، وفي منقار كل منهما بضع حشائش من قعر الماء ، رمز لبناء العش . ثم يسبحان ويخضخضان الماء بأرجلهما حتى يذهب رشاشه كل ناحية ، ثم يفتشان عن الأعشاب ، وهذا العمل يتكرر في مرح ونشاط بما نفهم منه أنه يتم في سرور ولذة .

ودرس بعض الباحثين ولا يزالون يدرسون مظاهر الغرام في الحيوان استدراجاً لدرس تطوراته في الإنسان ، فتبين لديهم أن الجريب وهو يخضخض الماء ويحمل الأعشاب في منقاره يؤدي عملاً لا يختلف كثيراً عن رقص الشاب أو الفتاة .

فشوارب الرجل الذي يفتلهاعند الزهو هي كعرف الديك الذي ينتصب زهواً واستكباراً ، وكلاهما يرجع في فسيولوجية الجسم إلى مفرزات الخصيتين بحيث لو خصي الديك والرجل لزال العرف من الأول وزال الشاربان من الثاني .

ثم هناك الانحرافات الجنسية ، التي تكثر في الإنسان لتتفرع مذاهب في الحب ولهذه الانحرافات أسس توجد في الحيوان ، وكلما اقترب الإنسان من الحيوان ظهرت هذه الأسس قوية .

ويلاحظ في الإنسان أن جمال الأنثى يفوق جمال الذكر ، فإن جمال الذكر شيء مألوف في الطبيعة يرى ذلك في الطيور والزواحف والأسماك

واللبونات ، ولكن الإنسان بحضارته وذهنه رفع المرأة فوق مقامها الطبيعي وجعلها أجمل منه .

ومما يلاحظ أن للحيوان فصلاً خاصاً بالتلاقح إذا انقضى ضمرت الخصيتان فلا يلتفت الذكر إلى الأنثى إذ هو في هذه الحالة يشبه الخصي من الرجال . فإذا جاء فصل التلاقح عادت إليه قواه ونمت الخصيتان ، فتتنبه غرائزه الجنسية ، ويبحث عن الأنثى ، ولكن الإنسان يختلف عن الحيوان في ذلك لأن غريزته الجنسية تبقى على طول العام ، من هنا أصل الأسرة الإنسانية .

وذلك لأن الرجل باستحثاث الشهوة الجنسية له ومداومتها وبقائها طول العام يلزم الأنثى ، ولزومه هذا يعمل لبقاء الأسرة ودوامها ، ولا يوجد هذا في الحيوان لأن شهوته تروح وتجيء في فصول خاصة فيستغني عن أنثاه إلاّ في بعض الفصول (١) .

وذكر الدكتورماسونجود: أنالحب والزواج موجودان في كل ناحيةمن نواحي الطبيعة ، فهما موجودان بين الذرة والذرة ، ولو أننا نسميها بقوة الجاذبية ، وهما موجودان بين العنصر والعنصر ، ولو أن الكيماوي يسميها تجانساً بين الحديد وحجر المغناطيس ويسميان بقوة المغناطيسية ، ولكنه الزواج في كل حال (٢) .

وقيل : إن الإنسان تدرج شيئاً فشيئاً من الحيوانية ، وهي الشعور باللذة الجسمية فقط إلى تهذيب هذه الحيوانية ، وابتداء إنماء العقلية الإنسانية والنفسية الإنسانية ، وتقدم في تحسين هذه العقلية ، وهذه النفسية خطوة فخطوة ،

---

(١) المجلة الجديدة ١٩٣٠ م ٨٣٨ — ٨٤١ .

(٢) مجلة الرياضة البدنية سنة ١٩٣٦ م .

وكان لذلك تأثير كبير في إضعاف حيوانيته وتكبير عقليته وتهذيب نفسيته ، فأصبح يشعر بأشياء أخرى غير اللذة الجسمية وارتقت عقليته للتفكير في آمال تحييها .

وفي هذه الخطوات للتقدم العقلي ابتدأت علاقاته التناسلية تتكون في شكل الحب ، فصار لا يقوم نحو شريكته الإنسانية بعملية الاختلاط الجنسي فقط ، بل ابتدأ يشعر بميل لها وحنو وعطف عليها ، وصارت هي تجد فيه عوناً كبيراً على مشاق الحياة ، واستدعت هذه العواطف الأولية في الحب تغييراً عظيماً ، وأهم هذه التغييرات هو ابتداء النطق ، إذا أراد الإنسان أن يعبر عما يشعر به من العواطف وارتقاء المخ الذي ابتدأ أن يفهم ويفكر ويشعر ويحب ، وكان لهذين التطورين تأثير عظيم في حركة خروج الإنسان من عصر الفطرة الحيوانية إلى عصر الإرادة الإنسانية .

ولما دخل الإنسان في عصر الإرادة الإنسانية ، أصبح يفكر ، وباقي الحيوانات لا تفكر ، وصار يستنتج وباقي الحيوانات لا تستنتج ، فأخذ يسأل نفسه لما يشعر بميل للمرأة ، ولماذا يشعر بفرح عظيم عند ما تقرب منه هذه التي يميل إليها ؟ وكما يشعر بانقباض عندما تبتعد عنه ؟ ولماذا يفكر فيها كثيراً في غيبتها ؟ ولماذا يشعر برغبة في مساعدتها ؟ وفي حمايتها ؟ كل هذا يمكننا أن نسمي ذلك الشعور بالعوامل النفسية التي يتركب منها الجزء الخاص بالعقلية من الحب .

ولكن هذه العوامل النفسية لم تكن كافية لإرضاء الرجل والمرأة بعلاقتهما ، لأنهما كانا يتلاقيان وكانا يشعران بجاذبية شديدة تجذبهما بعضهما بقوة عظيمة كامنة في طبيعة جسميهما ، وهذه القوة هي فطرتهما الحيوانية التناسلية ، فخضوعاً لأمر هذه الفطرة وإجابة لداعي رغبة جسميهما قاما بعملية الاختلاط التناسلي وبقيامهما بهذا الواجب شعرا باكتمال حبهما وعرفا أن الحب يتركب من عنصرين :

١ – العنصر النفسي العقلي .
٢ – العنصر التناسلي .

وأخذ العنصر الأول أي النفسي يتقدم ويرتقي كلما تقدم الإنسان وتهذب بأنواع المدنية المختلفة ، حتى أصبح في ذاتيته أقوى من العنصر الثاني أي التناسلي فصار الأول يتحكم في الثاني ، ويكفيه طبقاً لرغباته .

وصار الإنسان لا يجيب رغباته التناسلية طبقاً لأحكام الفطرة الحيوانية ، بل صار يجيب رغباته التناسلية طبقاً لما تمليه عليه عقليته وإرادته ، وطبقاً للفطرة الحيوانية كان الشعور التناسلي والعمل التناسلي ليس المقصود منها إلاّ الإبقاء على الجنس .

فالعالم مدين إذن للحب بكل ما هو جميل وبديع وثمين وفخم وعجيب ، فالفنون من رسم وحفر ونقش وشعر وتمثيل ورقص وموسيقى كلها مدينة للحب في تطورها وتقدمها .

حتى الآداب والتاريخ والقانون والأخلاق والآداب العامة وإنشاء العائلة وما يتبع هذه العائلة من باقي الأنظمة الاجتماعية كلها مدينة للحب .

وأما تأثير الحب من جهة أخرى ، فكان السبب في شقاء وتعاسة كثيرين لأن التي تنير أحيـــاناً ذهن الشاعر والمصور والموسيقي ، فإنها تلتهم قلوب غير هؤلاء حيناً آخر ، فتقذف بهم في حضيض البؤس والرذيلة والإجرام بل قد تكون سبباً لأحزان وآلام في الحياة ، تعجز عن الإتيان بمثلها كل الآفات الأخرى مجتمعة ، فالحب إذن يسبب السعادة والشقاء ، يسبب الفرح والحزن ، يسبب الإقدام والجبن ، يسبب الأمل واليأس ، يسبب الحياة والموت ، فدراسة الحب تاريخ للحضارة ودراسة الحب هي دراسة المدنية ودراسة المدنية هي دراسة الحب .

وذهب بعض الأطباء إلى أن الحب ضرب من المرض ينتقل بالعدوى بواسطة الجرثوم فيصاب به الناس كما يصابون بالأنفلونزة ، وتختلف العدوى قوة ومدة باختلاف الأسباب والاستعداد ، وباختلاف الأشخاص ، فبعضهم لا يؤثر فيه الجرثوم إلاّ بالتعرض للعدوى مراراً ، وبعضهم يصاب بالحب من أول نظرة،وقد يرى الشاب فتاة مراراً فلا يتحرك قلبه فيراها مرة أخرى، فيشعر أنه وقع في الشراك لاستعداد خصوصي هيأ سبب العدوى في هذه المرة[1]

ووصف G. Surbled الحب فقال : الحب شريعة يخضع لها المجتمع البشري ، فتفرض نفسها على جميع الأمم والنحل لأنه حياة الأنفس ومجمع العبادة والإحساس الروحي لعزاء البشر ، كما أنه رغبة شهوانية ، وبكلمة أخرى فالحب من الوجهة العامة والفلسفية ، مادة أساسية لهذه الحياة الدنيا ، حتّى الحيوان فإنه مربوط بشريعة الحب .

الحب ميدان فسيح الأرجاء لا يقتصر على الحب الشهواني فقط ، بل ينبض القلب بالحب الروحاني والنفساني ، فيقرب ما بين الحبين الشهواني والروحاني ، فيمزج النفوس بحبل متين من الصداقة والمحبة العذبة .

الحب عاطفة حقة وطبيعة حتمية وإرادة من الله تعالى ، فحرام علينا أن نطعن الحب في الصميم وأن نطرحه جانباً ، خجلين ونزيله من الوجود ، كأنه رذيلة وإثم كبير يرتكبه الإنسان .

وعرف G. Surbled الحب فقال : انه عاطفة متمكنة في عمق قلب الإنسان وهو الشريعة العظمى لطبيعة الإنسان الّتي جادت بها السماء على البشر .

فعلى كل رجل عاقل ، أن ينتخب الحب الطاهر الذي عليه تبنى الأسرة ، وأن يتجنب الحب المريض الذي يهدم أسس العائلة ويسير بها إلى الخراب وتقطيع أوصالها .

---

(١) مجلة الهلال ١٤ : ٢٥٤ – ٢٥٥ .

إن الحب يتصدر ويحتل المرتبة الأولى بين مختلف العواطف النفسية ، فهو الملك المتصدر على عرش تلك العواطف ، فيسوق إليه ويتحكم ، فيما تبقى منها ، ويجعلها تخضع لمشيئته وإرادته ، وغاية هذا الحب الزواج . وما عدا هذا الحب ، فهو حب سقيم ، وبعبارة أخرى الزنا .

ويختلف حب الرجل عن المرأة ، فحب المرأة ذو حاسة خاصة بها من حرارة وغيرها ، فهي أكثر سراً وغموضاً ، وأكثر دواماً وحيوية [١] .

الحب شريعة الطبيعة والفطرة التي فطر عليها الإنسان ، فيمتد نفوذه وسلطانه ، إلى جميع الكائنات والمخلوقات من عالم نباتي إلى عالم حيواني ، حتى عالم الجماد فإنه لا ينكره . وأساس الحب في عالم الجماد هو عبارة عن مزج جسم مع جسم آخر أي تزاوج أجزاء الجوهر الفرد .

وكذلك يعترف النباتيون بأن الحب ليس غريباً عن الحياة النباتية [٢] .

وقال Anton Mystrom : ليس الحب مادة خسيسة تستحق الاحتقار والازدراء حسب تعاليم النساك والزهاد ، بل هو خلقة مدهشة جاءت بها الطبيعة وحبتها مزايا عظيمة يجب أن يحسب لها حساباً ويعتني بها اعتناء عظيماً .

وإن جميع الأشخاص الذين يتمتعون بالأرواح الطاهرة ، قد قدروا ذلك الحب وفهموه وجعلوا له مكاناً علياً ، فكان في وقت وزمان ، العامل النافع لشحنة آراء ومواهب الفنانين والشعراء والكتاب وغيرهم من مختلف الشعوب والأجناس .

أجل أن الحب فن عظيم يستحق كل تقدير وتقديس ، ويتطلب نوعاً من الروح الخاصة التي تجعل المحب يبذل النفس لما يتحلى من روحانية تخرج عن دائرة الحس المادي .

---

(١) (٢) انظر تفصيل ذلك في

G. Surbled : **L'amour Malade** .

G. Surbled : **L'amour Sain**

ويستطيع الحب الحقيقي أن يقهر الضرورة التناسلية أو يقف حجر عثرة أمامها ، حيث أن ذلك الحب يتمتع ويمتاز بجاذبية عالية جداً عن جاذبية الحب الحسي الخالص .

ومن طبائع قبيلة فيكتورية ، ما روي عن الزواج عندهم ، فكان من يرتبط بحب يجذب الذكر والأنثى إليه ويدعمه دعماً قوياً .

كما لوحظ في بعض الشعوب الإفريقية مثل **Harsari** أن التعاطفات القلبية والعواطف منتشرة بين الشبان والشابات ، حتى شوهد كثير من الأغاني في الحب والهوى يغنونها ويترنمون بها [١] .

وقيل : إن الخيال في الحب هو الشعور الذي يدفع الرجل والمرأة لأن يرتبطا . فيتحدان اتحاداً دائماً في كامل شخصيتهما من طبع وصفات طبيعية .

يبدأ الارتباط الجنسي بين الذكر والأنثى ارتباطاً قوياً ، ثم ينمو حتى يصبح حباً حقيقياً بين المحبين ويستقر في صميم نفسيهما .

ويصادف أحياناً ، أن بعض المحبين من ذكر وأنثى ، كانوا يتمتعون خلال حبهما بجاذبية من المرتبة الممتازة ، ثم تزوجا ومر عليهما زمن ، أخذ الحب تنطفىء جذوته وتخمد ناره ، بسبب الشقاق والخصام ،وبسبب اختلاف العقل والطبع للذين كانا في طيء الخفاء والكتمان ، مما أدى إلى اختفاء جاذبية الحب رويداً فرويداً ، وقد يؤدي ذلك إلى دفعهما للطلاق والانفصال عن بعضهما .

ويمكن أن يولع رجل أو امرأة بالحب ، فيخطبان بعضهما ويتزوجان ، ثم يفترقان فيتزوجان مرة أخرى أو عدة مرات في مجرى حياتهما ، ولا يستطيع

---

(١) **Anton Mystrom : La vie sexuelle et ses lois .**

لمرء أن يفسر ذلك كضرورة للطباع المتبدلة أو رقتها وخفتها ، بل يمكن القول : ان الظروف تلعب دوراً عظيماً في أغلب نواحي الحياة البشرية .

وقد توجد سلطات خفية في طبيعة الإنسان ، كجاذبية الحب التي لا يستطيع الإنسان أن يدفعها عنه ويقاومها ، بالرغم من ممارسة العقل والتبصر وقوى الإرادة ، وقيل قديماً في المثل : الحب أعمى .

ذكر Goethe : إن في الإنسان بعض القوى المغنطسية التي هي السبيل الوحيد لجذب المحبين والاندفاع بهم نحو الحب، حسب الحاجة التي تصادفهم، وتكون هذه القوى شديدة لدى العشاق ، حيث تعمل دائماً في تقريب المسافات والقضاء على التفاوت بين المحبين [١] .

وقيل : يصادف احيـــاناً بعض الرجـــال المتمتعين بتربية رفيعة ، فيتأثرون بحب بعض النساء اللاتي لا يتمتعن بتربية حسنة وينتمين الى اصل وضيع .

وهذا ليس من النادر وقوعه ، بل يشاهد في كثير من حالات الزواج تتصل بهذا النوع من الحب ، يسيطر عليها الحب ويتغلب على هذه الفوارق النفسية والفسيولوجية .

وقد ثبت بالتجربة والبرهان أن لبعض الرجال طبيعة عشقية خالصة ، مما يجعل سحر النساء وجاذبيتهن تغويهم وتتسلط عليهم .

كما أن بعضهم يوقظهم الحب وتؤثر بهم صفات هي أكثر طبيعية أصيلة في المرأة كالجاذبية وممارسة الاشياء السارة والإخلاص في حبها وغيرها مما لها صلة بالصفات الأهلية الضرورية للممارسة في الحياة البيتية .

وأما حواس السرور والكدر فإنها تلعب دوراً عظيماً في الحياة الوجدانية ، أكثر من الصفات الطبيعية للرجل .

وتعتبر حاسة السرور والظرف فسيولوجياً كغيرها من حواس الجسد

---

(١) Anton Mystrom : La vie sexuelle et ses lois .

كالهضم وتحريك العضلات ، مما تجلب السعادة بالسرور والحب والجاذبية ، وتضفي الراحة والاطمئنان والرضا على الإنسان .

وتتم الحواس بالسرور بواسطة النظر والسمع والشم الخ . . . فتولد الجاذبية فتجذب الشخص إلى دائرة العشق والغرام .

وعلى العكس من ذلك فإن الإحساس بالكدر والشؤم يتولد من إيقاظ الشعور بالاشمئزاز وعدم الذوق لشخص له رائحة كريهة وأسنانه مهجورة غير نظيفة ، مما يجعل الجاذبية تعمل عملها بالرفض والابتعاد عن ذلك الشخص.

وقيل : أكثر مما يلذ للرجل ويسره في المرأة ، من الصفات اللطف النسائي والجمال التام الذي من صفاته تربعه على عرش السلطان بلا منازع عند العدد الأكبر من الرجال .

وقيل : إن الحاجة الطبيعية هي التي تبعث الذكر والأنثى من التقرب من بعضهما ، وتكون بطريق الصدفة،حيث توقظ الشعور بالجاذبية نحو بعضهما .

مع العلم أن ذلك لا ينطبق على جميع الذكور والإناث ، فهناك عدد منهم لا يستطيعون أن يحبوا ، بسبب خصائصهم وما جبلوا عليه ، مما يجعلهم يتمكنون من أن يكرسوا أنفسهم ، فيعطفون على المعشوقين ، ويقضون كثيراً من أوقاتهم ، وهم يفتكرون بهم ويلقون في سبيل ذلك كل عناء وعذاب وتضحية .

فالحب إذن فن عظيم يستحق كل تقدير وعناية ، لأنه يتطلب حالات خاصة من الروح ، يبذل في سبيلها كل غال ورخيص حيث هي مادة روحية على مستوى عالٍ تتخطى الحواس الطبيعية الأخرى .

وان قوة الحب الحقيقي قادرة أن تقهر الضرورة التناسلية ، حيث أن هذا الحب الخالص يمتاز بجاذبية عالية المستوى بالنسبة للحب الجنسي .

وتسبب هذه الجاذبية بين الشخصين المتحابين عاطفة عظيمة كاملة ، أكثر مما ينشأ بين الجنسين خلال ممارستهما العمل الجنسي ، من حيث الشعور والإحساس .

وإن اتقان المحب لحبه هو الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها أن يبرز للوجود صفات الشخصية الأخرى المعشوقة وإظهارها بمظهر ينم عن شخصيتها وماهية نفسها .

ثم قال : إن الحب في النساء يكون غالباً باطنياً غير جلي — وقد ينتهي أحياناً بالصفات والخصائص التي يتمتع بها الذكور .

والحب الطاهر يظهر في الرجل ، وقد تمتع بإحساسات رفيعة ، هذا بالإضافة الى الحاجات التناسلية التي تندفع بقوة عظيمة مع الإخلاص والحنو .

ويمكن القول انه بدون عاطفة الحب ، لا يستطيع الشعراء والفنانون أن يعيشوا غير متمتعين به ، لأن الحب تستعر ناره وتلتهب ، فتحرك وتمنح الفن الإبداعي قوة لارتقائه واندفاعه ، وأن يتكيف بالعقل والروح ، وقد ثبت قديماً بأن الشعراء العظماء والفنانين العباقرة ، كانوا يتمتعون بطبائع الحب والعشق ، فكان ذلك لهم عوناً على نبوغهم .

وبتأثير الشعور الجنسي ، يصبح التصور حياً ونشطاً ، والحاسة رقيقة وحية والأفكار والأعماق نامية متطورة .

كما أن الطبائع الشعرية تتزين بألوان من الحياة ، أجملها وأحلاها ذكريات الشعراء في الحب ، فيصفون الجمال والتمتعات العذبة التي تمتعوا بها ، وقد يتصورونها تصويراً قريباً من العبادة ، والخلاصة أن الحب قوة تسوق إلى أعمال رفيعة جداً في حياة البشر .

وعلى العكس من ذلك قد يكون الحب عذاباً أليماً لنفس المحب ، كما تقف موانع وعقبات تحول ضد الجهود المبذولة للتمتع بالحب المرغوب ، فتصيب النفس اضطرابات وغم ، يمزقان القلب ويخيم عليه خوف من أن يأتي عاشق آخر ، ينال الحظوة وحسن الالتفات من المعشوقة ، فتنمو الغيرة في نفسه وتعمل عملها في نفس العاشق الأول فتحطم أعصابه وتسلب صوابه ، وقد تدفعه إلى ما لا يحمد عقباه .

وإن الرغبة بالتقارب والاتصال بالجنس الآخر في الأصل حادثة طبيعية عمياء ، وحاجة تتطلب التسابق مع جميع الحواس الأخرى في الإنسان .

قال **P. Mantegazza** : إن الأعصاب والحواس الأخرى ، هي دائماً على استعداد للتحريض ، وإذا مست في بعض الظروف ، تصبح منابع للسرور ، فيصيب الدفء الجلد ، وترجف الشفة وتسرع الدورة الدموية والتنفس ، ويصبح الصدر ضيقاً ، وتخرج منه زفرات وتأوهات ، ويصبح العقل في تلك اللحظات مغشياً عليه بسبب الشعور الذييتاب العاشق ، فتعطل تقريباً وظائف العقل ، وتحجب عنه كل نشاط حيوي ، جُمع فيه حس اللمس وهذا يكون غالباً بدون إرادته واختياره ، ولا سيما الأقسام من الجسم التي تكون أكثر حساً (١) .

وقال ألفرد دي موسيه : الحب هو أن يعطي الإنسان نفسه لآخر جسماً وروحاً ، وبعبارة أصح فهو يجعل من اثنين مخلوقاً واحداً قادراً على التنزه تحت الشمس وفي الهواء الطلق وسط المزارع والحقول بجسد واحد له أربعة أذرع ورأسان وقلبان .

الحب هو الإيمان ، بل هو دين السعادة في هذه الحياة الدنيا ، فهو مثل نور يبيد ظلام قبة هذا الهيكل الذي نسميه العالم .

---

(١) Anton Mystrom : La vie sexuelle et ses lois .

ولكن الحب أفضل من الذكاء لأنه لا يساعد على تحسين المواهب فحسب، بل يتعدى إلى مضاعفتها لأنه يمكن للإنسان أن يضم قلباً إلى قلبه وذكاءً على ذكائه ، وفي ذلك السعادة القصوى[1] .

وقال ميرابوا : الغياب القليل يحمس الحب والكثير يقتله[2] .

وقال هربرت : الحب كالسعال ليس من المستطاع إخفاؤه[3] .

وقال لاروشغوكو : ليس شيء يظهر الحب حيث لا يكون ، ولا شيء يستره حيث يكون[4] .

ووصف Michelet الحب فقال انه قوي يفرض سلطانه في كل زمان ومكان ، وهو طاهر نقي ، وهو بدون شك ولا ريب شعلة ورغبة وجنة ، فيستطيع أن يحل في كل مكان وزمان[5] .

وقال Surbled : الحب ضرورة قاهرة لطبيعتنا ، فيها يتحقق الزواج ، وتمتد فاعليته حتى تشرف على الشيخوخة[6] .

ورأى لامارتين في الحب مرض القلب ، حيث لا مرض ، فهو قيثارة بينها وبين العواطف رابطة لا يذهب لحنها في الهواء هباء ، وإنما يتردد بين جوانح القلب حتى يزلزلها.من لم يمسه الحب العذري في حياته ، فهو عدم . الحب زهرة النفس جمعها القدر من شهوة الربيع. الحب يرفع نفس صاحبه إلى عالم الأحلام اللذيذة . إن يد الحب خفية تقبض نفس مَنْ تجرعه إبان وحدته ، وتسقيه خمراً ممزوجاً بمرارة اللذة وحلاوة الأوجاع . الحب يرفرف

(١) السياسة الأسبوعية سنة ١٩٢٩ م عدد ٢٥٥ .
(٢) (٣) (٤) المصور سنة ١٩٢٧ م عدد ١٥٠
(٥) Michelet : L'humanité .
(٦) Georges Surbled : La vie de jeune fille .

حول مضجع أسيره في سكون الليل ، فيجعله مصغياً حيث لا يسمع محدقاً حيث لا يرى. الحب قوة غير منظورة وراء المرئيات كامنة في ضمير الوجود. الحب يوقظ مَنْ لمس روحه من رقدة الحياة . ما أهون على المحب المخلص أن يحرق نفسه بخوراً أمام مذبح الحب . الحياة بغير حب طاهر كشجرة بلا أزهار ولا أثمار . الحياة والحب والجمال ثلاثة أقانيم في ذات واحدة مستقلة مطلقة لا تقبل التغيير ولا الانفصال (١) .

وقال شكسبير : إن الحب هو أن تكون مصنوعاً من التهذيب والدموع والإيمان والخدمة والوهم والهوى والرغبة والعبادة والواجب وحفظ العهد والوداعة والصبر والضجر والطهارة والمحنة (٢) .

وقال هير : العلم أبو الحب ولكن الحكمة هي عين الحب (٣) .

وقال أوربيد : أمواج البحر المحيط ، ولهيب النيران المتأججة مخيفة ورهيبة ، ولكنها ليست شيئاً بجانب نظرات المحبوبة وجلاء جمالها (٤) .

وقال س . د . غردون : ينسى المحب نفسه في خدمة المحبوب (٥) .

وقال بيكنسفيلد : إن الحب البشري هو التعزية التي لا تفشل أبداً (٦) .

وقال هاين : الصداقة والمحبة وهجر الفلاسفة ثلاثة أمور يفضلها الناس على سواها (٧) .

وقال غوتن : كثيراً ما تنتهي الصداقة بالحب ولكن لا يمكن الحب أن ينتهي بصداقة (٨) .

---

(١) الإخاء ٣ : ٦٦٣ .
(٢) المقتطف ٦٠ : ١٧٦ .
(٣-٦) مجلة الإخاء ٨ : ٣٨٦ .
(٧-٨) مجلة الأخلاق بنيويورك ٦ ١٣٠ ٩ ٦٩ ٩ ومجلة سنة ١٩٢٤ م .

وقال يوفيه : الحب الفائز يرفع حملاً عن قلوبنا ويضعه على أكتافنا [١] .

وقال لانكلو : وجد الحب لسعادة القليلين ولشفاء الكثيرين [٢] .

وقال هجارد : ما أجمل الشباب مع الحب فإنه يجعل مرارة الحياة حلوة ، ويفتح أبواب السرور في أفئدتنا [٣] .

وقال هوغو : إن النفس التي تحب وتشقى هي في أسمى حالات السعادة في الوجود [٤] .

وقال نابوليون : الحب شغل الكسلان وسلوى العامل ومركب الملك الغارق [٥] .

وقيل : الحب يحكم بلا سيف . الحب أعمى ولكن الغيرة عوراء [٦] .

وقيل : الحب خجول عذب لطيف فهو كالفجر المنير أو كنجمة المساء الأولى أو كزهرة أو كخرير الساقية الهادي .

الحب هيام محرق لساع ، فهو كالبركان الهائج أو كالحصان البطران الغير الملجم أو كالوردة الحمراء أو كالشلال .

الحب هادىء واضح كالسماء الزرقاء الصافية أو كالوردة البيضاء .

الحب عيد سعيد تتوفر فيه المسرات واللذات ، فهو كالشمس المشرقة أو كأنغام نشيد الفوز والانتصار .

الحب أوله صفاء وهناء ، وآخره عناء وشقاء .

الغيرة دليل على حب الإنسان لنفسه . الحب يكون أحياناً بلا غيرة كما تكون الغيرة بلا حب [٧] .

(١ – ٦) مجلة الاخلاق ٦ : ١٣٠ ، ٨ : ٣٨٦

(٧) مجلة الاخاء ٣ : ٢٣٦ – ٢٣٧

وقال فرنك كرين : الحب هو الذي يريحنا ، فالذي يحب كل الأشياء يكون يرى نفسه ممثلة في تلك الأشياء كلها ، إذ يكون كل شيء محبوب منه وجهاً من أوجه نفسه العديدة ، وبعكس هذا تكون البغضاء التي تصغرنا كثيراً .

وقيل في الحب : لولا وجود المحبين في العالم لفقدت الشمس نورها نارها [١].

وقال نابوليون : في الحرب كما في الحب ، يجب أن يبصر الواحد الآخر عن قرب لكي يفزع منه [٢] .

وقال هوغو : إذا كنت حجراً فكن صواناً وإذا كنت نباتاً فكن حساساً ، وإذا كنت إنساناً فكن حباً [٣] .

وقال ديكنز : ليس الحب ناراً يمكن حصرها في النفس ، فكل شيء يتم به الصوت والصمت والعينان ومتى لم يحسنوا كغبط اليار اشتد اضطرامها .

إن الحب الحقيقي يصدق كل شيء ويحتمل كل شيء ويثق بكل شيء، فإذا امتكن قلبنا هذا الحب الصادق صرنا ملائكة و صيرنا الأرض سماء [٤] .

وفي بعض التعاليم البوذية : إن الحب يولد الحزن ، ومن الحب يتولد الخوف [٥] .

وقال Jules Simon : الحب شعور معنوي غايته ربط نفسين ببعضهما [٦].

---

(١) مجلة الأخلاق سنة ، عدد أيلول ١٩٣٤ م .

(٢-٤) مجلة الأخلاق سنة ١٩٢٤ م .

(٥) Marie Galland : La vie de Boudha et les doctrines boudhiques .

(٦) Comolet : Mariez moi .

وقيل : إن الحب الطبيعي يجذب الجنسين كلاً منهما نحو الآخر، والطبيعة كلها تخضع لشريعته وسلطانه حتى في النبات والحيوان .

إن الحب الذي تشعرون به في قلوبكم ، لم يخلق عبثاً ، بل له غاية عظمى ، ويؤدي دوره في حياتكم .

وقد ، هبه الخالق لكم ، فهو وظيفة نافعة وضرورية ، بل ان الحب أوجد الزواج ، ومن ثم النسل (١) .

وقال هنري بوردو : وإذن فالحقيقة هي أن الصداقة بين رجل وامرأة يغشاها دائماً لون مزعج ، وتمتزج بها دائماً عاطفة أخرى تبدو كثيراً أو قليلاً ، أو تكتم قليلاً أو كثيراً ، وهي ليست في الغالب عند أحد الطرفين سوى الحب المكتوم (٢) .

وقال لابريير : إن الصداقة يمكن أن تقوم بين أشخاص مختلفي الجنس مجردة من كل خشونة ، ولكن المرأة تعتبر الرجل دائماً رجلاً ، وكذا الرجل يعتبر المرأة امرأة دائماً . وهذه العلاقة ليست بالهوى وليست بالصداقة الخالصة، فهي عاطفة قائمة بذاتها (٣) .

ووصف **Pierre Janet** الحب ، فقال : إنه عاطفة أو شعور أكثر إبهاماً وأقل فهماً من عاطفة الغضب ، ففي الحب يوجد السرور والانشراح يضاف إليهما المسالك الاجتماعية المتبعة في تلك الأمم (٤) .

وعرف **Spinoza** الحب بأنه سرور وانبساط ، يضاف إليهما التفكر بشخص آخر .

---

(١) Georges **Surbled** : **L**a vie de jeune fille .

(٢) (٣) السياسة الأسبوعية سنة ١٩٢٩ م عدد ١٦١ .

(٤) Pierre Janet : **L'amour** et la haine.

وعقب جانيت على ذلك فقال : هذه صفة غامضة ومبهمة لتعريف الحب ، يتمثل فيها صعوبة لدقة فهمه ، فلفظة الحب مشتقة من حب أو أحب في اللغة، وهي موضوعة إلى أي كائن حي يحب الله أو وطنه أو أقاربه إلى غير ذلك ، فكلمة الحب إذن تشمل هؤلاء كلهم أو غيرهم ، والذي يهمنا في هذا المجال هو الحب الذي يكون بين الأشخاص .

وبالرغم من حصر الحب في هذا المضمار فلا تزال الصعوبة الكبيرة تكتنفه ، فتستعمل لفظة الحب دلالة على الحالة التي فيها العاشق ويبذل الجهد للعثور على امرأة جميلة في الوقت المناسب .

وتمتد لفظة الحب حتى تشمل الذين يمارسون العلاقات التناسلية ، وبذلك يكون قد حازوا على الحب السعيد والناجح .

وقال بنتام : العشق أحد الرغبات التي لم نجد لها اسماً بسيطاً بحيث لا يلازمه تصور مدح أو ذم . . . ويلاحظ مع ذلك أن هذه الأميال قوية بذاتها ، وإن هذه الرغبة تنال بالزواج بدون ضرر لأحد بل بنفع يعود على الهيئة الاجتماعية (١) .

وقال سبنسر : ان الحب الجنسي والحب الأمومي وكل فضيلة أخرى هي شرط أساسي لوجود وحماية النوع البشري (٢) .

وقال **C. Zéglot** : إن الحب موجود دائماً بالعكس من الزواج فإنه يتحين الفرص ليثبت وجوده ، ويكتب الحب بحرف كبير (**A**) الذي هو كل شيء في هذه الحياة (٣) .

---

(١) بنتام : أصول الشرائع .

(٢) Alfred Fouillée : Les **Eléments** sociologiques de la **morale** .

(٣) C. **Zéglot** : **Pour** les jeunes **filles** – **L'**art d'être heureuse .

وقال فولتير : الحب نسيج حيواني طرز عليه الخيال نقوشاً جميلة [١] .

وقال غوته : الحب الحقيقي يوهم صاحبه انه وحده يحب وانه لم يسبقه ، ولن يأتي بعده من يحب مثله [٢] .

ومن رأي Pascal أن حياة الإنسان تعيسة وقصيرة الأجل ، فتكون سعيدة فيما إذا الحب مارس وظيفته في الإنسان ، فيرفعه إلى السؤدد والرفعة ، فعلى الإنسان أن يفتش عن هذا الحب ، فسيجده في الجمال الخلقي والخُلقي مع التجانس بين المحب والمحبوب وعندها يقضيان حياتهما في هناء وسرور ويظل الحب في هذه الحالة حياً دائماً لا يموت ما داما على قيد الحياة [٣] .

وأورد Lanson : أن الحب عبارة عن تطلع للحُسن والجودة ، وفي هذه الحالة يكون الحب منظماً ضمن معرفة الجيد منه ، ولا سيما إذا مارس العقل وظيفته لتدعيمه وتنظيمه فيكون الحب على غاية من الجودة .

ويجب أن يبذل الجهد لبقائه ، وأن يحافظ عليه ما أمكن مما يدعو إليه الشرف والواجب ، وإذا لم تبذل تلك التضحية من أجل بقائه فلا يستحق أن يطلق على هذا الحب حباً حقيقياً [٤] .

ويختلف الحب باختلاف العصور وبتفاوت الرقي الاجتماعي ، فلكل عصر روح تتسرب في دعائم اجتماعه ومدنيته ، والحب من جملتها .

---

(١) (٢) مجلة المصور ١٩٢٧ م ١٤٢ .

(٣) Pensées de **Pascal** .

(٤) Gustave **Lanson** : **Histoires** illustrée de **la** littérature **francaise** .

ومن مأثورات شيلر الشاعر الألماني قوله : من لم يحب ويفقد حبه يعني انه لا يحب .

وقال ليبنتز : الحب هو المشاركة في السعادة .

من آراء أميل فاكه في الحب : انه يعتقد أن الباعث على الحب إنما هو الرغبة في الاستطلاع أي أن الإنسان يظل محباً طالما جهل أخلاق حبيبه ، فإذا عرفها هجره .

وبالإجمال فالأدباء من هذا القبيل فريقان ، تختلف آراؤهما في الحب باختلاف نظرهما الى شكله الجسدي الحيواني ، أو الى ما يدخل فيه من خيال وعواطف رفيعة . ويمثل الفريق الأول ماركس أوريليوس الذي قال : ليس الحب إلاّ تشنجاً جسدياً .

ويمثل الفريق الثاني أفلاطون اليوناني ، فالحب في نظره سعي النفس وراء الجمال بقطع النظر عن الجسد .

واختلفت الآراء في تكون الحب ونموه وعدمه قال لاروشفوكو : الحب كالحرب يتوقف الفوز فيه غالباً على ضعف المدافع أكثر مما على قوة الهاجم .

الحب في نظر الفلاسفة والعلماء: آراؤهم فيه متباينة يمكن إرجاعها إلى أربعة أقسام رئيسية : .

١ ــ انه مزيج من عواطف مختلفة .

٢ ــ انه عاطفة مستقلة .

٣ ــ ينشأ عن قوى خفية .

٤ ــ انه حالة مرضية .

أما الحب الذي هو مزيج من العواطف، فيعتقد هذا الفريق أن الحب مركب من عواطف أولية . قال باين: ما الحب إلاّ مزيج من الميل الحيواني ووقع الجمال في النفس .

أما سبنسر فيرى فيه مزيجاً أكثر اختلاطاً من هذا، فالحب في نظره أكثر العواطف تركيباً ، ولذا كان أقواها وإليك تحليله للحب . قال : للحب أساس مادي تدخل عليه عواطف عديدة ، منها تأثير الجمال في النفس والانعطاف نحو شخص آخر، والإعجاب والاحترام ، ثم الغرور ، فالمحب يغتر بأن يرى نفسه مفضلاً على سواه، والاعتداد بالنفس إن يعد المحب نجاحه أمراً عظيماً ، ثم حب الامتلاك وهو غريزة أولية في الطبع البشري ، والحرية المطلقة لأن المحب لا يتقيد نحو حبيبه بشيء الخ . . . فكل هذه العواطف إذا هاجت معاً كونت الحالة النفسية التي نسميها حباً .

ومن رأي سرجي أن عوامل الحب الأولية هي غريزة التناسل ، وحاسة اللمس والحرارة ، وقد ينشأ عن بواعث مختلفة كالرأفة والغرور والانتقام والامتنان وغيرها .

وأما الفريق القائل بأن الحب عاطفة مستقلة فيفرق أصحاب هذا الرأي بين الحب الشهواني والحب الحقيقي ، فالأول في نظرهم وظيفة فسيولوجية قد تدخل عليها بعض العواطف فتهذبها وتحسنها ، ولكن البون شاسع بينها وبين الحب الحقيقي ، وهو في نظرهم عاطفة مستقلة تظهر في أحوال مخصوصة ولا يمنع ذلك أن تؤول إلى علاقة جسدية ، فما هو الفرق إذن بين النوعين ؟ هو أن الأول يبتدىء حيث ينتهي الثاني ، والحب الحقيقي كما يصفه أصحاب هذا الرأي نادر الوجود سريع حيث ينتهي الثاني .

والحب الحقيقي كما يصفه أصحاب هذا الرأي نادر الوجود ، سريع الإلتهاب له سلطان عظيم على القلب والعقل والإرادة .

لا تبرح فيه صورة المحب من مخيلة الحبيب ولو أيقن أن لا سبيل للوصول إلى حبيبه ، فلا تمنعه ذلك من الاسترسال في هيامه .

وذكر شوبنهور : أن الحب ينشأ عن أسباب خفية ، والطبيعة قبل كل شيء تهدف الى المحافظة على النوع ، وكل ما تجريه في هذا السبيل من حب وهيام وجنون ليس إلاّ وسيلة إلى غايتها العظمى .

ولو حكم الرجل عقله فقط لما عرض نفسه لمتاعب العائلة ومسؤوليتها . ولو فكرت المرأة قليلاً لما آثرت لذة دقيقة على آلام الولادة وعذاب التربية .

وإن الطبيعة تدفع أفراد كل جنس نحو أفراد الجنس الآخر لبقاء النوع على أحسن شكل،وتعمي أبصارهم وبصائرهم لهذه الغاية، وقد وُضع لجاذبية بين الجنسين قواعد أهمها :

أولاً – جاذبية الفرد تقوى كلما كان صاحبها أقرب إلى صورة النوع الكمالية .

ثانياً – يزداد تجاذب الرجل والمرأة كلما كانت نقائص الواحد عكس نقائص الآخر ، فيكون أحدهما قسماً لصاحبه فيأتي النسل أقرب إلى معدل النور .

ورأى دلبوف : أن سبب الحب الخفي بقاء النوع ، لكنه نسب جاذبية الأفراد إلى تجاذب الخلية الجرثومية في الذكور والبيضة في النساء ، فإذا تلاءما أشعرا الدماغ فيندفع الشخصان الواحد نحو الآخر . وقد فرض في تلك الخلايا وجود قوة انتخاب ، ويعلل تبادل الشعور بين الخلية والبيضة بمفرزات كيماوية خاصة بكل منهما تختلف نوعاً وكمية حسب الأشخاص .

وقال الدكتور جانت : إن المشابهة الكلية بين الحب والوسواس من حيث أصلهما ونشوؤهما وأغراضهما، وكلاهما ينشأ في أحوال الانحطاط العصبي

إذ يكون الإنسان سريع التأثر من أقل عامل . ويزيد بعضهم على ذلك أن بين المحبين عدداً كبيراً من المجرمين ، والمجرم في الغالب مريض ويقول باحثون عن الحب من حيث مشابهته للجنون ومن حيث علاقته بالجرائم بما يأتي :

أولاً — أوجه المشابهة بين أعراض الحب وأعراض الوسواس يجب أن تدرس من حيث العقل والجسم والعواطف .

١ — من حيث العقل ، فمن أعراض الوسواس أن صاحبه يدري بحاله ويشعر بغرابة ما هو فيه لكنه يعجز عن التخلص من الأفكار المتغلبة على عقله . وهذا الوصف ينطبق كل الانطباق على المغرم ، فإن صورة حبه لا تبرح مخيلته مطلقاً ، وأن يتقن استحالة قربه ، ثم أن الوسواس في أغلب الأحيان يبدأ فجأة وكذلك الحب ، وهو أيضاً كالوسواس قابل للزيادة والنقصان .

٢ — من حيث الأعراض الجسدية : إن الحب والوسواس يرافقهما ضيق في الصدر ، وألم في المرأى وارتعاش في الأطراف ونحوها من الأمراض الجسدية .

٣ — من حيث العواطف والإرادة ، فالمحب والموسوس يشعران بسرور عظيم عند تحقيق أمنيتهما ، وان كثيراً من الوساوس تنتقل من الدور الفكري إلى الدور العملي ، وكذلك العاشق فقد يجره حبه إلى أعمال لا تخطر بباله في حالته الاعتيادية .

أما علاقة الحب بالجرائم فظاهرة كل الظهور ، وكفى للباحث مطالعة بعض الأخبار التي تنشر في الصحف اليومية ليرى الجرائم التي تحدث كل يوم باسم الحب ، ولذا فإن بعض أشياع لمبروزو يرون في أدمغة المجرمين ،

فكأن للمحب في نظرهم ميلاً للجرم بطبيعة تركيبه الجسدي ،ووجود تلك العلاقات من دلائل الانحطاط الوراثي .

وجملة القول: إن هذا الفريق من الباحثين يرون في المحب شخصاً كثير الشبه بالمجنون والمجرم ، ويرى فريق آخر أن رأيهم هذا مبالغ فيه ، إذ لا ينشأ الوسواس دائماً عن حالة مريضة .

وللدكتور مكس دي فلوري الفرنسي رأي مؤداه : إن الحب عبارة عن تسمم في الجسم ، لكنه لم يؤيد رأيه هذا بالبراهين المقنعة ، وغاية ما قاله انه أجرى تجارب دلت على أن إفراز الجسم لذلك السم يزيد في المحب إذا كان أمام حبيبته [1] .

وقال صمول شميلز : الحب كما يراه جمهور الناس ويتصوره الدهماء والعامة جنون ولكنه في صفائه وطهارته وجلاله ورفعته وما يستدعيه من الإيثار نتيجة الكمال الخلقي ودليل عليه ، وان الإحساس بالجمال ونسيان المرء نفسه في الإعجاب الذي يولد عنه لدليل على علو منزلته وماله من التأثير في تربية الخلق ، فذلكم الإحساس بالجمال ، ذلك الحب هو تغلب ما في طبائعنا من الإيثار على ما فيها من الاستئثار .

إنها هذه العاطفة الروحانية وسيلة لبقاء العالم حافظاً لرونق جدته وشبابه، هي نغم الإنسانية الجميلة الخالد، هي التي تغمر الشباب بالنور وتحوط الشيخوخة بهالة من ضياء أشعة نورها تكسو الحاضر جلالاً وتفيض على المستقبل ضياء ورونقاً وجمالاً ، والحب إذا تولد عن الإجلال والإعجاب فأثره في الأخلاق تطهيرها والرفع من شأنها وإطلاق المحب من قدر الاستئثار الذي يسترقه ،

---

(١) مجلة الهلال ٢٢ : ٦٧٩ – ٦٨٦ .

فذاك الحب يكون رافعاً خالصاً لا أثر للجشع فيه يطلب لذاته لايبغي صاحبه ثمناً له سواه ، ثم هو يبعث في النفس الدعة والعطف وحسن الظن والثقة ويشحذ الذهن ويرفعه ، فكل حب كما يقول الشاعر برنتج يعلم قدراً ما من الحكمة ، ولقد كان أكثر النفس حظاً من المواهب العقلية أخلصهم حباً ، والحب يعظم بعظمة أرواح المحبين ، فإنهم يرفعون من شأن كل لذة صحيحة، ويجعلونها مقدسة ، بل عاطفة الحب تظهر سجايا قد كانت من الحب خاملة لا يظن لها وجود وترقي الآمال وتعظم النفس وتنبه القوى العقلية [١] .

وقابلت الكاتبة الأميركية، أدال ، روجرس سانت جون لتسأل فريقاً من الممثلين والممثلات عن الحب ؟ وقد لعبوا في شبابهم أدواراً مهمة في عالم التمثيل وقد تجاوز معظمهم سن الكهولة ، وأخذت آراءهم فرداً فرداً في الحب وماهيته .

قالت الكاتبة الأميركية ما معناه : عنيت باتخاذ آراء الكهول والشيوخ في الحب لاعتقادي بأن الشبان والشابات لا يفهمون معنى الحب الحقيقي ، فهو عندهم كناية عن شعور وعواطف تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فالحب عند الشاب إما مأساة فاجعة ، وإما شر عظيم ، وهو لحداثة عهده بالحب لا يستطيع أن يبدي رأياً ثابتاً ، ولا يمكنه التكهن بالمستقبل بخلاف الكهل الذي رشف الكأس طافحة وتلذذ بها وعرف نتيجتها ، فإذا أبدى رأياً ، فرأيه يكون نتيجة اختبار وتجربة .

أما النساء اللواتي قابلتهن هذه الكاتبة فيهن ممن مثلن على المسارح أو للصور المتحركة دور الأمهات وأجدن فيه، والجميل أن جميعهن متزوجات وأمهات ، وقد أحسن تربية أولادهن وقمن بواجبهن خير قيام .

---

(١) صمول شميلز .

وسألت الكاتبة من الممثلين تيودور روبرتس ، فأجاب : كل ما أعرفه عن الحب هو انه امتزاج شخصيتين لتتكون فيهما شخصية واحدة تنموان معاً فتتفق آراؤهما ،يتعاونان على المصائب ويقاومان التجارب ولا تكمل حياة الواحد منهما بدون الآخر ، وإذا ابتعد أحدهما عن الآخر مدة شعر الثاني بوحشة ووحدة عظيمتين .

أعرف أن الحب بطيء فلا تنبت أزهاره ولا تنضج ثماره إلاّ في أوانها ، بل هو كالسنديانة كلما عمرت وقدم عهدها صارت قادرة على مقاومة العواصف وفي عرفي هذا النوع من الحب هو ما يستحق أن يدعى حباً . إن الحب المتقلب فهو مثل الحباحب يظهر نورها لحظة ثم يختفي بخلاف الحب الحقيقي الذي هو كالشمس تعطي الحرارة والنور في كل زمان ومكان .

ثم قصدت الكاتبة المذكورة ماري كار ، فقالت لها : الحب الحقيقي مؤلف من قوى طبيعية وهو في قلوب كثيرة وفي أماكن متعددة ، وليس من الضروري أن تخصص به قلوب الأمهات ، انما حب الأم هو الحب السماوي الثابت غير المتناهي .

الحب خفيف كجناح الفراشة ، وهو قوي كوقع الصاعقة يجعل المرأة الضعيفة تقوم بالعجائب وتقتحم التجارب وتقاوم جيوش الأعداء بشدة وهو أيضاً يصير الرجل القوي وديعاً كالطفل[1] .

المصادر العربية المخطوطة :

صلاح الدين بن أيبك الصفدي : شرح لامية العجم .

المصادر العربية المطبوعة :

المسعودي : مروج الذهب .

---

(١) مجلة الأخلاق بنيويورك ٦ : ١٩٤ ، ١٩٥ .

رسائل إخوان الصفا .
شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة التلمساني : ديوان الصبابة .
بنتام : أصول الشرائع .

المجلات العربية :

مجلة الإخاء ٣: ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٦٦٣ ، ٨: ٣٨٦ .
مجلة الأخلاق سنة ١٩٢٣ ، عدد أيار ، ١٩٢٤ م ، ٦: ١٣٠ ، عدد أيلول ١٩٣٤ م .
مجلة الرياضة البدنية سنة ١٩٣٦ م .
مجلة السياسة الأسبوعية عدد ١٥٥ ، سنة ١٩٢٩ ، عدد ١٦٢ سنة ١٩٢٩ .
المجلة الجديدة ١٩٣٠ م ، ٨٣٨ — ٨٤١ .
مجلة المقتطف ١٧ ٢٧ — ٣٢ ، ٦٠ ١٧٦ .
مجلة الهلال ١٤ ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

المصادر الأجنبية المطبوعة :

Edward westermarck : L'origine et le déveloqqement des idées morales .
Georges Surbled : La vie de jeune fille .
Michelet : L'humanité .
Alfred Fouillée : Les éléments sociologiques de la morale .
Georges Surbled : L'amocr sain .
Marie Galland : La vie de Boudha et les doctrines boudhiques .
Comolet Lue : Mariez moi - Billet de l'oncle Benjamin à ses nièces .
C. zéglot : Pour les jeunes filles - L'art d'être heureux .
Pierre Janet : L'amour et la heine .
Gustave Lanson : Histoire illustrée de la littérature française .
Anton Mystrôm : La vie sexuelle et ses lois .
Pensées de Pascal .

أنواع الحبّ وأقسامه

قسم ستندال الفرنسي أنواع الحب إلى أربعة أنواع رئيسية :

أولاً ــ الحب الهيامي الذي تتصرف فيه كل قوى الحبيب نحو حبيبته .

ثانياً ــ الحب التفاخري الذي يتظاهر فيه الرجل بحب المرأة ويفتخر بعلاقته بها .

ثالثاً ــ الحب الهوائي بلا قيد ولا حساب .

رابعاً ــ الحب الشهواني الذي يجعل صاحبه بمنزلة سائر الحيوانات .

وقيل : أنواع الحب تنحصر بما يأتي :

١ ــ حب الذات وهو أساس كل حب ، ومنه المبدأ وإليه المصير ، فإن كل إنسان يحب ذاته فوق كل شيء حتّى الحيوان والنبات ، فإن لكل فرد ميلاً لاكتساب كل شيء لنفسه ، وهو حب الذات .

٢ ــ حب البنين والأقارب ، وهو يمتاز عن حب الذات ، ولكنه يليه في المرتبة ، فإن الإنسان يحب ذاته أولاً ، ثم أولاده فأقاربه .

٣ ــ حب الأصدقاء والمعارف والجيران .

٤ ــ حب الوطن والملة والمذاهب .

٥ ــ الحب العام وهو ميل الإنسان الطبيعي إلى الاجتماع والاستئناس ببني جنسه .

٦ – الحب الجنسي وهو الميل المتبادل بين الإناث والذكور ، وهو ضرب آخر لا يقاس بغيره من ضروب الحب .

ويمكن اعتبار حب الذات أصل هذه الأنواع أو النوع الذي تفرغت عنه فإن حب الإنسان نفسه يحمله على حبه أبناءه وأهله وأصدقاءه ووطنه ودولته ، فالإنسان يحب الذات يطلب ويفتش عن كل لذة ومنفعة لنفسه ثم يطلب ذلك لأقرب الناس إليه ، فيتكون نظام العائلات ، فإذا تألفت العائلة أصبحت جسماً واحداً ، يجتذب الخير له بقطع النظر عن استقلال أفراده ، فيتكون من تآلف العائلات وسائر الجماعات جسم آخر ، كالأمة أو الملة أو الطائفة من أي مذهب ، ويكون لكل أمة أو طائفة دواع مشتركة بين أفرادها يطلبون بها النفع لهم جميعاً باعتبار المجموع بقطع النظر عن العائلات أو الأفراد . ويحصل بين الدول أو الأمم صداقة أو محبة هي غير أنواع الحب الأخرى .

أما الحب الجنسي فهو العشق بين الرجل والمرأة وبه غاية بقاء النوع البشري ولولا الغريزة الجنسية بين المرأة والرجل لانقرض بنو الإنسان من على هذه الأرض ، ولذا كان العشق سبباً عظيماً من أقوى أنواع الحب تأثراً في البشر ، حيث العشق يتدخل في كل ظاهرة من ظواهر الحياة البشرية في العلوم والآداب والفنون الجميلة وغيرها .

والناس في هذه الحالة خاضعون لسلطان العشق في كل حركة من حركات حياتهم . والفرق بين عشق الإنسان وحب الحيوان ان حب الحيوان غريزة ، يتوق أي ذكر لأي أنثى وأي أنثى لأي ذكر ، وأما عشق الإنسان فهو تتوق الرجل لامرأة معينة وبالعكس ، فالحب إذن غريزة عامة ، والعشق غريزة منتخبة مختارة .

ولا بد لهذا الحب من ثلاثة ضلوع : طرفان الرجل والمرأة ، كل منهما مكمل للآخر ، والثالث هو الألفة .

وهذا الحب لهيب ذو نور ساطع ، أشعته الغريزة التناسلية والإعجاب بالجمال ، والعطف ، والتضحية ، والاحترام والاثرة .

إن الغريزة التناسلية تعد أقوى عناصر الحب وأعمها ، وقد تكون عناصر الحب الستة الأخرى ضعيفة قليلاً أو كثيراً في الشعوب البدائية .

ويعد الإعجاب بالجمال عاملاً قوياً من العوامل العشقية ، وبينه وبين الغريزة التناسلية ، وتلعب الإلفة الحبية دورها العظيم ، إذ هي قوة دافعة من قبل العاشق ، والجمال قوة جاذبة من قبل المعشوق .

والجمال عنصر خطير الشأن في العشق ، ولا سيما إذا تسامى إلى الفضاء الشعري ، فإذا لم يكن الجمال عنصراً في الحب سقط الحب من درجة العشق إلى الشهوة الحيوانية ، وانتفى الانتخاب الحبي ، أي أنه لولا الإعجاب بالجمال لما كان الشخص الواحد يختص بحبه شخصاً معيناً دون غيره . وأما فاعلية عامل الجمال ، فهي في إنشاء اللذة في العاشق لذة التمتع بجمال المحبوب ، وهي لذة لايستهان بها .

ويعد العطف من عناصر الحب الثانوية ، ولكنه من جوهريات العشق ، والعطف جاذب بين المتعاشقين يقوي الألفة العشقية، والعطف الحبي هو علة ما يرى من هذا الرقي الاجتماعي المطرد الذي لا يعلم له حد .

والفضيلة عنصر من عناصر العشق ، بحيث أنها إذا انتفت عاد الحب بهيمياً محضاً لا يرتكز إلا على الغريزة الحيوانية .

وترفع التضحية العشق ، إلى القمة . وهي التمادي في الحب إلى أن يتجاوز حب النفس ، فهي شذوذ طبيعي ، ولكنها حق في شريعة الحب ، فيضني العاشق بلذته أو بمنفعته إذا كان في هذه التضحية لذة أو منفعة لمعشوقه .

وتتفاوت هذه التضحية بقدر ما يسمو الهوى الشعري ، وقد تبلغ إلى حد التضحية بالنفس أو الحياة ، وهذه التضحية هي معنى اشتراك الحبيبين أو الزوجين في السراء والضراء ، ولا تكون إلاّ إذا تناهى العشق .

ومعنى ذلك ان الحب يصور للمحب أن الكون كله مجتمع في محبوبه أو أن محبوبه شامل لكل الكون ، أي أن المحب يرى في محبوبه كل الجمال والمجد والعظمة ، ويجد فيه كل لذة وسعادة وكل أمنية ، فالحبيب هو كل شيء للمحب ، وبهذا التصور يعتقد المحب أن محبوبه أعظم منه وأسمى فيعبده ، ومتى جعل المحب يقلل من احترام محبوبه، كان حبه يفتر ويبرد . وكان هذا الفتور نذيراً بحل الوحدة الحبية وتلاشي قوة الإلفة .

وكلما اشتدت الإلفة بين الحبيبين ، كان كل منهما يجد نفسه مالكاً للآخر ومستأثراً به كله لا يريد أن يفلته مهما تألبت عليه العوامل العاملة لحل هذه الإلفة .

وبهذه الإلفة لا يمكن أن يحب المحب حبيبين معاً لأنه لا يقدر أن يقسم قوة إلفته على اثنين أو أكثر . وإذا حدث منازع ثالث ثارت الغيرة في نفس المحب ، ومن الغيرة نفهم أنها مقياس للحب .

وأما العشق الروحاني فيرتفع بقدر تمدن الأنسان وارتقاء عقليته واتساع مدى عواطفه حتى تتفوق على شعاع الغريزة التناسلية ، ويكاد ذلك العشق يخفيها ، فيرتفع الحب في نفس الإنسان من حضيض المادة إلى سماء الروح ، حتى يصبح العاشق مبتغياً تمتعاً نفسياً لا جسدياً ، فيحسما حبه شعرياً .

والغالب أن هذه الوله الشعري تندلع لهباته حيث يتعذر بقاء العاشق بمعشوقه بسبب الآداب الاجتماعية ، وهو تمادي الشوق ، وفي هذا اللقاء الخيالي تبقى النعرة التناسلية في سجن ، وتنطلق القوة التصورية العقلية في فضاء خيالها ،

وتتمادى في التصور حتى تخرج طيف الحبيب من شكله الحقيقي وتسبكه بالشكل الذي تخترعه رغائب النفس وأما فيها فيتمثل الحبيب في صورة ليس أتم وأكمل منها .

هذا هو الحب الشعري الروحاني الذي يتلذذ به المحب ، ويترفع عن النعرة البهيمية ، فينشأ منه إله الشعر ويستقوي ، ويصبح كل عاشق شاعراً بحكم الحب ، ولكن ليس كل شاعر ناظماً لأن النظم ليس إلاّ تعبيراً عن ذلك الشعر المتجلي في مخيلة العاشق .

والغالب أنه متى زالت الأسباب التي قضت بالعشق الخيالي الشعري هذا ينفتح الطريق للغريزة التناسلية ، فإذا خلا الجو للحبيبين لم يبق إلاّ المانع الشرعي بينهما ، فلا تقوى الحشمة وحدها ان تقمع هذه الغريزة التناسلية .

ويختلف الهوى العذري عن الصداقة بوجود النعرة الجنسية بين الاثنين ، أما المحبة بين رجلين أو بين امرأتين ، والمحبة بين الأخوة وبين البنين والوالدين فخالية من تلك النعرة ، وأما الحب بين رجل وامرأة فلا يكون عذرياً ، إلاّ إذا كان الرجل ينظر إلى المرأة مجردة من خواصها الانثوية ، وهي كذلك تنظر إليه مجرداً من خواصه الذكورية .

الحب الجنسي :

وقيل : للحب الجنسي مزية تميزه عما سواه ، فهو كثيراً ما يكون قهرياً غير اختياري ، وإن يكن في أوله اختيارياً ، على أنه راجع مع ذلك إلى حب الذات ، لأن الرجل يرى في حبه في المرأة ارتياحاً تتطلبه نفسه ، فإذا أحبها إنما يجيب هوى نفسه .

وإذا نظرنا في أوجه المشابهة بين ضروب الحب والجاذبية ، فنرى للجاذبية

ناموساً مشهوراً ، هو انها تزداد قوة بازدياد القرب بين الأجسام المتجاذبة والحب كذلك فهو يكون على أشده بين الأقربين ، ويقل كل ما بعدت العلاقة ، وزد على ذلك انه لا يحصل بين الغرباء إلاّ بالمعاشرة والمزاولة وهي تقوم مقام القرب .

ومن نواميس الجاذبية أن كل دقيقة تجتذب ما حولها لنفسها ، والحب يقضي على كل فرد أن يجتذب ما حوله إليه ، وإذا رأيت في اجتذاب الحب تمييزاً بين النافع والضار ، فيكون ذلك الاختيار من أعمال العقل ، وربما لو ترك الحب لنفسه لاجتذب كل شيء نافعاً أو ضاراً .

وترى تلك المشابهة متسلسلة في ضروب كل من الحب والجاذبية على نسبة واحدة ، ، فحب البنين يقابل جاذبية الإلتصاق ، التي هي عن عبارة عن تجاذب دقائق المادة الواحدة ، بعضها إلى بعض تتجاذب ،وحب الأصدقاء والجيران يقابل جاذبية الملاصقة وهي عبارة عن تجاذب أجسام مختلفة المادة والشكل كالفراء والطين والحجر . والتحاب بين الدول يشبه جاذبية الأفلاك ، لأن تحالف الدول يحفظ نظام العمران ، كما تحفظ جاذبية الأفلاك نظام الكون .

وأما الحب الجنسي فإنه يقابل الجاذبية الشعرية والجاذبية الكيماوية معاً . ومن غريب المشابهة بينهما أن الجاذبية الشعرية لا تكون إلاّ بين مادتين مختلفتي الكثافة ، كاجتذاب السكر والخشب للماء أو غير ذلك من السوائل ، أو يكون الانتقاء سائلين ، وبينهما تفاوت في الكثافة كالماء الصرف والمياه المعدنية [١] .

يختلف الحب لدى المرأة والرجل اختلافاً يتمشى مع تركيبهما الفسيولوجي والسيكولوجي .

(١) جرجي زيدان : المختارات .

وقيل : إن الحب في مختلف العصور والحضارات المتتابعة والثقافات البشرية المختلفة ترجمة للأمم التي مارسته ، وكان للمرأة دور رئيسي فيه حسب شخصيتها الاجتماعية ، وتطور المدنية وتقدمها في الأمة .

هذا ما يلاحظ في الأمم ذوات الحضارات ، وأما في ما يشاهد في الأمم البدائية ، فيقتصر الحب غالباً على ممارسة الضرورة التناسلية ، بخلاف الأشخاص المثقفين فتكون الحاجة التناسلية مقرونة وممزوجة بغرائز وصفات أخرى توقظ الحب وتنشطه وتدفعه إلى كل ما هو جميل ورفيع في الحياة البشرية .

أجل ان الرجل والمرأة يختلفان من حيث الحب ، وبينهما اختلافات منوعة ، لها شأن بل شؤون في تكييف الحب ، فمنها اختلافات فسيولوجبة محتومة ، ومنها اختلافات اجتماعية تلعب أدواراً عظيمة على مسرح الحب ، ومنها تطورات زمنية واعتبارات مكانية تكيف أنظمة الحب وتعدل في سننه وأحواله .

إن الرجل والمرأة يختلفان في الغريزة التناسلية اختلافات ذات شأن تؤثر في الحب وتنوعه .

المقرر فسيولوجياً أن نعرة هذه الغريزة دورية في المرأة ، وما هي كذلك في الرجل ، لها مواعيد مرافقة لمواعيد الحيض ، فتشتد حيناً وتفتر حيناً ، فهي موجات شهرية نظامية على الغالب في النساء السليمات .

تنضج هذه الدورة الغريزية في المرأة الزوجية ، وفي العذراء المحتشمة والمتمسكة بالآداب والفضائل المراهقة وأول الشباب ، وفي كل امرأة شذت عن قواعد الحياة النظامية المألوفة كالمرأة البغي أو العاشقة المتولهة .

والحب في هذه الحالات يتأثر بهذه الدورة الغريزية ، فيتموج كتموجها ، وإنما تضطرب أمواجه وتختلط متى صار حباً شعرياً .

وأما المرأة في الأمومة فإن مدة الحمل مدة فتور للحب ، لأنه في هذه المدة تتجه القوى الحيوية في الجسم إلى خدمة الحياة الناشئة الجديدة ، ولذلك تحدث في الجسم تطورات غريبة وعجيبة .

وفي مدة الرضاعة يكون عندها فتور للحب ، وربما كان أقل من الفتور مدة الحمل أو أكثر منه ، لأن حبيباً جديداً أي المولود اجتذب أدق عواطف المرأة .

هذه أهم الأحوال الفسيولوجية الطبيعية التي تؤثر في المرأة من حيث الحب ، وليس لهذه الأحوال وجود في الرجل فالرجل دائم الحب ما دام للحب سبيل إلى قلبه .

والمرأة أتوق من الرجل إلى الأولاد وهذا التوق غريزي فيها أيضاً ، والغالب أن سن الحب في المرأة أقصر منه في الرجل ، فهي قد لا تحب قبل الخامسة والعشرين ، وهو يحب منذ عهد البلوغ ، وحبها يتلاشى قبل عهد الشيخوخة . وبالإجمال تعد العزيزة النسلية ، أو النعرة الجنسية ، اضعف في المرأة منها في الرجل .

وقيل : إن القوة معبود المرأة ، فهي تحب كل دليل يثبت في الرجل القوة والنشاط ، والمرأة أكثر تأثراً بالوسط من الرجل ، فالفتيات اللواتي يشاهدن الفتيان في الألعاب الرياضية يملن إلى الفتى الغالب ، وتمثل هذه الاعتبارات ان المرأة تحب كل ما يدل على الصحة والعافية في الرجل .

وقيل : إن الجاه يسحر المرأة ، وهي أميل من الرجل إلى النبل والجاه ، فهي تطمح كثيراً إلى ذوي الوجاهة والشرف والنفوذ ، وهو لا يكترث جداً في ذوات النبل ، فالأمراء الذين يحبون النساء العاميات ، أكثر من الأميرات اللواتي يحببن رجالاً من عامة الشعب .

وقيل : إن المرأة أشد غروراً من الرجل ، فهي تحب في الرجل إعجابه بجمالها ومحاسنها ولا يقلل حب المرأة شيء مثل إشارة من الرجل تدل على أنه لا يحسبها جميلة ، أما الرجل فلا يكترث في تعريف المرأة بقبح شكله لأنه يعتقد أن فيه محامد أخرى كافية لجذب النساء إليه ، ذلك هو سر مبالغة الرجل في اطراء جمال المرأة وتمدح محامدها إلى صد التمليق .

وقيل : إن المرأة تحب في الرجل شدة اهتمامه بها أكثر مما يحب شدة اهتمامها به ، فكلما شعرت بفتور اهتمامه ، نفرت منه وهو أقل نفوراً منها في هذه الحال ، وربما تضايق من شدة اهتمامها التي تقيد حريته ، هي تريد أن يظل ملازماً لها ، وهو يمل ملازمتها له .

وقيل : إن المرأة أكثر إخلاصاً وثباتاً في الحب ، والرجل أقرب منها إلى الملل وعدم الثبات في حب المرأة .

وقيل : إن المرأة تود أن تكون مطلوبة لا طالبة ، تريد المرأة أن يكون الرجل ساعياً إليها ، ويشق عليها كثيراً أن تسعى إليه ، يلذ لها أن تكون مطلوبة لا طالبة ، لأن الطلب يدل على التفضيل . وأحياناً تخسر المرأة حبيبها لشدة تمنعها الذي تريد به إخراج الرجل على أن يسعى إليها .

وقيل : إن المرأة أكظم للحب من الرجل ، فهي تبتغي أن يكون الرجل مبادئاً في الحب ، تبتغي أن يتغزل بحبها قبل أن تفضح له شيئاً من غرامها ، حتى إذا طمع بعطف منها ، أو بنظرة ، أو بقبلة صدته ، وقد يطلب الفتى الفتاة زوجة ، فتمتنع في حين أنها راغبة ، وتتردد كثيراً قبل أن تقبل يده .

وقيل : إن النظرة الأولى تؤثر في الرجل أكثر منها في المرأة ، لأن الرجل أميل لجمال المرأة الخارجي ، والمرأة أميل لجمال الرجل الداخلي ، فهي لا تميل إليه قبل أن تدرسه ولو قليلاً لتكشف باطنه .

وقيل : إن الرجل طواف جوّال تجتذبه الغريبة أكثر من القريبة ، لأنه ملول يمل القديم ، ويبتغي الجديد دائماً لهذا هو عرضة للتأثر من النظرة الأولى وأما المرأة فهي مستقرة تنتظر جاذباً ، فتقتصر على مَنْ حولها من الرجال وقلما تطمح إلى جاذب غريب غير منتظر .

وقيل : إن المرأة أكثر تعففاً من الرجل ، لأن ثمرة الحب تنشأ فيها لا فيه ، فإذا لم يكن الحب في حال شرعية ، فتضطر إلى التعفف حرصاً على شرفها وكرامتها ، ثم سبب تجنبها وتحصنها إلى غير ذلك مما يزيد في قيمتها في عين الرجل ، ولا سيما في حالة الزواج .

وقيل : إن حب الرجل والمرأة يختلف باعتبار الزواج وعدمه ، أي أن الرجل يحب امرأة قد لا يريد أن يتزوجها ، وقد يتزوج امرأة يحبها أقل مما أحب مَنْ لم يرم أن يتزوجها ، ذلك لأن أعراض الزواج تختلف عن أعراض الحب الهوائي ، كذلك شأن المرأة ، وهي من هذا القبيل أكثر تطرفاً من الرجل ، فقد تتزوج رجلاً لم تحبه بعد وتفضله على رجل أحبته ، لأن رغائبها الزوجية تختلف كثيراً عن رغائبها الغرامية .

هذا الاختلاف عند المرأة أشد منه على الجمال الظاهري ، وحب الرجل أقل ارتكازاً على المصلحة منه على الجمال الباطني ، وكثير من الرجال يضعون الجمال الظاهري في المنزلة الأولى وبعكسهم معظم النساء .

وقيل : قلما تحب المرأة لغرض غير الزواج ، فكل حب من امرأة في حالة الاستعداد للزواج يكون هدفه الزواج على الغالب وما سوى ذلك فنادر ، ولكن غير نادر عند الرجل ، فلذلك أول ما تبتغيه المرأة في الرجل الذي تريده زوجاً هو حبيب .

وقيل : مال الرجل معبود المرأة في الدرجة الأولى ، فيمكن للمرأة أن

تغض الطرف عن سن الرجل وعن دمائته حتى عن أخلاقه ، إذا كان ذا سعة ولا سيما إذا كان كريماً ، فمال الرجل هو تمثال جماله الذي تعبده هذه المرأة.

ويلي المال قيمة في نظر المرأة قوة الرجل، أو كل صفة تدل على القوة لأنها تشعر بالحاجة إلى حماية الرجل وعنايته ، فتعبد فيه القوة أو كل ما فيه من دليل عليها ، وإن تكن موجودة حقيقة .

وإن كثيراً من النساء يكرهن تخنث الرجال والتشبه بالمرأة .

وقيل : ان المرأة أشد اثرة وحباً للذات من الرجل ، فهي تود أن يكون زوجها أو محبوبها غير محبوب من سواها ، تريد أن يكون لها وحدها ، لا تنازعها فيه امرأة أخرى ، ولذلك تفضل الرجل الذي تعتقد أنه غير محبوب من جنس النساء .

وقيل : يهم المرأة في الرجل تصرفه لا جماله ولا أناقته ، يهمها أن يكون محمود الأخلاق ، طيب القلب ، حسن المعاملة ، يثق به معاملوه ، تريده كثير الاهتمام بذويه ، ملازماً عائلته ، قليل الاندماج بالآخرين ، لا يخرج من المنزل إلاّ مصطحباً إياها وأولادها .

وأكره شيء عند المرأة صمت الرجل أو قلة كلامه ، فهي تحب الثرثار ، وتود أن يأتيها كل يوم بخبر أو حديث ، وأن يجاريها في كل حديث وسمر ويسمع لها قصصها عن جيرانها وصواحبها وذويها ولا يمل حديثها مهما طال .

وإن المرأة لا تهتم بجمال الرجل ، وإنما تهتم بهندامه ، تريد أن يكون في ثوب بسيط ، ولكنه نظيف فاخر ، حسن الهندام .

وإن المرأة مغرمة بالهدايا قد لا يسوؤها أن يكون زوجها بخيلاً ، بل تفضله بخيلاً ، بل تعلمه البخل إن كان مسرفاً ، وإنما يهمها جداً أن تنال منه

كل حين بعد آخر ، هدية من غير أن تطلبها ، وأكره شيء على المرأة أن يبخل زوجها على زينتها وأزيائها .

وتحب المرأة أن يكون الرجل مطاوعاً لأقوالها وأفعالها ، ولو كانت خطأ ، وأكره شيء لها أن يكون معانداً أو مخالفاً أو معاكساً أو مسفهاً لأقوالها .

وقيل : إن المرأة تحب المجون كثيراً ، وترغب الهزل والمزاح وتكره الجد ، لهذا يجد المهزار ميلاً من كثير من النساء .

وتحب المرأة أن يكون الرجل ممتازاً بشيء — وقلما تعبأ بالرجل العادي يجب أن يكون ممتازاً بحرفته أو بمنصبه أو بوظيفته، بحيث يكون مستلفت الأنظار وحائزاً على إعجاب الغير ، والناس يسعون إليه لاهو يسعى إليهم .

وتحب المرأة في الرجل حبه ، والفتاة تود أن تتزوج من أحبها أكثر ممن أحبته ، فهي تفتن بمن يبالغ في هذا الإعجاب .

وأما خصائص الحب عند الرجل ، فتختلف عن خصائص المرأة ، فليس للرجل دورية للحب ، كمافي حب المرأة ، وللسن شأن في حب الرجل ، فالفتى في أول عهده يكون حبه نقياً وهوائياً أكثر منه بعد سن العشرين ، يكون في ما دون العشرين حيياً جداً كالفتاة ، ومنذ العشرين أو الخامسة والعشرين تكثر وقاحة الفتى ، وتقوى فيه الغزيرة الجنسية ، ويضعف فيه الهوى الشعري ولو قليلاً جداً . وكلما تقدم سناً استتب حبه وتأسس على قاعدة الحقيقة ،والصواب .

والرجل في شرخ الشباب والكهولة تكثر وتنشط مادة الحب عنده ، فيبتغي غالباً حبيبة أكثر مما يبتغي زوجة ، ويظل قبل سن الأربعين يبتغي حبيبة لا زوجة ، اللهم إذا وقع أسير حب ولا يفك أسره إلا الزواج .

وبعد سن الأربعين يشرع يشعر انه يبتغي زوجة تكون حبيبة لا حبيبة تكون زوجة ، ويخشى أن يفوت الوقت ، فيطوف مفتشاً على زوجة ، ويصبح عندئذ حبه مرتكزاً على المصلحة .

وقيل : إن قلب الرجل يكون عاطفياً أكثر من المرأة ، فهو بين عوامل الجمال كالريشة في مهب الرياح ، والحب يلعب أدواراً عظيمة في تطوير أخلاق الرجل وتدميث طباعه .

وقيل إن الرجل يفتتن بجمال المرأة وأن بروز الغريزة الجنسية يدفعه إلى أن يحب امرأة ويغازل أخرى ، ويداعب ثالثة ، حتى يخيل له أنه يحب أكثر من امرأة واحدة ، وانه يحب واحدة لأجل جمالها الروحاني ، وأخرى ابتغاء مرضاته للغريزة الجنسية .

ويولع جمال المرأة الجسماني نار الحب في قلب الرجل ، أكثر من جمالها الروحاني ، حتى ولو كان ذاك الجمال مصطنعاً ، وله فعل عجيب في إضرام نار الحب في الرجل .

والرجل أميل إلى المرأة الشابة ، أو التي هي أصغر منه سناً جداً لنضارتها وجمالها ، ومع ذلك فإن كثيراً من النساء المتقدمات في العمر ، يستطعن أن يستهوين عشاقاً لجمالهن المصنع .

ويلذ للرجل أن يمتع نظره بجميع أعضائها ، لأن حبه شهواني مادي أكثر من المرأة لذلك مارست المرأة التبرج الزائد ، وليست تبعة هذا التهتك على المرأة وحدها ، بل معظمها على الرجل الذي يبتغيه ، فيحب الرجل ليس جمال الوجه وحده ، بل جمال سائر أعضائها .

وأما جمال الملابس فليس عند معظم الرجال في الدرجة الثانية ، بل كثير منهم تفتنهم أناقته وزخارفه ، وللأزياء فعل عظيم في اقتداح شرر الحب في

أنفسهم ، ولشدة افتتان الرجل بالجمال المصطنع ارتقى فن التجميل ارتقاء عظيماً جداً حتى اختفى وراءه الجمال الطبيعي ، وانقطع السبيل إلى تعرف الجمال الروحاني في المرأة .

والرجل أسرع من المرأة انفعالاً بالنظرة الأولى ، وأن معظم سهام الحب التي تدخل إلى فؤاده تتطرق إليه من طريق البصر لا البصيرة .

وإن نظر الرجال يختلف باختلاف السن ، وان مزاولة التحبب والتودد ، أفعل في الاستهواء والاستمالة من مسألة السن لذلك لا يستغرب أن كهولاً وشيوخاً ينجحون أحياناً في استهواء الفتيات في أول شبابهن . وكذلك كهلات النساء . .

وقد يمكن أن تجد فريقاً من النساء يهوين الرجال المتخنثين ، ولكن هيهات أن تجد رجلاً يحب المرأة المسترجلة ، والرجل حديد والمرأة صوان فإذا لم ينقدح من احتكاكهما شرر فلا يكون حب .

وإن الرجل يضحي كثيراً لأجل حب المرأة ، والمرأة تتعرض للفضيحة في حب الرجل ، وأحياناً بعفافها ، وقد لا يكافئها على التضحية ، ومتى هوت المرأة فقلما تعود تجد من الرجل عطفاً ، حينئذ تكون كالمملكة التي فتحها الغازي للنهب والسلب .

والرجل أكثر تملقاً للمرأة منها له ، وكثيراً ما يكون مخادعاً في مجاملته لها ، والرجل كثير الملل والضجر ، والمرأة كثيرة الصبر ، وتلك حال الرجال في الحب بالإجمال .

وأما كيف يريد الرجل أن تكون المرأة ؟ فهو يريدها كحبيبة معشوقة ، والجمال أول بغية في الحب عند الرجل ، وإذا عز على الرجل الحصول

على جمال طبيعي في معشوقته ، طلب فيها جمالاً مستعاراً ، لأنه حيث لا جمال فلا ينقدح شرر الحب ، وهو طماع في ابتغاء الجمال ، فلا يقنع بالجمال الطبيعي ، فيبتغي استزادة منه ولو بجمال صناعي مستعار ، وبعض الرجال شرهون في طلب الجمال فيبتغون تمادي الحبيبة إلى حد التهتك .

وكما أن المرأة تبتغي في الرجل الرجولة كذلك الرجل يبتغي فيها الأنوثة المطلقة ، والرجل يدعي القوة ، ويباهي بها ويزعم أنه حامي المرأة ، فيود أن يستخدم هذه القوة في خدمة المرأة ، ويرغب أن تتكل المرأة عليه وتثق به ، ولهذا يود أن تكون المرأة شاعرة بضعفها وأن يبدو شعورها هذا بوداعتها ولطفها ورقتها ، ويبتغي الرجل أن تكون المرأة منقادة له تأتمر بأمره ولا يريد الرجل المرأة حتماً إلاّ من حيث الجمال ، بل لا يريدها جسماً حياً وحياة ملتهبة حباً ، فإذا كانت بليدة كانت باردة ، والحب نار تطفئها برودة البلادة .

وربما احتملت المرأة الرجل وصبرت على ختله ، أما الرجل فلا يحتمل ختل المرأة ومكرها ، وان لم تعدل عن ذلك قاطعها وكرهها .

وغيرة المرأة قد تلذ الرجل ، لأنها أقوى دليل عنده على متانة حبها .

وأقتل شيء لحب الرجل كبرياء المرأة وخيلاؤها ، وتواضعها يضرم في الحال نار غرامه . ويكره الرجل في المرأة غرورها واعتدادها بنفسها وإعجابها بجمالها ، لأن ذلك يجعله يشعر أنها مستعلية عليه .

ويريد الرجل أن يقدم للمرأة أعز ما عنده ، وإنما يبتغي أنها هي تطلبه ولو تلميحاً لكي يشعر أن منحته قيمة ذات عندها ، والرجل يبتغي تساهلاً .

الحب غير الجنسي :

تختلف عوامل الحب غير الجنسي كالحب بين البنين والوالدين والأخوة

والأقرباء والأصدقاء وأفراد القوم ، عن الحب الجنسي بين الذكر والأنثى اختلافاً جوهرياً ، فهو جامع لأشعة الحب وعناصره ، ما عدا الغريزة التناسلية .

وعناصر الحب تتفاوت قوة فيه بحسب أنواعه أو درجاته ، فأقواها في حب الوالدين للبنين وأضعفها في حب الأصدقاء ، أو الحب القومي أو الصداقة قوية كقوتها في الحب الوالدي ، وفي هذا الحب يحل الانتفاع محل الغريزة التناسلية ، فهو العنصر الجوهري فيه ، وقد يتوارى هذا العنصر (الانتفاع) وراء العناصر الأخرى في حالة اشتداد الحب ، كما تتوارى الغريزة التناسلية وراء الحب الشعري ، وحب النفس أساس هذا الحب ، كما أنه أساس الحب الجنسي ، أو العشق .

ويمكن تلخيص العناصر الرئيسية التي يتألف منها الحب غير الجنسي وهي :

١ — حب الذات وهو عنصر جوهري في هذا الحب ، وهو كالغريزة التناسلية ، غاية لا واسطة تختفي أو تكاد تتلاشى في الحب العائلي ، وإنما الصداقة والقومية تشفان عنها .

٢ — الغيرة تشتد على الأكثر في الحب العائلي وقد تشتد في غيره شدتها فيه .

٣ — الإعجاب بمحامد المودود أو الصديق والافتخار بها ، وهذا الإعجاب لا يدع سبيلاً للتحاسد بين المتوادين وعدم التحاسد يؤكد إخلاص الوداد .

٤ — العطف إلى محاسن الودود لمودوده وملاينته والتساهل والتسامح معه واحتمال الألم الذي يطرأ بسببه على غير قصد منه ، تعظم المحاسنة والملاينة والتسامح في العائلة إلى حد إنكار النفس ، وتضعف كلما بعدت شعابها ، وقد تعظم في الصداقة أيضاً .

٥ — حرص الودود على كرامة المودود واعتباره عنها في القول والعمل .

٦ – مجموع هذه العواطف أو العناصر يكون الحب غير الجنسي ، فكل حب أو وداد تبدو فيه هذه العواطف الست المذكورة آنفاً كثيراً أو قليلاً ، فإن قلت فيه كان ضعيفاً .

٧ – إخلاص الودود للمودود والثقة به ، والإعراب عنهما في القول والعمل.

ويظهر من تحليل الحب غير الجنسي ،انه يمكن أن يستخرج أن هناك وسائل تحريضية أو الحث عليه فيما يلي :

١ – حب الذات وهو عنصر جوهري الذي يقابل الجمال في العشق ، والعشرة للوداد والصداقة كالماء للروضة ينعشها ، والمودة من جهة الصديق الواحد تنشيء المودة في الصديق الآخر .

٢ – التناسب يقلل هذا الحض على الحب غير الجنسي ، وكلما قل التناسب بين الطرفين ، فإذا تباينا في الأخلاق والتربية والدرجة والمرتبة في المجتمع ندر أن يتصادقا وندر أن تكون صداقتهما متينة .

ويظهر أن حب الذات والغيرة تتداخلان في الحب غير الجنسي كتياري الكهرباء الإيجابي والسلبي المتقابلين ، وحاصل هاتين القوتين تبادل المنفعة واللذة بين المتحابين والمتوادين والتعاطف بينهما، فأساسها أدبية هذا الحب غير الجنسي إذاً إنما هي تكافؤ المتحابين في التعاطف وتبادل المنفعة واللذة وحيثما اختل هذا التكافؤ انثلمت المودة أو المحبة .

تلك أهم رغائب المرأة في الرجل ، وان جميع هذه النظريات التي ذكرت في خصائص حب المرأة ليست قواعد ثابتة ومطردة ، بل هي تقريبية غالباً ، ولها شواذ كثيرة ، وكثيراً ما تكون هذه النظريات معكوسة في أحوال كثيرة وعند نساء عديدات .

وتشاهد عدة تناقضات في حب الرجل ، قلما ترى مثلها في المرأة ، فهو كالبحر المتلاطم الأمواج ، وهي كالريح التي تلعب بتلك الأمواج ، والبحر قوي والريح ضعيفة ، ومع ذلك تثير بضعفها تلك القوى .

قال مارسيل بريفو : الحب عاطفة تصدر عن القلب ، ولكنها سرعان ما تضمحل وتموت تحت ضغط الحياة اليومية ، إن لم تقترن بعقل راجح يعرف كيف يوجهها ، وتلك هي نكبة الزواج .

فالشاب يحب خطيبته بقلبه ، والفتاة تحب خطيبها خاضعة لسلطان قلبها أيضاً ، فإذا تم الزواج ، وبدأت الحياة اليومية ، أحس كل من الزوجين أن حبهما لا يكفي ، وأنه في أشد الحاجة إلى قوى العقل كي يعيش ، وينمو ويزدهر ، وعندئذ تحدث الكارثة ويتحول الزواج إلى جحيم .

فللمحبين قبل الزواج أن يتحابوا بقلوبهم وأرواحهم، ولكن عليهم في نفس الوقت أن لا يستخفوا بصوت العقل ، وأن يحكموا العقل في دراسة أخلاقهم وميولهم ، وإلاّ انقلب الزواج عليهم وبالاً ، في الحب شعلة هوجاء يخمدها الطبع الفاسد والخلق اللئيم [1] .

وألفت مدام روزكيلي الأسوجية كتاباً بعنوان « نار الغيرة » تناولت فيه تحليل الكوارث التي تحدثها عاطفة الغيرة في الحياة الزوجية ، ومن أعمق ما ورد في هذا الكتاب قول المؤلفة : ان الغيرة سواء أصدرت عن المرأة أم عن الرجل هي في الواقع سبيل التدهور والسقوط .

فالمرأة التي تسرف في الغيرة تجعل من حبها وقْراً على الرجل ، فيبغضها ويستنكر منها ، إذلالها إياه ، وينتهي به الأمر إلى احتقارها واحتقار حبها والتبرم بسلطان هذا الحب والتوق إلى الخيانة التي تشعره بحريته وترد إليه في نظر نفسه إحساسه بالرجولة والكرامة .

---

(١) مارسيل بريفو : الهلال سنة ١٩٣٩ م ، عدد يونيو ٧٨٦ .

وأما الرجل الذي يسرف في الغيرة ، فلا بد أن يفتح أبصار المرأة على عالم الشر ، ويوحي إليها بالفساد ويغريها به ، ويضاعف إحساسها بأن لها من قوة الغواية والفتنة ما قد يذهب إليها ويدفعها إلى السقوط .

وترى مدام روزكيلي أن خير علاج للغيور رجلاً كان أم امرأة، هو توخي البساطة والصراحة وتجنب الكذب في كل شيء .

فمتى كان الرجل مع امرأته لا يكتم عنها شيئاً ، ومتى كان بسيطاً متحفظاً في علاقاته مع بقية النساء . أزال من نفس امرأته الشكوك التي يحدثها الكذب والمراوغة والتي تولد في الغالب عاطفة الغيرة .

وما يسري على الزوج يسري على الزوجة أيضاً . فكلما كانت حياة الزوجين واضحة ، وكلما أحس الزوجان إن الواحد منهما يعرف عن الآخر كل شيء ، تقلص بينهما ظل الغيرة ، واتجهت حياتهما نحو السعادة والصفاء .

وقد استشهدت مدام روزكيلي بنفسها ، فقالت : إن سر سعادتها الزوجية كامن في أنها لم تقصر يوماً واحداً عن مصارحة زوجها بكل ما فعلته أثناء النهار وكذلك كان زوجها يكاشفها بكل صغيرة وكبيرة مرت به خلال يومه ؛ فكان يشعر كل منهما بأن حياة الآخر واضحة أمام عينيه لا يحجبها غش أو كذب أو نفاق ، وهكذا لم يعرفا الغيرة ، ولم تتطرق إلى نفسيهما هذه العاطفة البغيضة التي تنهش الحياة كالسم البطيء ولا تلبث أن تلهمها كالنار الآكلة [1] .

وقيل : إن طبيعة الحب عند المرأة تختلف عنها عند الرجل ، فإن عنصر الانتخاب في المرأة أقوى منه عند الرجل ، وإنما يتجلى عمل كل منهما في المظاهر التي يتقدم بها كل من الذكر والأنثى في عالم الحيوان ، والخلاصة إنك تجد اختيار الأنثى دقيقاً جداً ، وبه تحصل على الذكر الأليق .

---

(١) الهلال عدد يوليو ١٩٣٩ م ٩٥١ .

والفتاة في حبها تمرن عامل الاختيار ، وفي داخلها صوت يهيب بها ، وقد لا تخضع له ، فتراها تحب ، ثم لا تخضع تحت تأثير حمى غرامها ، وترى قلبها يلتهب بالعاطفة ، ولكن غريزتها تقدر لها الصفات المطلوبة في إلفها .

فاختيارها في تخيلها لا يتفق البتة مع الحقيقة لأنه في أعماق نفسها غريزة هي صاحبة السلطان عليها ، فإنها تتطلب رجلاً قوياً يحميها ويحمي أطفالها ، ومن أجل هذا تهمها القوة في الرجل ويأخذ بلبها مظهره الجسمي ، وهذه هي دون غيرها التي يقدرها الاختيار في المرأة .

وقد لاحظ الكثيرون من الرجال إذ رأوا أصحاب المظاهر الجميلة يفشلون في الحب ، والرجال الذين يتحكمون في المرأة ويتسلطون عليها إنما هم المشوهو الوجوه القباح الصور الأقوياء .

والجمال في الرجال إنما يطرب إليه نفر قليل من النساء ، وخصوصاً صاحبات الجمال المفرط ، ولكن إذا بحثنا في موضوع الاختيار نجد أن الجمال في الرجال إنما يقل تأثيره على المرأة ، أو يكون تأثيره ثانوياً في كثير من الحالات وبذا نرى أن الحب في النساء يختلف الاختلاف كله عن الحب في الرجال .

وترى المخادعة المخاتلة تتحايل بحبها ، فتأسر رجلاً قد يفتقر إلى الخلق الطيب ، وهي في ذاتها سريعة في الحصول على ما تشتهي من الرجال ، بينا المرأة الطيبة القلب المصونة تظل عمرها لا تجد زوجاً .

ولقد كان من أمر الرجال أن منحوا النساء جمالاً من عندهم ، بأن رفعوا بهن وأعطوهن صفات وسكروا غراماً من أجلهن ، وانساقوا يلصقون بهن كل صفة جميلة ، وهنا نرى الأدب والفن وقد امتلآ بأوصاف عن النساء وعن جمالهن ، وكلها من اختراع الرجال ومن وضعهم ، ولم تفكر المرأة

يوماً في أن تحصر للرجال جمالاً ، وأن تقر لهم ببعض الأوصاف الخلقية ، وهن أنفسهن لا ينكرن ما لشكل الرجال من التأثير عليهن ، بينا الكثيرات أيضاً يجمدن الجمود كله ولا يفكرن البتة فيما للرجال من جمال [1] .

وعند بعض الأشخاص حواس أخرى ، لها أهمية عظمى تنبه الشعور الجنسي ، فتكون قوة للجاذبية كصوت مستحب لطيف ، أو رائحة زكية ، وغير ذلك مما له القوة على إيقاظ الجاذبية بين الجنسين .

وقد تكون الصفات الوجدانية ذات أثر في إيقاظ الشعور الجنسي بدون أن يكون صاحب هذا الشعور ذا حسن وجمال .

وبالرغم من ذلك فإن الجمال يعتبر ذا صفة جوهرية أساسية للنساء ، ولذلك أطلق عليهن الجنس الجميل ، أو الجنس اللطيف ، وذلك باختيار الرجال ومحض إرادتهم .

ذكرت Oh : إن أخبار النساء في الأزمنة الغابرة تحدثنا عن الجمال والنور وإنهن كن يبغين أن يكنّ جميلات منذ الحداثة إلى الأزل ،وكان يعتبر في تلك العصور أن النساء بأيديهن مفاتيح أبواب الجنة [2] .

وحدثت Dixon الأميركية فقالت : ان أول واجب يترتب على المرأة أن تظهره اللطف واللباقة لتحتل الإحسان في عيون الرجال حتى تستطيع أن تجذبهم إليها وتمارس فيهم التأثير الحسن [3] .

قال Mystom : حدثني بعض الرجال أنهم يمارسون الحب الذكوري،

---

(١) فن الزواج ترجمة محمد عبد العزيز الصدر .

(٢) Anton Mystrom : La vie sexcelle et ses lois .

(٣) Anton Mystrom : La vie sexcelle et ses lois .

وإذا مارسوا في بعض الأحيان الاتصال الجنسي الطبيعي مع النساء ، فإنهم لا يشعرون بدي لذة أو سرور .

وقد استشار عاملاً عمره ٢٦ عاماً انه كان يجد جاذبية نحو الفتيان في الفترة من عمره بين سنتي ١٧ و ٢٦ ، ولم يمارس أي علاقة جنسية مع هؤلاء الفتيان ، بل كان حبه عذرياً ، ولم يمارس في هذه الفترة أي اتصال جنسي مع النساء .

وكذلك استشارني بعض الفتيات إنهن لا يجدن ميلاً إلى ممارسة الحب مع الرجال ، بل إنهن يمارسن الحب مع نساء أخرى [١] .

وقيل : إن حب الرجل ميل ذاتي حسي شهواني ، تدعمه لذة الفوز والإمتلاك ، فهو نوع من الجاذبية الحادة التي لا راد لها يندفع بهـا صاحبها اندفاعاً أعمى نحو شخص يحلو له ويروقه هنـدامه وشكله الخـارجي . ويعجب بصوته وإشاراته الخ . . أي نحو غرض يشحذ قواه ويتطلب جهده وسعيه ، أو غاية ترفع مقامه في أعين الناس وتزيد في نفوذه وخيلائه وقد يكون من ورائها فائدة .

فعاطفة الإعجاب والاحترام التي تدفع النساء نحو الشخص الذي يعتبرونه جديراً بإخلاصهن وعاطفة الغيرة التي تحركهن نحو ذاك الذي رأينه في حاجة إلى عاطفتهن وهواهن ، قلما تدخلان في إدراك الرجل لمعنى الحب ، على أن الرجل قد يقوم في سبيل المرأة التي يحبها بتضحيات ويظهر حسن تصرف يعتز به ويباهي ، ولأجل المرأة التي يهواها ، يجد الرجل في طلب المقامات الرفيعة ولأجلها أيضاً قد يسير وحيداً في اكتشاف عالم جديد ، ويقتحم الأهوال والمخاطر بقلب ثابت وعزم مكين ، ويقدم على هذا كله لأن فيه مجازفة

---

(١) Anton Mystrom : La vie sexcelle et ses lois .

يميل إليها بطبيعته ويرى بالتعرض لها إلى أن يمتلك قلب من يعشقها، ولكن حين تتوسل إليه معشوقته هذه أن يبذل في سبيلها ،ليس حياته ، ولكن بعض ما ناله من ذلك المقام الذي توصل إليه حباً بإرضائهـــا على زعمه حينئذ تتغير الحال .

والحب عند الرجل يكاد يكون خالياً من عواطف الإعجاب والاحترام والتضحية ، تلك العواطف ذات الثبات والبقاء المرتكزة على الفكر والنظر ، وإنما يشمل حبه على قسط وافر من تعشق الجمال والميل إلى لذة الشهوة .

لأن حب الرجل مبني على عناصر واهية عديمة الثبات ، فهو لا يدوم طويلاً ، وإن يكن شديداً مفعماً بالإخلاص ، ولكونه قائماً على الشهوة فهو يشتعل في شباب الرجل حين يشتد شره النفس في طلب الملذات ويضأل في شيخوخته حين تهمد عواطفه وتخمد نزوته .

ولكون حب الرجل مبنياً على ثوران عرضي في النفس ، فإن صاحبه لا يتحمل تبعة تحقيق الوعود وتنفيذ العهود ، إذ لا يتوقع العمل بوعد أو عهد ارتبط به صاحبه في حالة الانفعال تحت تأثير الشهوة .

ولأن حب الرجل يكاد يكون خالياً من عناصر الغيرة والتضحية ، ولأنه مشبع بعناصر اللذة والتأثر بالجمال فهو يزداد جاهاً للمرأة ، كلما ازدادت جمالاً ورونقاً واستحثت حبه وشهوته ، ويضعف حبه لها حين تطعن في السن أو تصاب بمرض أو فاقة .

وهناك صفات ومزايا خصوصية ، يميل إليها الرجال ، وأولها جمال الطلعة ولا يراد بذلك الجمال المفرط ، بل المنظر الحسن الدال على النظافة والترتيب وحسن الهندام .

وثانيهما الإخلاص والبساطة . فإن الرجال يكرهون كذب المرأة وخداعها

أكثر مما يكرهون كذب الرجل وخداعه . ويخافون المرأة الخبيثة التي لا يعرفون كيف يعاملونها فيتجنبونها ، ويبغضون الفتاة التي تدعي ما ليس فيها ... وإن أكبر غلطة تأتيها المرأة العاملة هي أن تتظاهر بكرهها لعملها ، وتزعم بأنها إنما تعمل للتسلية .

والرجال يحبون اللطف والعطف في المرأة ، فقد يضحك الرجل من امرأة تسمح لقلبها أن يتغلب على عقلها ، ولكنه يحبها ، وليس بين الرجال من يحب أن تكون امرأته جافة متعجرفة ترغب في الرسميات وتكرهه على التقيد بها ، كلا فإن الرجال يحبون المرأة التي تغض الطرف عن هفواتهم وتحبهم بالرغم من وجود هذه الهفوات فيهم .

الرجال يحبون المرأة التي تتأثر بمصاب غيرها وتبكي عندما تقرأ كتاباً أو تشاهد تمثيل رواية . المرأة التي تجعل من يدها سريراً وثيراً لكل طفل بائس لا معين له ، المرأة المملوءة إحساساً وشعوراً .

ويرى جيمس موريسون الانكليزي أن مأساة الحب تنحصر في رغبة الرجل في مرضاة عقله وحواسه في وقت واحد ، فهو يطلب المرأة الجميلة التي تروي ظمأه الحسي ويطلب المرأة الرقيقة الحساسة المتعلمة التي تنقع ظمأه العقلي ، وتستطيع أن تكون رفيقة لفكره وحياته، فالمثل الأعلى في نظره ان تجمع المرأة بين الجمال والذكاء وبين الفتنة والعلم ، ولكن الذي يحدث عادة ان الزوجة إما أن تكون جميلة في محاسنها البدنية ، متعة للرجل ، وإما أن تكون متعلمة ينقصها الجاذب الجنسي فيترتب على هذا النقص أو ذاك أن يضعف عاطفة الحب عند الرجل ، غير أن هذا الضعف يمكن تجنبه في عرف الكاتب الانكليزي بالالتجاء إلى العقل .

ولإيضاح هذه النظرية يقول موريسون : إن في كل امرأة كائنة ما كانت

جاهلة ، فضائل فطرية عظيمة وذكاء غريزياً حاداً قد يفوق ذكاء المتعلمة ، كما أن في كل امرأة متعلمة ودميمة جمالاً روحياً قد يفوق جمال الحسناء الفاتنة ، ففي وسع الرجل متى كان مثقفاً مستنيراً أن يستخدم عقله في معرفة فضائل امرأته التي تهبها الطبيعة غير جمال البدن ، وفي وسعه أن يستكشف لها جمالاً روحياً ساحراً أن كانت الطبيعة قد منحتها الذكاء فقط وجردتها من الجمال البدني ، ومهمة العقل هذه لا تقتل الحب ، بل تنعشه وتقويه ، وانتصار الحب كامن في قدرة المحب على استجلاء غوامض شخصية المحبوب وإبراز ما تنطوي عليه من فضائل عميقة باهرة [١] .

وقيل : إن الرجل الذي لا يحب في حياته هو أتعس رجل في العالم .

وقيل : إن الرجل هو صورة الطمع والمحبة الذاتية ، تدفعه طبيعته إلى معترك الحياة ، وما كان الحب إلاّ زينة شبابه ، أما فشل الرجل في حبه فقد يسببه بعض الألم أيضاً فتنجرح عزة نفسه وينهدم صرح من صروح سعادته ، ولكنه بالرغم من ذلك فهو نشيط يسعى إلى السلوان ، فهو مضيع همومه بين مختلف الأعمال أو مقبل على اللذة ينهل منها ما ينسيه حالته ، فإذا كانت الصدمة ذات ذكريات مؤلمة هجر مسقط رأسه ، ونزح إلى حيث يجد الراحة والسكون .

وينصح بعضهم جماعة العشاق المعذبين بالفرار من المرأة تخلصاً من داء الحب حيث يقولون إن البعد يشفي المحب من حبه ويتحول بأفكاره وعواطفه إلى محيط آخر ، وهكذا تفنى العاطفة في العمل وتحرقها الأيام وتلقي بها في جوف الزمن .

ولكن الباحث الأخلاقي الفرنسي اتيبين ريه ، يستخف بهذا الرأي ويقترح علاجاً آخر ، فهو يرى أن العاشق لا يستطيع الشفاء من الحب

---

(١) مجلة الهلال سنة ١٩٣٩ م ، عدد يونيو ٨٣٠ .

بهجره المرأة التي يحبها إلا ّ إذا كان في مقدوره الشفاء من الظمأ بهجر الماء ، فعليه في عرفه أن يتخذ الطريق المعكوس وان يحاول جهده الاتصال بالمرأة التي يهواها ، وان يتقرب إليها ، ويذلل مختلف العقبات في سبيل رؤيتها أو التحدث معها أو الانخراط في سلك المجتمع الذي تعيش فيه .

وقد يؤلمه هذا ولكن شفاءه فيه ، لأن إقباله على المرأة هو الذي يستهلك قوى حبه ويستنفد قوى خياله ، ويفتح مغاليق بصره ويهديه شيئاً فشيئاً إلى رؤية نقائصها بعقله وهكذا يفهم المحب حقيقتها ويتحرر منها وينسى ما احتمله من ذل وعذاب [1] .

وتجول النروجي كريستيان داجار في ألمانية النازية بضعة أسابيع ، ووضع رسالة عن الحب عند النازي ، فأكد فيها أن عاطفة الحب قد ماتت أو أشرفت على الموت عند الاشتراكيين الوطنيين الألمان ، فالشاب منهم يتزوج لا بدافع الحب بل رغبة في خدمة الدولة وتكثير النسل والمحافظة على نقاء العنصر .

والرجل هناك يختار المرأة لا لجمالها ولا لعلمها ولا لثروتها ، بل لقوتها البدنية وسلامة جسمها ، وما يتوقعه فيها من استعداد للأمومة كأنها بقرة تعرض على فلاح .

وإن شباب الحرب النازي لفرط عبادتهم مظاهر القوة وفرط خضوعهم للروح العسكرية أصبحوا يحتقرون الحب وعواطف المحبين ، وانحصرت لذتهم الكبرى في الألعاب الرياضية والتمارين العسكرية ، وكل ما يلهب في عقولهم وهم الرجولة .

---

(١) الهلال سنة ١٩٣٩ م عدد يناير ٣٥٠ .

وهكذا جردت الوطنية الاشتراكية الشبان من سعادة الشعور بعاطفة الحب أيام الصبا [1] .

ومن جنون الحب الذي يصيب الرجل ، ما روي عن ريتشارد مارتن أنه قضى خمس سنوات متوالية على مقعد من الخشب في الشارع الخامس بنيويورك وهو من أكثر شوارعها ازدحاماً وحركة ، وهو من أسرة غنية ذات مركز عال ، وقد ربي تربية عالية ، ولكنه منذ خمس سنوات قابل أرملة حسناء افتتن بجمالها ، فقابلت حبه بالمثل ، ودام اجتماعهما عدة أسابيع ، هجرته بعدها واختفت عن أنظاره فجن الشاب المذكور [2] .

فإذا كان الحب لدى الرجل شيئاً عرضياً شبيهاً بثوران في النفس لا يدوم فهو لدى المرأة غير ذلك ، أو قل إن العناصر نفسها التي يتألف منها حب الرجل تدخل في تكوين حب المرأة ، ولكن على نسبة مختلفة .

فالعناصر التي تتغلب في حبها هي التضحية وإنكار النفس والإعجاب المقرون بالاحترام ، وكلها ترتكز على العقل والنظر ، أما العناصر التي ترجع إلى الشهوة وهي التي تفعل في الرجل فضئيلة الشأن عندها ، ومع أن الرجل لا ينفك في حياته اليومية يحكم عقله في جميع شؤونه ويخضع لأحكامه ، فإنه ينكر عليه كل سلطة فيما يختص بميدان الغرام ، وذلك بخلاف المرأة التي لا تفهم للحب معنى إذا لم تستطيع رده إلى باعث معقول مع كونها في شؤونها الاعتيادية أسيرة للعاطفة تذعن لو صبها بلا انقطاع .

فالحب يجذبها إلى شخص تعتقد أنه أفضل منها وأسمى منزلة ، وتعده جديراً بأن تبذل نفسها في سبيله ، فحبها له على غير نسبة احترامها وإعجابها . .

---

(١) مجلة الهلال سنة ١٩٣٨ م ، عدد ديسمبر ١١١ .
(٢) مجلة الإخاء ٨ : ٧٩٨ .

ولا تستطيع المرأة أن تحب رجلاً تحتقره في سرها ، ولكون حب المرأة مرتبطاً بعقلها ذلك الارتباط المتين فهي أصدق في عهودها وأثبت على عهودها .

وقيل : إن المرأة تحجب عن العالم آلام قلبها المجروح ، فهي في هواها هادئة مستكنة ، قلما تبوح به إلاّ إذا كانت سعيدة فيه ، وإذا كانت تعيسة دفنته بين حنايا الضلوع حيث يقيم وسط اطلال سعادتها المتهددة .

وكيف تطمع في عيشة راضية وقد خابت آمالها وخلت الحياة في نظرها من كل لذة ، وأصبح يقتلها الحزن على مهل فلا تلبث أن ترى شبحها الضئيل يسقط أمام أضعف العواطف .

وما هو إلاّ يوم أو بعض يوم حتى ترى الناس يبكون شبابها الذابل ، ويعجبون كيف أن المرأة كانت تشرق بهجة وجمالاً ، يقصف عمرها الموت ، وهي في ريعان الشباب ، ويجهلون ذلك المرض الفكري الذي تغلب عليها فجردها من كل قوة وتركها عزلاء[1] .

وقالت ألن كي : إن المرأة لا مقام لها ولا سعادة إلاّ أن تحب ، وإنها تحب الحب وتحب الرجل وتحب حب الرجل ، في حين أن الرجال لا يحبون إلاّ أنفسهم ، وقليل منهم من يحب المرأة لشخصها[2] .

وقالت مودانسلي : لا يصح التعميم في قضية كهذه ، فإن لكل من النساء في الحب مذهباً ، ولولا ذلك لساد في الأرض الشقاء ، وأنا أوافق السيدة ليفرسون عن كره الرجل المستبد ، وحب الرؤوف . أما رأيي الخاص فإنني أقدم الحيطة والرعاية على باقي الصفات ، إذ لا شيء عندي أبغض من الإهمال

---

(١) السياسة الأسبوعية سنة ١٩٢٧ م عدد ٦١ .

(٢) عباس محمود العقاد : ساعات بين الكتب .

وعدم الاكتراث ، ولست أعلق على المنظر الشخصي كبير أهمية ، فإني أعشق في الرجل أخلاقه لا أسنانه البيض وشاربه المفتول [1] .

وقالت ادلاييد ارنولد : إن وصف آدار ليفرسون ، يصدق بالإجمال على النوع الذي تفضله النساء ، غير أن بعضهن يفضلن ذا النفس الكريمة ، ولو كان قبيح الصورة والقوي على الضعيف ، أما المستبد الشكس الطباع فلا يطاق ، وقد أصاب « هزلت » في قوله : إن المرأة تعشق الرسم الذي اعتادت تصويره في مخيلتها [2] .

وقالت مسز اسكيو: ليس أبغض لدي من الشاب الجميل ، غير أني أشترط في مَنْ أحب أن يكون منظره مقبولاً ذا عينين لطيفتين وذقن تدل على القوة ، وان لا يكون في وجهه ما يدل على الدناءة ، يحب الأولاد والكلاب ، قادراً على استمالتهم إليه ، وأفضل مَنْ زاد على هذا ، الذكاء وسعة الإطلاع وكرم النفس والقوة الحقيقية ، فإن القوي لا يظلم ولا يستبد وأكره الجبان الغيور ، ومن الحكمة أن لا تفحص المرأة عن ماضي رجلها وإن تثق به كل الثقة [3] .

وقالت كاترين باتيس : إن الاستبداد في الرجل ، كثيراً ما يكون عنوان الضعف ، فالمرأة الحكيمة تعرف كيف تحصل على السلطة الحقيقية بإظهارها الطاعة واللين ، ويمكنها الفوز بأكثر رغائبها إذا تظاهرت بعكس ما تروم . أما الرجل الرؤوف ، الذكي ، الثقة ، فهو عطية الآلهة وإني استغرب ممن تفوز ببعل كهذا كيف يخطر لها خداعه في بال [4] .

وقالت مارجري بون : يستحيل على امرأة واحدة أن تجيب على هذا السؤال المهم ، فإن لكل امرأة ميلها ، وبصفة كوني عضواً من الجنس اللطيف

(١-٤) مجلة الأخلاق سنة ١٩٢٣ م ، عدد تموز .

أجيب : اني أفضل الرجل الذي ينزع للسلطة ، وأكره الرجل الضعيف النفس ، كما تكره الكثيرات منا ضعيف البنية ، واحتقر الرجل الذي يخدع أما الخصال التي لها ميزة عندي فهي الشجاعة والذكاء والمواساة وخفة الروح وإن أضفت إليها دماثة الخلق والكرم بلغت حد الكمال [1] .

وقالت صوفياكول : إن قلنا إننا نفضل الرجل الطويل الجميل الذكي القوي ، فلأ فضل إذ نكون قد اخترنا أفضل النوع المذكر ، ومَنْ منا لا تميل إلى الرجل المتسامح في صغائر الأمور ، غير أني أرى اللواتي يفضلن محب الاثرة على ظلال مبين ، فهن يستحسن منه مظاهر القوة في زمن الخطبة ، ثم لا يلبثن أن يسمينها استبداداً مشيناً بعد الزواج ، ومما لا يعارض فيه أن المرأة تحب الغيرة في الرجل ، لأنها لا تريد أن تشرك فيه ، ولا أن يشرك فيها ، وأن لا يمكن خداعه أحياناً ، فهذا شرط يستغني عنه لأن الرجل الذي لا تقدر المرأة على خداعه لن يولد حتى الآن [2] .

وقالت مسز كرسبيني : إن الزمان الذي كانت تميل المرأة فيه إلى ذوي السيادة والاثرة من الرجال ، قد مضى مع الجيل الغابر ، فإننا بنات القرن العشرين نود أن نرى في الرجل العصري المجاملة والمروءة التي ينبغي أن تكون بين القوي والضعيف ، أما إذا وجدت المرأة رجلاً تقدر أن تثق به ثقة دائمة ، فينبغي أن تخجل من أن تقدم على خداعه [3] .

وقالت ماري ارجنتون : إن رأي مسز ليفرسون ، هو رأي ناضج ناشيء عن خبرة وتدبر ، وهذا لا يتم إلاّ لمن قضت في الزواج أو العزوبة عقداً طويلاً .
أما الفتيات اللواتي يهتمن في الدرجة الأولى ما نحن في صدده ، فإنهن يملن مع القلب ، وليس مع العقل ، واني أرى الصفة الفضلى في ما يسمونه

(١ – ٢) المصدر نفسه .
(٣–) مجلة الأخلاق بنيويورك سنة ١٩٢٣ م ، عدد تموز .

بالسحر والغزل ، فإن كل بنات جنسنا مهما كن متعقلات يرضيهن من أزواجهن أمور في الحقيقة صغيرة كمثل نظرة أو قبلة عند الوداع ، أو حديث رقيق أو لمسة تحبب ، أو باقة زهر ، والرجل الذي يحسن هذه الحالات البسيطة تغفر له المرأة ذنوباً كثيرة ، ويسرها أن ترى الغيرة فيه ما دامت ترى فيه آثار الحب الصادق ، إذ لا تقدر المرأة أن تعيش بلا حبيب [١] .

وقالت النيورغلن : ليس لي رأي خاص في هذه المسألة سوى اني أعتقد أن جنسنا ينقسم إلى قسمين كبيرين : قسم يميل إلى التحكم ، وقسم يرغب في أن يكون محكوماً ، ولكل منهما فئة تقابله من الجنس الآخر ، واعتقد أيضاً بالمبدأ القائل : شبيه الشكل منجذب إليه ، إن شذ بعض الأحيان [٢] .

وقالت مسز بنروز : لو عرض الأزواج في السوق كالبرانيط الجديدة ما ترددت النساء في اختيار أجملهم صورة وأطولهم قامة وأقواهم بنية ، ولكنها ترى في من تحب الكمال ، ولو كان على عكس ذلك .

ومما يدهش أن بعضاً من الرجال الذين تفتتن بهم كثيرات من النساء ، ليسوا على شيء من المواهب الطبيعية ، وأنا أحتقر المرأة التي ترضى باستبداد زوجها ، ولا أحب الغيور ، فهو لا يطاق كرفيق العمر ، ومتى كان هذا طبعه فلا يسهل عليه تغييره ، وإليك ما أفضله في الرجل : ان يكون محباً سليم الذوق كريم الطباع سريع الفهم خفيف الروح محباً للمجون فإن المجون يخفف أثقال الحياة [٣] .

وقالت مسز بايلي : تختلف النساء في الذوق اختلاف الرجال فيه ، وما يقضي بالعجب أن صنفاً من النساء والرجال لا ترى فيه من المميزات ما يكفي بأن يجعله الفائز بالشهرة في الحب ، إنما السر أن هذا النوع لا يشعر

(١–٣) المصدر نفسه .

بالحب الحقيقي ، وهو ذو العواطف الهادئة من إذا رأى امرأة تعرض عنه بقدر أن يظهر لها وكأنه يقول : اني أستغني عنك بكل سهولة ، لأن من يهزه الحب الصادق لا يمكنه أن يعلق بأكثر من شخص واحد ، وإذا تصفحت التاريخ نجد أن الرجال الذين اشتهروا بشدة سلطتهم على قلوب النساء ، والنساء اللواتي كن يلعبن بقلوب الرجال كانوا بلا استثناء فاتري العاطفة شديدي حب الذات (١) .

وقالت ريتا : أميل إلى من كان يرمي إلى غرض معلوم في الحياة ، وهو قوي ثابت ، من يتكل على نفسه ويقتصر في مظاهراته الحبية على ما يكفي انه يفهم زوجته انه يحبها وأريده طويل الأناة دمث الأخلاق (٢) .

وقالت مسز ستانلي : إن معظم النساء يعبد القوة ويكره الرجل المتأنث ، ولذا فلا يهم الجمال هذا الفريق ، لأن الرجل الجميل يغلب أن يكون معجباً بجماله ، وهو محتقر ومرذول من النساء ، ويلذ للمرأة أن ترى الغيرة في مَنْ تحب ، ولا تكره سلطة الرجل ، وإن كانت لا تعترف بذلك جهراً حتى ولا لنفسها (٣) .

وقالت مود باردلي : كصديق أفضل الرجل المجوني الحلو الطباع المتوسط الذكاء ، من يقدر أن يجعل المرأة تعتقد بأنها أجمل وجهاً وأبهج عشرة وأفخر زينة من كل امرأة سواها فتصدقه وترضى عنه ، ولو قال نفس الكلام لكثيرات غيرها ، ولكن كحبيب وزوج اشتهي المفكر في غيره ، الرؤوف الرقيق ، من يحب الأولاد والحيوانات البكم ، ومَنْ يحسن الاتكال عليه دائماً (٤) .

(١-٤) المصدر نفسه .

وقال بلزاك : حين تحب المرأة تصفح عن كل شيء حتى عن الجريمة ، وحين يزول الحب من قلبها لا تصفح عن شيء حتى عن الفضيلة [1] .

وقال بلزاك : في المرأة ابتسامة لجميع الأفراح ودمعة لجميع المصائب وتشجيع لارتكاب جميع الهفوات ، وصلاة لدفع جميع النكبات وقلب لمقابلة قلب آخر [2] .

وقيل : من خصائص النساء الجنسية أنهن يفضلن ممارسة الحياة الجنسية مع رجال يختلف أعمارهم بين الثلاثين والخمسة والثلاثين عاماً [3] .

وقيل : الحب هو السبب في تطور المرأة وتقدمها ، بل وفي تغيير شكل أعضاء جسمها وعقليتها ونفسيتها ، والمرأة واحدة من ثلاث : المرأة المتزوجة، البغي ، والمرأة اليائسة .

أما المرأة المتزوجة فهي ذلك المثال البديع الذي يعطينا صورة المرأة الحقيقية هي المرأة التي تتزوج وتلد ، وقد لا تلد أحياناً ، وتوجد النسل للإبقاء على جنس الإنسان ، وتنير حياة زوجها الرجل وتخلق له من منزل عادي بسيط جنة من الجنات ، هي تلك المرأة التي تقوم بنصيبها في الحياة ، وتتمتع بزوجها تناسلياً ويتمتع بها تناسلياً ليذوقا لذة الحياة المدنية الحديثة وهي التي تتبادل مع زوجها التعاون الحقيقي في الحياة وهي التي تتوفر فيها شروط الحب التناسلي .

وأما المرأة البغي فهي تلك المرأة التي تقدم جسمها للتمتع التناسلي مقابل ثمن مخصوص ، ويتكرر منها تقديم جسمها للتمتع التناسلي مقابل الثمن الذي تتقاضاه .

---

(١) (٢) مجلة الأخلاق بنيويورك سنة ١٩٢٤ م .

(٣) Louis Vian : Le desir .

وأما المرأة اليائسة فيشمل هذا القسم أنواعاً من النساء ، وهن الفتيات اللواتي يعشن عذارى لأنهن لم يجدن من يتزوجهن ، والأرامل اللواتي يموت أزواجهن . وهذا نادر جداً في الطبقات المحافظة على الأخلاق والفضيلة .

وإن المرأة تعيش لغيرها ، فخذ مثلاً المرأة المتزوجة فإنها تعيش لزوجها وأطفالها ، فكل حياتها منحصرة في إرضاء هؤلاء والعناية بهم وحبهم ، فهي كزوجة في أول حياتها تتزين لترضي زوجها ولتروق في عينيه بجمال طبيعي أو جمال مصطنع ، هي تلبس ما عندها من الملابس وتفكر في اقتناء غيرها من الملابس الجديدة لتظهر جميلة أمام الرجل .

هي تتطيب بالروائح الذكية ليشم رائحتها الرجل ، هي تحرك رأسها وذراعيها وقدميها لتستلفت نظر الرجل ، هي تنظر بعينيها لتجذب الرجل وتسحر عقله .

هي تستحم لتنظف جسمها لا لتشعر بنظافة جسمها فقط ، بل ليشعر الرجل أيضاً أن جسمها نظيف ، هي تمشط شعرها لا عناية بالشعر ، بل لتظهر هذا الشعر في أجمل مظهر يراه الرجل الخ . . . هي تغني ، هي ترقص ، هي تعزف الموسيقى لتدخل السرور على الرجل ، وقد تعمل ذلك أحياناً للذتها الشخصية .

هي تفكر في الرجل الذي تحبه ، هي تمركز عقليتها فيه ، هي تأمل في الوصول لمعرفة قيمة ميله إليها وحبه لها من شغفه بها .

فهي غير موجودة في ذاتها لأن كل علامات الوجود في الذات معدومة عندها ، وهي موجودة في غيرها : في الرجل ، فهي لا شخصية عندها ، وكل شخصيتها محصورة في شخص الرجل الذي تحبه .

كل إحساسها وعواطفها وتفكيرها موجه إلى ذلك الرجل الذي تحبه ، فهي معدومة أمام نفسها ، وكل سعادتها وكل هنائها ، وكل رفاهيتها تنحصر في شعور هذا الرجل بأنها تحبه وقبوله حبها هذا ومقابلة هذا الحب بمثله .

وهي ترى أن حياتها هي هذا الحب ، وهي تشعر بأن هذا الحب هو الذي يتمم حياتها ويجعلها حياة تستحق البقاء .

هذا حالها مع الرجل ، وأما مع أولادها ، فتعبد أطفالها ، تنظمهم وتقدم لهم الطعام وتراقب كل واحد منهم عند أكله وشربه .

تراقب ألفاظهم وتهذب أخلاقهم وتسأل كلاً منهم عن أنواع الألعاب التي يلعبها ، والكتب التي يدرسها .

هي تراقب صحتهم فتحميها بالوقاية والأمراض وإذا مرض أحدهم بالرغم من عنايتها بالوقاية ، فهي تستدعي له الطبيب حالاً وتلاحظ من أول لحظة مرضه ، وتصبح له ممرضة ماهرة ، بل تفوق الممرضة بما تشعر به من ألم لألمه .

هي تصير أسعد امرأة في الوجود عندما ترى نجاح ابنها في الحياة ، أو عندما تعرف أي ابنتها ستصير زوجة لرجل يليق بها أو يفوقها ، هي تصير أتعس امرأة في الدنيا عندما تشم رائحة خيبة ابنها أو عندما يبدأ عندها شعور بكساد سوق ابنتها في معرض الزواج .

هي تشعر بسعادة حقيقية يوم تشعر بأن بطنها ابتدأ يحمل جنيناً ، لأنها صارت أماً ، وستصير والدة لحي يرزق. بالرغم مما تقاسيه المرأة من مشقة وضعف عندما ترضع طفلها فيشاركها في غذائها ويفقدها كثيراً من بهجة وجهها وحتى من لمعان عينيها وكثافة شعرها .

وأصبحت بعد ذلك مهمة المرأة في القيام بواجبها نحو الإبقاء على الحياة منحصرة في شيئين :

١ – الاستعداد لتمكين البذرة الذكر حتى تصل لتلقيح البويضة .
٢ – مساعدة الجنين على النمو داخل بطنها والعناية بالطفل عندما يولد ، حتى يشب ويتم نموه كرجل يقدر على تجديد الحياة .

ولتتمكن الطبيعة من الإبقاء على حياة جنس الإنسان ، وضعت في المرأة العوامل الكافية لتسهيل هذين العاملين ، فوجدت المرأة تشعر بميل طبيعي للرجل وبرغبة في قربه منها ، وبشغف شديد يدفعها لحبه .

فتوجه حب المرأة للرجل وقد يكون ذلك الحب قوياً لدرجة تنسى معها المرأة حب نفسها ، فهي تحب الرجل لذاته ، وينشأ في المرأة حب طفلها بشكل من قوة الحب التي تنسيها نفسها لتحب طفلها ، فهاتان القوتان تنسيان المرأة نفسها .

ويمكن القول إن شخصية المرأة عظيمة ولكنها لا تتمركز في نفسها ، بل تتمركز في غيرها ، سواء كانت متزوجة أو عاهرة [١] .

وقيل في صداقة المرأة للرجل : إن المرأة لا تفهم قيمة الصداقة بين رجلين ، ولا تفهم أن تكون قيمة الصداقة في نظر الرجل مساوية لقيمة الحب أو أثمن منها ، فصديق زوجها أو صديق عشيقها هو في الواقع عدوها ، تحذره وتخشاه وتخاف أن يسلبها شيئاً من حب الزوج أو العشيق .

ومن خصائص المرأة أنها لا تدرك أن الحب يعمل في الدائرة الباطنية ، وأن الصداقة تعمل في المحيط الخارجي ، وأن الرجل لا يمكن أن يعيش في

---

(١) الدكتور فخري : المرأة وفلسفة التناسليات .

الباطن فقط ، وانه في أشد الحاجة لإنسان يشاركه الحياة الخارجية ، وكل ما يتصل بها من آراء وأفكار ، وجهود لا تمت إلى المرأة ولا إلى الحب بأية صلة .

فالمرأة للنفس والجسد والصديق للنفس أيضاً ثم للحياة الكبرى، وهذا ما لا تقره المرأة بأي حال ، ولا يمكن أن تفهمه لماذا ؟ لأنها تأبى إلاّ أن يسيطر حبها للرجل على حياته الداخلية والخارجية، المنزلية والدنيوية باعتبارهما وحدة لا تتجزأ ، ويجب أن لا تنفصم .

غير أن عقل المرأة مهما كانت مثقفة لا يمكن أن يلم بمختلف أسباب الحياة الدنيوية ، وعقل الرجل مهما كان عاشقاً لا يمكن أن يكتفي بملذات الحياة البيتية ، فهو ملك العالم قبل أن يكون ملك البيت ، وهو ملك الدنيا قبل أن يكون ملك المرأة ، وهذا هو السبب في أن كل زوج يحاول في الغالب أن يتخذ بجوار امرأته التي تمثل في نظره نعمة الحب والبيت صديقاً يمثل في نظره نعمة الاتصال بما في العالم الخارجي من حركة وحياة .

تلك هي المأساة: لا تستطيع المرأة أن تتصور زوجها أو عشيقها منفصلاً عنها مشاركاً غيرها في جزء من حياته ، ولا يستطيع الرجل وقف كل حياته على المرأة والتضحية من أجلها بكل صديق ، ومن هنا كانت المرأة المحبة الذكية لا تنفك تسعى لتكون الزوجة والصديقة في نفس الوقت ، ولكن هل في وسع المرأة تحقيق ذلك المثل الأعلى ، وهل في مقدورها أن تغني الرجل عن الرجل ، وهل يمكن أن يقوم حبها وذكاؤها وما خبرته من الحياة مقام خبرة الصديق وتجاربه بوصف كونه رجلاً .

إن المرأة في الغالب لا تستطيع أن تشارك الرجل فكره وعمله وجهاده في الخارج إلاّ متى أحبته ، ومتى أحبته استسلمت لحكم غريزتها بالرغم منها واجتهدت في تحويل فكره عن جهاده الخارجي إلى حبها وإليها نفسها، إلى الحب باعتباره غاية في ذاته .

فالحب عندها غاية مطلقة تسمو على غيرها ، والحب عند الرجل راحة بعد العناء ، وفرج بعد الشدة ولذة يستمتع بها عقب النضال ويستمد منها القوة اللازمة لاستطراد الجهاد والكفاح .

فكيف تستطيع المرأة أن تحل محل الصديق ، والحب غايتها ، وحصر الحياة في دائرة الحب قبلتها وعبارة الحب والبيت تخم على بصرها وتحول بينها وبين التمرس العميق بشهوات العالم الخارجي حيث يعمل ويفكر زوجها أو عشيقها .

لا جرم أن المرأة قد تكون قادرة على إبداع فضائل خارقة تصدر عن الحب والحنان وتتمثل في إنكار الذات والتضحية ، ولكن هناك أشياء بين الرجل والرجل لا يمكن أن يصل إليها مدى تفكيرها ، هناك ضروب من الشهامة في المعاملة والنخوة في المعاونة والدقة في الإحساس والتعمق في فهم وجهات النظر المختلفة والتجاوز عن السيئات والتأهب الدائم للصفح والنسيان لا تستطيع المرأة أن تفهمها أو تشعر بها أو تروض نفسها عليها كي تحل محل الصديق الرجل في قلب زوجها أو عشيقها .

ويمكن اعتبار هذه المحاولة دليلاً على الرغبة في السمو بالحب والرقي بالفكر والاشتراك مع الرجل بالجسد والروح ، وهي محاولة نبيلة ومجيدة ، ولكن على المرأة أن تعلم أن صداقتها لن تكفي الرجل وان نقص الرجل لن يكمله إلاّ الرجل وان احتفاظها بسلطانها على الزوج أو العشيق في حياتها الداخلية لا يساعد عليه في معظم الأحيان إلاّ وجود صديق شريف ، وفي يعرف كيف يشبع في الزوج أو العشيق مطالب الحياة الخارجية [١] .

وقال أندره موروا : الحب عند المرأة هو انعكاس عاطفة الأمومة ،

---

(١) مجلة الهلال سنة ١٩٣٩ م ، عدد مارس ٥٥٠ .

فإن الأصل في الحب هو حب الذات . ولكنه حب مملوء غيرة تفيض من النفس على الآخرين ، وتقوم بالخوارق والمعجزات ، فإن أحب الرجل امرأة مثلاً أراد إسعادها ، فأغدق عليها من صنوف الرعاية ما يعتقد انه سوف يجعل منها أميرة بين النساء ، ولكن رغبته الشديدة هذه في أسعاد مخلوق تنم في الواقع عن رغبته الحقيقية في إسعاد نفسه فكأنه ينشد نعيمه الشخصي في النعيم الذي يبتدعه من عصارة فكره وعمله ويقدمه هدية لأحب الناس إليه .

وأما خيرات الحب يا أيها الرجل فإنها تتحدر منك وتعود إليك وتسعد في نفس الوقت غيرك . وهذه هي حب الذات الغيرية في معناها الأسمى ، ولكن هذه العاطفة أقوى في طبيعة المرأة منها في طبيعة الرجل . فالرجل يحب ويخلص ويغدق خيراته على منْ يحب ، غير أن إحساسه الشديد برجولته يلهب فيه شعور الاعتداد بالنفس ، ويغلب في صدره عاطفة حب الذات ويجعل خيرات الحب ترتد إليه ، فيصيب منها أضعاف ما تصيبه المرأة .

أما المرأة فمتى أحبت تغلبت فيها الغيرة على حب الذات وارتدت خيرات حبها إلى الرجل وانحصرت فيه وتركزت في شخصه لأن المرأة تحب بأنوثتها الكاملة أي تحب كامرأة وأم ، حيث أن الطبيعة أعدتها للأمومة أي أعدتها لتضحية النفس المطلقة في سبيل الطفل دون توقع شكر أو جزاء ، فهي تنقل هذا الإحساس نفسه في محيط حبها للرجل لتخلص له وتتفانى في خدمته وتجاهد ما استطاعت لتعامله معاملة الطفل كي تستأثر وتجود عليه بكامل ما أودعته الأمومة في صدرها من فضائل الحرص والتضحية وإنكار الذات .

وهذا هو السر في ذلك الحنان العجيب الذي يملأ قلب المرأة متى أحبت . ذلك الحنان هو نعمة الحب ، وهو انعكاس عاطفة الأمومة على عاطفة الحب .

ويمكن أن يقاس مدى الحب عند المرأة بمبلغ ما تشعر به من حنان تجاه الرجل الذي تحب ، فإن كانت تعامله في رفق وتتواضع أمام نزواته ، وتسهر

عليه وتؤاسيه وتميل إلى طاعته ولا تؤاخذه على هفواته إلاّ لتصفح عنه ، فاعلم أنها تشرف عليه من قمة أمومتها وتعامله على اعتبار أنه طفل خرج من أحشائها ، وتحبه حبها ذلك الطفل المعبود سواء بسواء .

ومن هنا يتبع فرح المرأة . فهي تفرح لا لأن حبها يسعدها سعادة، أصلها حب الذات ، بل لأن حبها يمكنها من خلق إنسان خلقاً جديداً والتضحية في سبيله بكل مرتخص وغال .

ولهذا السبب لا يفهم الرجل المرأة حق الفهم ، فهو يحبها كرجل وهي لا تستطيع أن تحبه إلاّ كطفل ، وهو يعاملها في جد وصراحة ، وهي تأبى ألاّ أن تمزج حبها إياه باللهو كما تفعل بطفلها الصغير ، والرجل يسمي هذا الضرب من الحب طيشاً والمرأة تسرف وتسميه جنوناً لأن الرجل ملك عقله ، والمرأة ملك غريزتها ووظيفتها وما أعدتها الطبيعة للقيام به .

ولا يظفر الرجل من المرأة بالسعادة التي ينشدها في حبها إلاّ متى نزل عن كبريائه وتجاوز عن مطالب رجولته ، واستحال بين يدي زوجه أو معشوقته إلى طفل أو راضى نفسه على تقبل حبها بفؤاد طفل وحاجات طفل .

عندئذ تشعر المرأة شعور الأم ، تشعر أنها الحاكمة المسيطرة ، فتفتح كنوز قلبها وتفيض منها على الرجل فيحس الرجل ذلك الحنان العجيب الذي يمثل نعمة الحب .

وأكبر الظن أن كبرياء الرجل هي التي تعوقه عن التمتع الطويل بالحب ، فهو لا يطيق أن يمثل على الدوام دور الطفل ، لا يطيق الرعاية والتدليل ، لا يطيق النصح والإرشاد وفرض الوصاية ، لا يطيق من المرأة أن تنحدر بعقله ، وفكره إلى مستوى الطفولة كي تسعده .

وتلك هي مشكلة المشكلات ، وحلها يقتضي الاعتدال والتوسط ، اعتدال المرأة في محاولة كبح جماح الرجل والغض من رجولته وكبريائه ، واعتدال الرجل في التلويح بهذه الرجولة والمباهاة بتلك الكبرياء ، ولكن هل يعرف حب المرأة قانون الاعتدال والتوسط .

متى أحبت خضعت لفطرة الأمومة وأسرفت في حبها وعلقت إخلاصها على ما يمكن أن تحققه في نفس الرجل من روح الطفولة ونزعاتها، فلينزل الرجل على هذه الحقيقة إذن وليفهم ويتحاش التبرم بها ويجتهد في استخدام عقله لقبولها وتلطيفها . ولو حاول ونجح فمما لا يقبل الريب انه سيروع ويبهت لفرط ما يغدق عليه من نعم ويبهت لفرط شعوره بأن المرأة وحدها بنت الطبيعة وان الله قد اصطفاها من دون مخلوقاته وحباها القدرة على أن تصبح متى أحبت ملكاً في صورة إنسان [١] .

وقال الدكتور لويز بيتش : عاطفة الحب منشأ جرائم النساء ، فهل كان القدماء صادقين في أساطيرهم حين اتخذوا المرأة رمزاً للجريمة ، فقد ثبت أن المرأة الضعيفة قد تكون أقسى قلباً وأغدر يداً من الرجل ، فهؤلاء نساء الثورة الفرنسية يجلسن في ساحات باريس ينسجن بأيديهن ، بينما رؤوس الأشراف تهوي من فوق المقاصل ، وتتدحرج تحت أقدامهن دون أن تعتريهن رجفة الألم ودون أن يلم بهن مس الخوف، وهذه إحدى فتيات ذلك العصر شارلوت كورداي تستل الخنجر المسموم وتغمده في صدر « ماراه » زعيم الطغاة ، بينما يغتسل في حمامه دون أن يردعها الموقف أو ترهبها الجريمة ، وهذه الصحف تذيع كل يوم أنباء نساء قتلن أزواجهن الذين يحبونهن ويعولونهن لا لأمر إلا جمع المبالغ التي أمنوا بها على حياتهم في شركات التأمين ، ونساء أخريات يهجرن بل يقتلن أطفالهن ليخلو لهن سبيل الحياة مع رجل أحببنه

(١) اندريه موردا : الهلال سنة ١٩٣٩ م ، عدد يونيو .

أو يدفعهن دافع الغرام أو الغيرة إلى إلقاء السوائل الكاوية تشوه وجوه أحبائهن ومنافساتهن .

فكيف أمكن أن تسكن هذه القسوة البالغة وما تتأتى عنه من جرائم منكرة قلب هذا الجنس الذي تتمثل وتتركز فيه أسمى عناصر الحب والتضحية والجمال.

إن هذا التناقض في طبيعة المرأة يسهل تفسيره وتعليله إذا قدرت هذه القوة الغريزية التي تحكم كيان المرأة ، وهي أن المرأة ناقصة من الوجهة العاطفية وإنها في حاجة إلى حب الرجل ليكمل نقصها هذا .

منشأ هذه الحالة هو ما أودع في المرأة من المقدرة على الإنسال والإنتاج فسواء أكانت متزوجة أم بغير رجل، وسواء أكانت أماً أنتجت أم لم تنتج أحداً، وسواء أكانت مستقلة بأمرها أم معتمدة على سواها في حياتها ، فإنها لا تستطيع أن تغفل ما يضطرم في كيانها من قوى الإنتاج التي تدفعها دفعاً عنيفاً إلى التماس الرجل الذي لا غنى لها عنه لإدارة عجلة الإنتاج وتحقيق غاية الأمومة ، ومن هنا تقوم علاقة المرأة بالرجل ، ومن هنا تنشأ عاطفة الحب في المرأة .

وهذه العلاقة ، وهذا الحب مصدر فضائل المرأة ومنبع مزاياها ، ذلك ان ما تناله المرأة من حب الرجل وما تفيده من علاقتها به من إكمال جوانب النقص في حياتها العاطفية يحملها على أن تدفع ما يقابله ويوازيه بمنح زوجها وولدها من ذات نفسها من معين عاطفتها ما يخلع عليها صورة الزوجة المحبة والأم الرؤوم ، ولكن أحرم المرأة من هذا الحب وجردها من هذه العلاقة نفسها ، وبانت للأعين في صورة الرذيلة المنكرة والجريمة المروعة .

أي أن فضائل المرأة وحسناتها ليست إلاّ ثمناً تدفعه للرجل الذي يمنحها حباً يكمل نقصها ، فإن ضن عليها وحرمها من هذا الحب اختفت هذه الفضائل والحسنات وحلت محلها الرذائل والجرائم . .

وليس الحب مقصوداً لذاته عند المرأة الطبيعية ، فما تراه إلاّ وسيلة إلى غاية معينة ، وما تعده إلاّ شجرة ترجى ثمرتها ، وهذه الغاية هي تحقيق عملية الإنتاج ، وهذه الثمرة هي النسل المنشود .

وليس من الضروري أن تعود كل امرأة حرمت حب الرجل الذي يحرث أرض أمومتها إلى طبيعة الإنسان الأولى التي لا تتحرج من الرذائل ولا تتهيب الآثام فثمة عوامل التعليم والذكاء والثقافة والتربية التي تكبت في كثير من النساء المحرومات فورة الرذيلة وتكبح جماح الجريمة .

وإذا عقدت مقارنة بين الرجل والمرأة تبين وجوه الخلاف بينهما في عاطفة الحب ومظاهرها ، فالرجل حيوان ذاتي يقصر تفكيره وشعوره على نفسه دون سواه ، ويستطيع غالباً أن يحقق مبدأ الاكتفاء الذاتي ، فلا يفتقر من الوجهة العاطفية إلى غيره ، ولهذا فإن الأبوة لا تبلغ ما تبلغه الأمومة من نفس المرأة ، وليس ثمة ما يضطره إلى أن يغلو في قيمة الحب أو الجنس غلو المرأة في قدرهما ، بل انه يستطيع أن يستغني عن هذين الأمرين لأن الرغبة في الإنتاج لا تفرض عليه سطوتها قدر ما تفرضها على المرأة ، أي أن الرجل لا يبلغ من النقص العاطفي الدرجة التي تبلغها المرأة ، فهو إذن ليس في حاجة إلى من تكمل نقصه مثل حاجتها إلى من يسد الثغرة المفتوحة في حياتها العاطفية .

والواقع أن الرجل يستطيع أن يتنكب طريق الحب والجنس دون عناء شديد ، ويستطيع أن يمارسها أو يتجنبها دون أن يطرأ تغير كبير ملحوظ على أسلوب معيشته أو مجرى مستقبله أو فلسفته العامة في الحياة ، ويستطيع أن ينال أقصى حظ من متع الحياة دون أن يمد يده ليقتطف ثمرة واحدة من الثمار المدلاة في شجرتي الحب والجنس ، فثمة ما يغنيه عنها فيما يصيبه من متع العقل ولذات الذوق وما يحققه من السعادة عن طريق الثروة أو القوة أو الجاه ، ذلك أن الرجل عالم قائم بذاته تنطوي جوانحه على ما يغنيه عن العالم الخارجي جميعاً .

أما المرأة فليست على حظ كبير من الذاتية فعواطفها لا تتركز في داخل نفسها بل تعيش على ما حولها من الاشخاص والأشياء ، وقد خلقتها الطبيعة على هذا النظام العاطفي لتعدها لرعاية شخص منفصل عنها بما يلزمه من الحب والجهد والتضحية وهذا الشخص هو طفلها ، وهذه العاطفة التي لا تستقر في داخل المرأة ، بل تفيض منها على ما حولها هي التي تجعلها شديدة الحب لأبيها وأمها في سن الطفولة وساعية إلى الزواج والأمومة في سن الشباب وباذلة نفسها لطفلها بعد ذلك ، بل هو الذي يجعلها تغــدق الحب على كل ما يتصل بها سواء أكان حياً أم جماداً ، فتراها تضفي من معين عاطفتها على زوجها وطفلها وعلى كلبها وطائرها وعلى ملبسها وحليها وعلى هدية تقدم إليها أو آنية في بيتها ، فهي دائماً تبحث هنا وهناك عن إنسان أو حيوان أو جماد تصب عليه عواطفها التي لا تجد في داخل نفسها المكان الذي تلقاه وتستقر فيه عواطف الرجل .

هذه هي عاطفة الحب في المرأة ، وهذا هو مبلغ قوتهـــا التي تدفعهـــا إلى الجريمة إذا هي حرمت أو جردت منها ، فهي إذا أباحت المرأة المحرومة من الحب لقوات الشر الكامنة فيها أن تظهر وتطغو ، فتتخذ في إظهار قسوتها أو اجتراح آثامها أسلوباً معينا من أساليب الإجرام . وقد وجد علماء الإجرام ان المرأة تنفرد بطرائق خاصة في ارتكاب الجرائم وهي تتفق غالباً مع أسلوب حياتهن وضعف أجسامهن .

فخطابات التهديد جريمة نسوية شائعة لسهولة تنفيذها ، واتفاقها مع ما يمتاز به تفكير المرأة من مكر ودهاء وتثبت الإحصاءات ان آلافاً من الرجال تقترف ضدهم هذه الجريمة النسائية في كل عام ، فترسل إليهم خطابات الاتهام بعدوانهم على الفتيات العذارى فيضطرون إلى دفع ما يطلب إليهم من المال اتقاء لما يلحقهم من الفضيحة والتشهير .

كذلك اختطاف البضائع المعروضة في المتاجر أسلوب من أساليب النساء في الإجرام ، ولعل مصدرها أن رغبة المرأة في الملبس والزينة تبلغ بها أحياناً إلى درجة الطيش والرعونة وبث السم في الطعام والشراب هو الطريق الذي تسلكه المرأة المجرمة عادة للتخلص من عدوها ، ويقال ان كل سفاح من الرجال تقابله مجرمة من مجرمات السموم .

وكان يقال فيما مضى إن جرائم العنف والقوة نادرة بين النساء ، فقل فيهن من تلجأ إلى ما يلجأ إليه الرجل من اطلاق النار أو غمد الخنجر والسكين ، ولكن أنباء الجرائم في الوقت الحاضر تخيّل إلى المرء ان المرأة لم تعد تتهيب تلك الوسائل ، بل صارت تجاري الرجل في اتخاذها.

والخلاصة ان المرأة ذات طبيعة مزدوجة ، فجسمها الرقيق ينطوي على ملاك ووحش معاً ، وتستطيع أن تستخرج هذا الملاك إذا أرضيت المرأة إرضاء عاطفياً وأيسر طريق لذلك هو طريق الحب فحينئذ نجد هذه المرأة مرة وديعة أليفة لا تحجم عن أن تضحي بنفسها في سبيل الرجل ، أما إن منعت هذا الحب وحولته إلى غيرها ولم يعبأ الرجل بإرضاء عاطفتها من أي طريق آخر فسوف يشب منها الوحش الكاسر الذي يعادي الرجل ويناضله [١] .

وقال غوستاف لانيته : قد تكون المرأة أشد خضوعاً للعوامل الجنسية من الرجل ، ولكن عفتها الوراثية تحول بينها وبين المصارحة برغبتها أو الذهاب في تحقيقها إلى حد الجرأة والمخاطرة والاصطدام بأوضاع المجتمع ، فهي تريد أن تكون محبوبة ، ولكن في ظل الأمن ، وهي تريد أن تهب ذاتها ، ولكن في حدود القانون ، وهي تريد أن تسعد ولكن على شرط ، أن تستطيع إسعاد الغير طوال حياتها ، لذلك تصد عن الرجل وتعرض وتتمتع وتتدلل لتثيره وتمتحنه وتجربه وتعرف مدى تعلقه بها وإخلاصه لها .

---

(١) لويز بيتش : مجلة الهلال سنة ١٩٤٠ م. عدد ابريل ٦٧٠ .

ويخطىء من يظن أن المرأة تتمنع لتلهب في الرجل حاسة الشهوة فقط ، إذ الحقيقة ان هذه المناورة ترمي قبل كل شيء إلى قياس حدود الحب والتأكد من مبلغ الوفاء والاطمئنان إلى المستقبل المحفوف بالمخاطر .

فالرجل يستعجل ويلح لأن اللذة غايته والمرأة تتلكأ وتتباطأ لأن الاستقرار المقرون بالوفاء هو مثلها الأعلى .

وحيث أن نظرتها إلى الحب مطلقة أبدية ونظرة الرجل وقتية نسبية ، فهي أعلم بالحب من الرجل وأقدر عليه منه وأردع فضائل وقوى ، والحق ان الحب يستغرقها ويذهب بلبها وينسيها في بعض الأحيان واجبها نحو عشيرتها وأهلها لأنه يتمثل في ذهنها قوة أبدية خالدة تتجه نحو إسعاد الحبيب ومنحه نعيماً أبدياً خالداً .

فإحساس الأبدية الشائع في حبها هو الذي تنحدر منه مجموعة فضائلها أي الطاعة والوفاء والحنان والقدرة على احتمال الفاقة والقدرة على مواجهة الأمراض والقدرة على إنكار الذات والتضحية .

فالمرأة تعطي كل شيء متى أحبت وتعطي إلى أجل غير محدود ، ولقيناها من الرجل سريع التعلق بكل وجه ناضر جديد ، وكل حسن طريف عابر ، تراها تسرف في الإخلاص وتغلو في الوفاء وتبالغ في التضحية كي تجذبه وتصرف عن الغير أنظاره .

وعلى قدر تفانيها في الحب يكون تماديها في الثورة متى غرر الرجل بها وأنكر تضحياتها وانتهك حرية كرامتها وآثر عليها غيرها .

فإذا كانت على حظ من التربية والتعليم سامية الخلق أبية النفس سعت للتحرر منه والانفصال عنه ، وإذا كانت ضعيفة الخلق وشريفة انتقمت منه

بتسميم حياته وتعكير صفوه وتحويل بيته إلى جحيم ، وإذا كانت متمردة بالطبع ساخطة بالسليقة على أوضـــاع المجتمع قابلته خيانة بخيانة وهرعت من فورها تبحث عن عشيق وتهتكت وتبذلت ما شاء لها الكمد والحنق واليأس والجنون .

وليس من شك في أن المرأة بوجه عام لا تغدر إلاّ إذا غدر بها، ولا تخدع إلاّ إذا خدعت ولا تتعلم الخيانة والمروق إلاّ على يد الرجل ولا تهزأ بأبدية الحب وأبدية الإخلاص إلاّ إذا خيب الرجل آمالها وعلمها بنفاقه ان الحب كما تفهمه ضرب من الأوهام .

وأكثر ما تصاب المرأة في صميم إيمانها بقدسية الحب وأبديته عندما تكون عـــذراء مفتحة القلب للعواطف زاخرة بأطيـــاف السعادة متأهبة للبذل والتضحية إلى أقصى الحدود .

في تلك السن البريئة تشوه الخيانة أمام المرأة وجه الحياة فتسوء طباعها ويفسد معدنها وتنعدم ثقتها بالرجل ويضمحل إيمانها بالحب وتتقلص الفضائل التي تمتاز بها والتي كانت على وشك النماء والازدهار في جو هذا الحب .

فالمرأة والحالة هذه تتجه متى أحبت وجهة أبدية مطلقة ، ولا خير للرجل بقربها ولا سعادة له بغرامها ، إلاّ متى سلم بنزعتها وراض نفسه على قبولها وآثر التمتع بالفضائل التي تصدر عن التغلب والتلون والتلهف على كل حسن عابر ووجه جديد .

وطوبى للرجل الذي يغض من كبريائه ويصقل من رجولته ويضع الحب فوق اللذة ، ويقدر في المرأة التي تحبه أبدية عواطفها وأبدية فضائلها فيبادلها حباً بحب وولاء بولاء هذا الرجل يربح نفسه ويربح الحياة وتكشف له المرأة في فضاء الكون الشاسع عن مباهج ومفاتن لم يكن ليحلم بها[1] .

---

(١) غوستاف لانتييه : مجلة الهلال سنة ١٩٣٩ م ، عدد يوليو .

ويختلف حب المرأة باختلاف جنسها ، فالمرأة الانكليزية يبدو عليها غالباً أنها مخلوق جامد متكبر متغطرس يميل إلى العزلة وينفر من الناس ، ولكن الحقيقة تغاير ذلك ، فكل من خالط المرأة الانكليزية ، واتصل بها عن كثب لا بد أن يدهش للفارق العظيم بين ظاهرها وباطنها، بين الصورة التي تلوح بها وبين مختلف العناصر النفسية الخفية التي تتكون فيها مجموع شخصيتها ، والواقع أن المرأة الانكليزية إنسان، قوي حاسة التصور، بعيد أفق الخيال مولع بالأحلام الجميلة والأخيلة الشعرية الرائعة .

فهي تحب الطبيعة حباً يفوق حد الوصف وهي تعرف كيف تستجلي غوامض الحسن الماثل في النباتات والأزهار ، وهي شغوف بمطالعة الشعر والقصص ، وهي أشد الناس رأفة بالحيوان الضعيف .

والمرأة الانكليزية لطيفة الحس مصقولة الوجدان مثالية النزعة تقدر في الرجل شجاعته وقوته وحبه ، وهي لا تعجب إلاّ بهذه الفضائل مقترنة بدماثة الطبع ورقة الخلق وسمو النفس واتقاد العاطفة وصدق الولاء وشتّى السجايا التي يمتاز بها الإنسان الكامل .

والمرأة الانكليزية أعلم الناس بالحب وأقدرهن عليه وأثبتهن في ميدانه وأوفرهن صدقاً فيه وتقديساً له .

والحب عندها يؤثر فيه عاملان : عامل الحرص على المظهر الاجتماعي ، وعامل الصدق في الإعراب عما يجيش به القلب .

فالخضوع لتقاليد المجتمع يحتم عليها اجتناب التبذل في إظهار الحب، والرغبة في اقناع الرجل بصدق حبها تحتم عليها اجتناب المبالغة في الإعراب عن عواطفها لئلاّ يشك الرجل في صدقها . هكذا تخنق الانكليزية حبها في أعماق نفسها وتزينه بأحلامها وتجسمه بخيالاتها وتضرب حولها منطقة حراماً ،

ولا تبديه إلا في نظرات خفيفة ومحادثات معنوية رقيقة وطائفة من الخدم الرائعة تسديها في صمت بليغ للشخص الذي تحب .

فيجب أن يكون الرجل ذكياً ليفهمها ، ويجب أن يكون متحضراً ليقدرها ، ويجب أن يكون دقيق الملاحظة ليحس مبلغ حبها من خلال النار المتقدة بين ضلوعها .

فالانكليزية تحرص على حبها وتكتمه لأنه حب الحياة لا حب الساعة ، وهي كلما ألهبته بخيالها وصهرته بنار أحلامها ازدادت حرصاً عليه وهيأته لمستقبل مجيد .

وهذا ما يفسر لنا صراحتها الشديدة في الحكم على الرجل الذي يطارحها الهوى ورغبتها في التيقن من صدقه وميلها إلى عدم استعجال الزواج به كي تطمئن إلى حبه وتثق تمام الثقة وتدرك من نظرة تلقى أو خدمة تؤدى ، أن حبها قوة راسخة وطيدة مثلها [١] .

وقيل : إن المرأة الانكليزية دقيقة الحساسية ، تتقد عواطفها ، ويغلي في صدرها شعور الحب ، وإن كانت تخفيه . وأما المرأة الفرنسية فلا تؤمن بالحب كثيراً ، ولا تسرف في الثقة بالرجال ، والحياة في نظرها مصلحة منظمة تسودها العاطفة لا عاطفة جامحة تحاول تنظيم المصلحة .

ولهذا السبب لا تتأثر الفرنسية بالحب قدر ما تتأثر به الانكليزية ، ولكن الفرنسية لا تستطيع الحياة مع زوج لا يحبها ، وأما الانكليزية فقد تخنق عاطفة الحب في سبيل تربية الأبناء . وقد تستغني عن حب الزوج بالتفاني في حب الأبناء ، ومع ذلك فحب الانكليزية لأبنائها يختلف عن حب الفرنسية لهم ،

---

(١) ريمون ج . لوران : مجلة الهلال سنة ١٩٣٩ م عدد أغسطس .

فالأولى تحبهم ولكنها لارستقراطيتها التقليدية تتحفظ في إظهار حبها ، والثانية تعبدهم وتجاهر بعبادتها في حنان يطعمهم في بعض الأحيان في شغفها وطيبة قلبها [1] .

ولقد تطورت الأنوثة عند المرأة الألمانية في عهد النازيين ، فبعد أن كانت تتمثل في الأساليب النسوية الشائعة كالتجميل والتبرج واتباع الأزياء الحديثة، تركزت في رغبة التفوق بالألعاب الرياضية ، وفي مظاهر القوة التي يحبها الشبان .

وهكذا جردت الوطنية الاشتراكية النازية الشبان من سعادة الشعور بعاطفة الحب أيام الصبا وجردت الفتيات من سحر المرأة التقليدي وفتنة الأنوثة الرائعة ، وكل ذلك في سبيل مجد الدولة الى مجد الاستعداد للحرب [2] .

وأما ممارسة الحب بين الذكر والأنثى فإن أشعة الحب تبدو منذ الحداثة أي منذ يشرع الطفل يتكلم ويلعب ويداعب ، فيشرع الطفل يستلذ عشرة الطفلة .

وبعد السنة الثامنة يتجلى هذا الميل المتبادل أكثر فأكثر ، بالرغم من أن الحياء يخفيه ، وبين الثامنة وسن البلوغ يتنبه الأحداث لأمر ، وهو أن الناس متصاحبون ذكراً وأنثى ، فمنهم زوج وزوجة ، ومنهم فتى وفتاة في الطريق إلى الزواج ، فيقوى فيهم هذا الميل ، ولكن الحياء والآداب العمومية تصدهم عن العشرة الجنسية .

وفي ما بين الثامنة وسن المراهقة ، يبدأ الحدث يتأثر بالجمال ، ويميز بين الأشخاص ، فيشرع الغلام حينئذ يحب اللبس والهندام ، والفتاة تحب الزينة والحلى .

---

(١) مجلة الهلال سنة ١٩٣٩ م ، عدد مايو ٧١٢ .

(٢) الهلال سنة ١٩٣٨ م ، عدد ديسمبر ١١١ .

وعند سن المراهقة والبلوغ تتضح النعرة الجنسية جيداً ، فيشرع الحب يتغلب على الحياء والخجل، وفي هذا الدور يلعب الهوى الشعري دوراً عظيماً عند الفتى والفتاة .

ثم تبتدىء النعرة الجنسية تتعاظم وتتفاهم وتشتد ، وقد تبلغ إلى القمة في سنة أو سنتين أو بضع سنين قليلة ، ثم تصعد في سن العشرين إلى القمة ، وفي هذا الدور يكون الخطر على آداب الفتى والفتاة شديداً .

وبعد بلوغ الفتى والفتاة سن العشرين يستطيعان أن يملكا عنان أنفسهما ، بالرغم من احتدام الحب فيهما ، إذا كان قد ربحا وحرسا وروقبا وارشدا جيداً من قبل أولي أمرهما .

ثم تبقى نعرة الحب شديدة حتى دور الكهولة والشيخوخة والهرم ، حيث يكون الحب في هذه المراحل شديداً ، وكثيراً ما يكون حباً شعرياً عالياً جداً .

وخلاصة القول فحياة الإنسان كلها حب وقد يكون حباً شديداً بحسب أحوال المحبين وظروفهم المختلفة .

وربما كانت بعض الأمم أكثر اشتعالاً بالحب من بعض ، ويرجع سبب ذلك إلى العادات والتقاليد وغيرها من العوامل الأخرى .

حيث أن النظم الاجتماعية تلعب أدواراً عظيمة الشأن في تكييف الحب ، فلا جرم انه حيث ينفرج الفرق بين الرجل والمرأة من الوجهة الاجتماعية ، يقل الحب ، وحيث يتلاشى هذا الفرق يشتد الحب حيث تكون المرأة رقيقة فتتغلب الغريزة التناسلية على الهوى الشعري، وحيث تتساوى المرأة بالرجل مقاماً يسوى الهوى الشعري .

وإن درجات الحب تتفاوت بتفاوت المدنية ، ولا ريب أن المتمـــدنين

أعظم حباً وأقوى غراماً ، وأسمى شعرياً من الأمم البدائية ، لأن في الحضارة من أسباب تحريض الحب ما ليس في الأمم البدائية كالترف واستفحال دولة الجمال ووفرة الملاهي والهرج والمرج والرقص كل ذلك يكون محرضاً للحب .

وتختلف حدة الحب باختلاف طبقات الناس الاجتماعية ، فالحب في المدن أروج سوقاً منه في القرى ، لما في المدن من وسائل الاختلاط ، ومن انحلال القيود الأدبية ، ولما في القرى من الموانع والمحظورات الأدبية ، ومن خشية الفضيحة وقلة الاختلاط .

ويمكن أن يكون الحب في القرى أطهر منه في المدن ، وأحد طوعاً للشرائع الأدبية ، والحب في القرى أكثر مآلاً للزواج منه في المدن ، وربما كان الهوى الشعري في القرى أوفى منه في المدن، وهو في القرى أينع ثمرة وأخصب بالمواليد وتقدم أفضل النسل وأصحه وأقواه .

وأما الحب في طبقات الأغنياء والأعيان فهو أروج سوقاً منه عند طبقات الفقراء والعمال ، لأن انهماك العاملين في العمل يقلل الفرص عندهم للحب ، وضيق العيش يقصر يدهم عن تعزيز مملكة الجمال التي تمد الحب بالقوة والنشاط .

وعلى العكس من ذلك فعند الاغنياء والأعيان ، وذلك لترفهم ولهوهم وخلوهم من الأعمال المعيشية الضرورية ، فهم يمرحون ويسرحون ذكوراً وأناثاً في مملكة الحب ، يقتطعون منه ثماره بلا عناء ونصب ، فيفتحون بالمال والرضا ، ممالك الحب ، حيث شاءوا ويشترون الحب شراء ، إذا عز عليهم طوعاً. وفي هذه الطبقة يكثر دنس الحب وتتلوث الطهارة بأرجاس الدعارة والعهارة ، وتكون الطبقة الوسطى من الناس أكثر اعتدالاً في الحب وأصدق حباً وأطيب ثمرة .

وقد يكون فصل الربيع أقوى الفصول تحريضاً للحب في النوع البشري ، وكذلك في السهرات قد يكون الحب أكثر تيقظاً منه في حر النهار لفراغ من مطالب الحياة .

ويمكن أن يكون التنزه في المرج الأخضر أو الروض أو الجبل الذي تزينه الخضرة والمياه ، أكثر إثارة للحب من الطواف في الشوارع أو الجلوس في المقاهي ، مما يجعل اختلاف المكان له تأثير في بعث الحب وإثارته .

ومن أقوى عوامل الحب الجمال ، فجمال الحبيب جذاب للمحب ، جمال الطبيعة دافع للمحب إلى الحبيب وبكلمة أخرى ان الجمال غذاء الحب ، أو هو الهشيم الذي يذكي ناره ويضرم أواره .

وأما الاستمالة والاستهواء فهو اعتماد الشخص على وسائل تستهوي وتستميل شخصاً آخر في الحب ، وأهم تلك الوسائل: النظر ، والسمع ، والعشرة ، والتخلق ، والتجمل ، والتحبب .

وأما النظر فنظرة و احدة كافية لتدفق كهرباء الحب وجري تياره بين القلبين، وبين النظرة والنظرة فرق كالفرق بين النور والظلمة والنار والماء ، والرجل والمرأة يستويان في التأثر من النظرة ، وأحياناً النظرة إلى صورة تثير الحب ، وكثير من العشاق من عشقوا صوراً وانتهي حبهم بزواج .

وتعشق الأذن قبل النظر أحياناً ، لأن الصوت من محرضات الحب .

ولعل العشرة في مقدمة وسائل الاستمالة والاستهواء وتحريض الحب ، فالعشرة تكشف عن دخائل النفس ، أضف إلى ذلك النعرة الجنسية ومفعولها إنها تتنبه كثيراً من قرب المحبين ، فتحرض الحب ، وطبعاً فإن العشرة لا تحدث دائماً حباً ، إلاّ إن كان المحب أو الحبيب يميل كل منهما بما في نفسه مما يدعو إلى تبادل الاستهواء بين المتعاشرين .

وقد يحس أحد المتعاشرين أو كل منهما أن في الآخر بعض ميول ورغائب، ليس في أخلاقه وعواطفه ما يجاوبها أو يلائمها ، فيحاول أن يتخلق بتلك الأخلاق وأن يزاول تلك العواطف لكي تلبي رغائب الآخر ، ولا سيما إذا كان فيهما كليهما قدر من الأخلاق والعواطف المتلائمة المتعاقبة الكافية لتحريض الحب . لأن الحب يولد الإنسان ولادة جديدة ، فالحب مدرسة خاصة للتطبع والتخلق ، وكثير من الناس أصبحوا في الحب غير ما كانوا قبله .

ومتى شرعت الغريزة الجنسية توقظ الحب تتفتح براعم الجمال أيضاً فلا يتعرض لمعشوق إلاّ وهو متجمل بكل صنف من صنوف الجمال العقلية والجسدية ، فالرجل يلبس أفخر ما يستطيع اقتناؤه ويتزين بكل أنواع الزينة ، وكذلك المرأة تلبس أجمل لباس وأنفسه ، وتتبرج غاية في التبرج وتتعمل الإبتسامة والحشمة والرشاقة .

أجل ان التجمل محمود ، بل هو واجب وضروري ، اللهم إلى حد ، أن لا يخفي البواطن ، وإلا كان خدعاً سيء العقبى ، ولذا يجب أن يتجنب الإفراط في التبرج والتزين لأنه ينافي الصراحة ، والصراحة شرط لدوام الحب .

وقد يكون أحد المحبين عاشقاً غير معشوق ، والآخر معشوقاً غير عاشق ، فيحاول التخلق والتجمل في أقصى درجاتها ، ثم يضيف إليهما الاستعطاف والاسترضاء ، كإبداء الإعجاب بمحاسن المعشوق ومحامد وبث لواعج حبه لمعشوقه وإبداء ولوعه ، وأحياناً يتذلل لمعشوقه ويسترحمه ويسدد إليه كل أشعة حبه ، وعلى كل ان جميع هذه الوسائل لا تفعل فعلها إذا لم يكن بين الطرفين تناسب .

وقد ينجح الرجل المستعطف ، وأما المرأة المستطعفة فهيهات أن تنجح ، فلذلك يقسم الرجل والمرأة عرضين من أعراض الحب ، فله التحبب والتوسل ، ولها التمنع والتدلل .

وأما أعراض الحب وعلله فدرجات ، أولها الغرام ، وآخرها الهيام ، وبينهما الولوع ، فالتوله ، فاليتم إلى غير ذلك من أسماء الحب ، وكلما اشتد الحب ظهرت له أعراض ، واستحكمت فيه أمراض .

إن الشوق أول أعراض الحب ، فإذا اشتد أصبح مرضاً ، والشوق نتيجة البعد ، ولا يكون البعد جفاء إلاّ إذا كان الحب ضعيفاً ، وأما الحب الشديد فلا بد فيه من الشوق حتّى بالبعد القصير ، بل بالقرب أيضاً ، فالعاشق الولهان يتوق أن يكون إلى جنب معشوقه دائماً ، ولا يطيق صبراً على بعاده ، ففي حالة البعد يذيبه الهوى الشعري شوقاً ، وفي حالة القرب تلهبه الغريزة الجنسية.

ومتّى اشتد العشق تغلبت عواطف العاشق على عقله وإرادته ، فيصبح تحت سلطة الغرام ، وقد يفعل في سبيل الحب ما ينافي مصلحته أو يضربها ، فهو كالثمل الذي يفقد الموازنة العقلية .

وإذا اشتد الحب عميت البصيرة عن الحقائق فلا يعود العاشق يرى في حبيبه إلاّ المحاسن ، بل يرى المساوىء حسنات ، وفي هذه الحالة يصبح الحبيب إرادة العاشق التي تسيره ، حسبما تشاء ، فهو العبد الخاضع ، والحبيب قائد والمحبوب مقود .

ومتّى بلغ الحب أشده ، يتفانى العاشق في استرضاء معشوقه ، فيتفانى إلى حد التهور يحتمل من معشوقه كل أذى ، بل يستلذ الأذى من يده ، فيخوض معامع القتال ويعرض نفسه للأخطار لأجل كسب إعجاب معشوقه .

ومتّى اشتد الحب اشتدت الغيرة في نفس العاشق إلى حد ان يضيق دائرة حرية الحبيب ، فهو يغار من أهل الحبيب ، لا يعود يطيق أن يتقرب من الحبيب أحد ولا أن تبدو من الحبيب نظرة لأحد . والغيرة أعضل أمراض الحب وأصعبها وأبعدها عن الشفاء ، وهي ويل للعاشق والمعشوق.

والغيرة ليست مقتصرة على الشبان ولا يحدها السن ، بل يصاب بها الشيوخ ، فقد نظرت المحاكم كثيراً من القضايا جاء فيها أن شيوخاً في سن الثمانين قتلوا زوجاتهم البالغات من العمر ٧٠ أو ٧٥ سنة بسبب الغيرة .

وأما حوادث قتل النساء بسبب الغيرة في سن الأربعين والخمسة والأربعين فهي كثيرة لا تقع تحت حصر .

وإذا غارت المرأة فإنها تصبح ثرثارة تخطب في كل ناد ، وإذا غار الرجل فإنه يشبه السنانير الكلبة .

والغيرة هي داء الحب ، وان الهيام الحقيقي يظهر في تعلق الحبيب والحبيبة ببعضهما لا بغيرتهما على بعضهما ، والغيرة هي أشد شرور وتعاسة الحب ، وإذا كانت للغيرة غاية فإن جميع وسائلها لا تقرب قلبي الحبيبين ، بل تبعدهما عن غاية الحب الشريفة ، وكلما اشتد مرض الغيرة كلما أسرع في قتل الحبيبين .

قال الدكتور البسيكولوجي شتيكل : من يستطيع إحصاء ضحايا الغيرة ، فكل يوم تزعج مسامعنا حوادث إطلاق الرصاص ، وكل يوم تغمد مدية في جسم حي وكل يوم ينتحر كثيرون من المصابين بمرض الغيرة الوبيل ، والتاريخ مملوء بحوادث القتل والتشتيت التي سببتها الغيرة .

ثم قال : ولكي نفهم الغيرة وماهيتها يجب علينا أن نرجع إلى تاريخ الإنسانية ، وتاريخ نمو الحيوانات ، لأن الحيوانات مصابة بداء الغيرة كما يصاب بها الناس .

إن الكلب لا يستطيع النظر إلى صاحبه إذا رآه يداعب كلباً آخر ، وبعض الكلاب تنبح إذا رأت صاحبها يداعب أولاده ، وما قلناه عن الكلب ينطبق أيضاً على القطط .

وأجمع علماء النفس على وصف الأولاد بحب الذات الشديد ، والطفل ذاتي أيضاً في الحب وغيور جداً ، حتى أن غيرته تبلغ حداً غير معقول ، نجد كثيراً من الصبيان والبنات الصغار يبكون بكاء مراً إذا رأوا أمهاتهم يحملن على أيديهن أخاهم الصغير وأختهم الصغرى .

وإن الغيرة غير محصورة في الحب ، ذلك لأنه ترى نساء كثيرات يغرن من رجال ليس بينهن وبينهم علاقات حب بسبب أن الرجال يحبون امرأة وأوقعوها في شراك حبهم ، وهذا أمر يعرفه أولئك الرجال الذين ينتقلون من حب امرأة إلى أخرى ، والذين مبدأهم (تلذذ فلذات الهوى في التنقل) .

وإن الغيرة موزعة بين الرجال والنساء على السواء ، ولا يغار أو لا تغار إلاّ ذاك الذي لا يثق بنفسه في المحافظة على الحب الطاهر ، وتلك التي لا تثق من نفسها بالإخلاص في الحب فالغيرة وليدة الخيانة في الحب ، ذلك لأن الرجل الذي يخون زوجته يتوهم أن زوجته تخونه ، فتضطرم في فؤاده نار الغيرة ، وكذلك المرأة بدورها أيضاً .

وإن امرأةبغيرتها تستطيع تسميم حياة زوجها ، إذا رأته مثلاً يطيل النظر إلى صديقتها أو تغيب كثيراً عن المنزل ، أو إذا لاطف امرأة أخرى بحضورها .

ويمكن القول : إن الغيرة مرض من الأمراض الاجتماعية ، وهي نتيجة تلك الاسوار المتينة التي قيدت بها الشرائع والعادات حياة الجنسين ، وعند ما يأتي دور الحرية في الحب ، فإن الغيرة تتلاشى تدريجياً ذلك لأن إعطاء الحرية للرجال وللسيدات ليحبوا ما يصادف هوى في القلوب ، يكون مثل هذا الحب امتن من التزوج من رجل لا يهواه قلبها وقس على ذلك [1] .

ووصف Jeanne Ramel الغيرة بأنها شر مستطير وعاطفة حقيرة

---

(١) مجلة الإخاء ٣ : ٨٥١ ، ٨٥٣ .

تربك المجتمع البشري وترهقه بشكل فظيع تنتج عنه أمور وأحوال اجتماعية لا تتمشى مع المجتمع الإنساني السليم (١) .

وأما الهيام فهو حشرجة الموت في الحب ، متى تفاقم الشوق والغيرة ، فقد العاشق صوابه ، وهام كالمجنون ، أو كان مجنوناً بالفعل ، وحينئذ لا ينقذه من هيامه إلا أحد أمرين ، إما الموت ، أو انقلاب الحب إلى بغض بسبب اليأس .

وكل هذه العوامل تورث المرض الجسماني ، فتقل الشهوة للطعام ، ويختل نظام المعيشة ، فيتعرض العاشق لجميع الأحوال التي تخالف القواعد الصحية ، فيشتد أرقه ، وتعظم هواجسه ، وينتحل ، وقد يفضي سقامه إلى الموت .

وقيل في أسباب هذه الأمراض أن معظم علل الحب في المعشوق ، ولا سيما الحبيبة الأنثى ، فأهمها الاحتجاب والامتناع والتغرر والتمتع والدلال والجفاء والتكتم .

فقد يكون الحبيب محجوباً قهراً من قبل ذويه أو شريعة أو بارتباط آخر ، أو لا يحب المعشوق العاشق في حال من الأحوال ، أو تكون للمعشوق مكانة أعلى مقاماً من العاشق ، أو يتعزز المعشوق على عاشقه ليستزيده عشقاً .

وقد يكون المعشوق عاشقاً ولكنه يتدلل أحياناً ، إما الامتحان أو مداعبة للاستزادة ، أو لخصام ، ولا يخفى أن أمراض المحب هذه ، إنما هي خلل في سنن الحب ، فيجدر بالمرء أن يتقيها تفادياً لأضرارها ، فالحب الصالح

---

(١) Jeanne Ramel : Cals : Conseils aux amoureux .

يتنزه عن هذه الأمراض ، والمحب العاقل الرصين لا يقع في مصائبها [١] .

اقوال مختلفة في الرجل والمراة :

وقال هوغو : أول الحب عند الشاب الحياء ، وأوله عند الشابة الجرأة [٢]

وقال أفلاطون : امرأة بلا محبة ميتة [٣] .

وقال دي براز : المرأة الحقيقية تحب الرجل لأجل نفسه ، والرجل الحقيقي يحب المرأة لأجل نفسه .

ثم قال: أنا لا أدخل السماء إذا لم تكن المرأة التي أحببتها على الأرض موجودة فيها [٤] .

وذكر **Pascal** : إن العواطف التي يتجلى بها الرجل غالباً والتي تطغى على غيرها من عواطف ، هما : الحب والطمع ، وإن عمر الرجل ينتهي ولا يعرف لهاتين العاطفتين بداية أو نهاية ، فهما يلدان فيه من السنين الأولى من حياته ويبقيان مصاحبين له حتى يوارى في التراب .

فحياة الإنسان إذن قصيرة وتعيسة ، وان الحياة التي يحياها الرجل ، لما يبتدىء يشعر بالحب وينتهي بالطمع وحب السؤدد والمجد .

وإن الرجل لا ينطوي على ذاته مطلقاً ، بل يرفرف عليه الحب ، وعندها يجب أن يفتش عن أي حب يبتغيه ، فلا يجد الحب إلاّ في الجمال ، فيجب

---

(١) نقولا حداد : فلسفة الحب والزواج .
(٢) المصور سنة ١٩٢٧ م ، ١٤٢ .
(٣) المصور ١٩٢٧ م ، ١٥٠ .
(٤) مجلة الأخلاق ١٩٢٥ م العدد الممتاز .

عندئذ أن يقترب من الجمال الذي يستطيع أن يسير بالإنسان في سبيل الحشمة .

وليس للحب عمر أبداً ، فهو دائماً كائن مولود ، ما دام الرجل لطيفاً في بعض النواحي من روحه ، فهو في حب مستمر .

وتحب النساء أن يشاهدن رقة في الرجال ، وهذه ناحية كثيراً ما تؤدي إلى كسب عواطفهن ومحبتهن .

وإن حباً متيناً يعبر عنه دائماً بفصاحة الأفعال ، ومنها العيون فإنها ذوات حظ عظيم في الدلالة على الحب .

وأول عمل يدل على الحب ، هو أن يشعر المحب باحترام كبير ، ويمتاز الحب الذي فيه صمت وسكوت ،حيث هذا النوع أقوى من لغة الكلام والإفصاح.

وإذا استولى الحب على الرجل فإنه ينسى الثروة والأهل والأصدقاء (١) .
وقال ميشال أنجلو : الموت والمحبة جناحان يصعد بهما الرجل الصالح إلى السماء (٢) .

وقال بيرون: الحب جزء من حياة الرجل لكنه كل حياة المرأة (٣) .

وقال كنت : الكبرياء تقتل الرجل ، ولكن الحب يلاشي المرأة ، لا تلبث دموع المرأة أن تسقط على قلب هاجرها ، فتحفر فيه أخاديد التبكيت .

قال فولتير : الحب نسيج حيواني طرز عليه الخيال نقوشاً جميلة (٤) .

---

(١) **Penseés de Pascal**
(٢) مجلة الأخلاق بنيويورك ٩٦/٩ .
(٣) المصور سنة ١٩٢٧ م ١٤٢ .
(٤) المصور سنة ١٩٢٧ م ١٤٢ .

وقال Adolphe Garnier : إن الفتاة الطاهرة الجاهلة الحياة التناسلية ، تشعر بشيء يجذبها نحو الفتى بشعور تختلف كثيراً عما تشعر به من حب نحو رفيقاتها .

فالطبيعة إذن تدفعها غالباً نحو العلاقة الجنسية ، وهي تجهل ذلك ، حيث الحب لا يرى إلاّ شخصاً واحداً من ذكر أو أنثى [١] .

واهتم علماء النفس بالولايات المتحدة الأميركية لمعرفة هل المرأة الشقراء أكثر تأثراً بعاطفة الحب أم المرأة السمراء ، وقد فاز مارستن الأستاذ بجامعة كولمبية بحل هذا اللغز ، إذ أحضر امرأة شقراء وأخرى سمراء ، وعرض عليهما شريط سينمائي تكثر فيه قبلات الغرام ، وربط بكل منهما جهازاً يدل على مبلغ ضغط الدم ، فوجد ان المرأة السمراء أكثر تأثراً بالحب من المرأة الشقراء [٢] .

قال لابرير : المرأة المترددة هي التي لا تعرف ان كانت تحب أو لا تحب ولا تعرف حبيباً [٣] .

قال دوماس الصغير : لتنقش النساء في أفئدتهم انه ليس جديراً بحبهن إلاّ من عدهن جديرات باحترامه [٤] .

---

(١) Adolphe Garnier : Faculté de l'âme . ç

(٢) المصور سنة ١٩٢٨ م ١٧٧ .

(٣) المصور سنة ١٩٢٧ م ١٥٠

(٤) مجلة الأخلاق ١٩٢٥ م ، العدد الممتاز .

المصادر العربية :

النويري : نهاية الأرب .

لسان الدين ابن الخطيب : التعريف بالحب الشريف .

داود الأنطاكي : تزيين الأسواق .

المسعودي : مروج الذهب .

نقولاحداد : فلسفة الحب والزواج .

عباس محمود العقاد : الفصول .

نقولا حداد : ذكراً وأنثى .

صمول شميلز : الأخلاق ترجمة محمد الصادق حسين .

ترجمة محمد عبد العزيز الصدر : فن الزواج .

ابن أبي حجلة المغربي : ديوان الصبابة .

صلاح الدين الصفدي : شرح لامية العجم .

المصادر الأجنبية :

Jeanne Ramel Cals : Conseils aux amoureux .

Adolphe Garnier : Faculté de l'âme .

Anton Mystrom : La vie sexcelle et ses lois .

Surbled : L'amour malade .

Stendhal : De l'âmour .

Pensées de Pascal .

المجلات العربية :

الإخاء ٢ : ١٤٨ ــ ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦ .

مس نيلي : الإخاء ٣ : ٥٨١ .

الأخلاق ٣ : ٨٥١ ، ١٩٢٥ م . العدد الممتاز ٨ : ٢٨٦ ، ٩ : ٩٦ .
السياسة الأسبوعية السنة ١٩٢٨ م ، العدد ١٠٢ .
المصور السنة ١٩٢٦ ، العدد ٨٩ السنة ١٩٢٧ م ، العدد ١٤٢ ، ١٥٠ ، السنة ١٩٢٨ م ، ١٧٧ .
مارسل بريفو : الهلال السنة ١٩٣٩ م ، ٧٨٦ ، الهلال السنة ١٩٣٩ م ، عدد يوليو ٩٥١ .

الحبُّ في عالمي العرب والإسلام

اسماء الحب وتعاريفها : وضعوا للحب قريباً من ستين إسماً ، وهي : المحبة ، والعلاقة ، والهوى ، والصبوة ، والصبابة ، والشغف ، والمِقة ، والوجد ، والصَلَت ، واليتّم ، والعشق ، والجَوى ، والدَّيف ، والشجو ، والشوق ، والخِلابة ، والبلابل ، والتّباريح ، والسّدَم ، والغَمَرات ، والوَهَل ، والشّجَن ، واللاعج ، والاكتئاب ، والوَصَب ، والحُزْن ، والكَمة ، واللّذْع ، والحُرق ، والسّهُد ، والأرَق ، واللّهف ، والحنين ، والاستكانة ، والتباله ، واللّوعة ، والفُتون ، والجُنون ، واللّم ، والخَبَل ، والرّسيس ، والداء المُخامر ، والود ، والخُلة ، والخِلْم ، والغرام ، والهُيام ، والتّدْلية ، والوَلَه ، والتعبّد . وقد ذكر له أسماء غير هذه وليست من أسمائه ، وإنما هي من موجباته وأحكامه ذكرها ابن قيم الجوزية ، ثم شرح كل لفظة من أسماء الحب التي ذكرت أعلاه [١] .

وأما المحبة فلها معان كثيرة ، وكثيراً ما اشتق لفظها من فعل الحبة واشتق من صفاتها وهي كأنها اسم العلم لأقسام المحبة وهي :

الهوى مشتق من السقوط ، ومعناه ميل القلب ، وسرعة تقلبه لأجل المحبة ، كما يسرع الهواء التغير لشدة صفائه ولطافته .

---

(١) انظر : ابن قيم الجوزية : روضة المحبين .

وأما العشق فقالوا : هو الذي لا يقدر صاحبه على كتمه .

وأما الصبابة فهي من اللغة بمعنى العشق والصب العاشق المشتاق ، وأما العلق والعلاقة ، فهو الحب الملازم للقلب .

وأما الشغف ، فيقال شغف الحب أي بلغ شفاف القلب وجلده .

وأما الهيام فهو أن يذهب على وجهه لغلبة الحب عليه .

وأما الوله إذا ذهب عقله لفقد حبيبه ، فهو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد .

وأما الجوى فهو الهوى الباطني ، والحب المتمكن الذي يقتل صاحبه .

وأما الألفة ، وهو أول مقام من مقامات الحب ، وقد عدت في أسبابه ، وهي الممازجة ويستدعيها الأنس .

وقيل : العشق وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب ، وفي الصحاح : العشق فرط الحب .

وقال ابن سيده : العشق عجب المحبوب بالمحبوب يكون في عفاف الحب ودعارته .

وقيل : العشق الاسم ، والعشق مصدر ، وعشيق كثير العشق ، وامرأة عاشق وشجرة يقال عاشقة تخضر ثم ترق وتصفر . قال الزجاجي : واشتقاق العاشق من ذلك . وقال الفراء : العشق نبت لزج فسمي العشق الذي يكون بالإنسان للزوجة ولصدقه بالقلب . وقال ابن الأعرابي : العاشقة اللبابة تخضر وتصفر وتعلق بالذي يليها من الشجر فاشتق من ذلك العاشق . والعشيق يكون للفاعل والمفعول ، وجمع العاشق عشق وعشاق ، ويقال في المرأة عاشقة وامرأة عاشق أيضاً [١] .

---

(١) أحمد بن أبي حجلة : ديوان الصبابة .

وقيل : إن الشغف من شغفها حباً ، أصاب حبه شغاف قلبها ، والشغاف غلاف القلب ، ويقال : حبة القلب ، وهي علقة سوداء في صميمه وشغفها حباً ارتفع حبه إلى أعلى موضع في قلبها مشتق من شغاف الجبال أي رؤوسها .

قال في الصحاح : شغفه الحب أي أحرق قلبه ، وكذلك اللوعة ، واللاعج أعني مثل الشغف في الإحراق ، فاللاعج اسم فاعل من قولهم لعجه الضرب إذا آلمه وأحرق جلده .

وفي الصحاح للجوهري : لوعة الحب حرقته ، فهذا هو الهوى الباطني وفي الصحاح الجوى الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن ، ثم اليتم وهو أن يستعبده الحب ، ثم التبل وهو أن يسقمه الهوى ، ثم التدله وهو ذهاب العقل من الهوى ، ويقال دلهه الحب أي حيره ، ثم الهيام ، وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه ، ومنه رجل هائم والهيام بالكسر الإبل العطاش . والصبابة رقة الشوق وحرارته والمقة المحبة والوامق المحب ، والوجد الحب الذي يتبعه الحزن . والدنف لا تكاد تستعمله العرب في الحب ، وإنما ولع به المتأخرون ، وإنما استعمله العرب في المرض . والشجو حب يتبعه هم وحزن . والشوق سفر القلب إلى المحبوب . قال في الصحاح : الشوق والاشتياق نزاع النفس إلى الشيء . . . واختلف في الشوق هل يزول سفر القلب إلى المحبوب ، فإذا وصل إليه انتهى السفر ، فألقت عصاها واستقر بها النوى ، قالوا لأن الشوق هو حرقة المحبة والتهاب نارها في قلب الحب ، وذلك مما يزيده القرب والمواصلة ، والصواب ان الشوق الحادث عند اللقاء ، والمواصلة غير النوع الذي كان عند الغيبة عن المحب .

وقيل : البلابل الهم وسواس الصدر ، والبلابل جمع بلبلة ، يقال بلابل الشوق ، وهي وسواسه .

والتباريخ الشدائد والدواهي ، يقال برح به الحب والشوق إذا أصابه

منه البرح وهو الشدة ، والغمرة ما يغمر القلب من حب أو سكر أو غفلة والشجن الحاجة حيث كانت ، وحاجة المحب أشد إلى محبوبه .

والوصب ألم الحب ومرضه ، فإن أصل الوصب المرض ، والكمد الحزن المكتوم والكمد تغيير اللون ، والأرق السهر وهو من لوازم المحبة والحنين الشوق، والجنون أصل مادته الستر والحب المفرط يستر العقل ، فلا يعقل المحب ما ينفعه ولا ما يضره ، فهو شعبة من الجنون ومن الحب ما يكون جنوناً .

والود خالص الحب وألطفه وأرقه ، وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة .

والخلة توحيد المحبة ، فالخليل هو الذي يوحد حبه لمحبوبه ، وهي مرتبة لا تقبل المشاركة ، ولهذا والوله ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد وله أسماء أخر غير هذه (١) .

وقيل : إن الحب أخص من العشق لأنه عن أول نظرة وأقصاه امتزاج الأرواح والرأفة أشد لأنها مبالغة في الرحمة . قال الحراني : هي أرق الرحمة والرحمة أعم لوقوعها على غير ذي صلة بخلاف الرأفة ، ويقرب من الحب الود وخالصه ، فيكون من الحب كالرأفة من الرحمة، وفي المقة والتيتم حالة يملك بها المعشوق العاشق ، فإذا زاد فهو الوله أي الخروج عن الترتيب .

والشجو هو الحزن ، والطرب أيضاً ضده ، ويطلق على القهر والغلبة وهو هنا عشق يقترن بالهم ، والخلة تمام المحبة سواء كانت بلا علة ، وهي الصداقة أو بها ، وهي فرط العشق الذي لا يخالطه غيره ، أخذت من الخلو أو التخلي ، فكان القلب لما تخلى للمحبوب دون غيره ، اتصف بها،والعلاقة

---

(١) أحمد بن أبي حجلة : ديوان الصبابة .

وهي في الصحيح اسم لمبادىء المحبة أخذت من علق بالتحريك أي حب وكسحاب الهوى وبهاء ، ويجوز أن يراد بها شدة اختلاط القلب بالحب ، ويقرب منها الغرام ، وهو أشد لأنه ولع واشتغال بالحب والهوى مطلق الميل والإرادة ، ويطلق على ذهاب العقل في العشق وعلى نفس المحبوبة .

وأما العشق فأعم منها ، وقيل : أخص وهو إعجاب بالحب أو إفراطه فيه وأخذ من العاشقة . . . والغمرة سكر القلب بتذكار الحب واشتغاله به ، والشغف شدته مأخوذ من شغاف القلب أي غلافه . . . وعنه ينتج الوله ثم الهيام .

وأما الاستكانة فالخضوع أو شوق ينزع النفس من البدن إلى لقاء الحب ، ومن ثم قد يقتل عند الرؤية ، والشوق أرفع وهل يزيده الوصل أو ينقصه ، فإن كان لمجرد شهوة نقص بقضائها ، بل ربما عدم ، وإلاّ بان رسوخاً على أنه لا دليل في الثاني على الدعوى لعدم ذكر الشوق في الشعر ، لأنه ذكر استقرار النوى وهو البعد الذي هو أعم ، على أن المحققين أجمعوا على أن الشوق حال الغيبة يغاير الشوق حال الحضور .

وأما الصبوة فلا تطلق حقيقةإلا على الميل والافتنان الواقعين زمن الصبا ، لكن تطلق تجوزاً على مطلق الميل المشابهة والنزوع والاشتياق كالصبابة أو هي رقة وحرارة في الشوق ، والوجد شدتها والكلف الاستغراق والاشتغال والحنين شوق ممزوج برقة وكلف وتذكر يهيج الباعثة والبلبال شدة الشوق والجوى ضيق الصدر وكتم الهوى [١] .

وقيل : الحب اسم مشترك ، يجمع ضروباً من ميل النفس كحب الولد والمال ، ثم الهوى ، ثم المودة ، ثم الصبابة ، ثم العشق ، ثم الوله والهيام والتيتم ، وهو أرفع درجات الحب لأنه التعبد .

---

(١) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفصيل الأشواق .

وسئل بعض الصوفية عن الحب والهوى ، فقال : الهوى يحل في القلب ، والمحبة يحل فيها القلب .

وقيل : العشق لما يفضل من المحبة كما أن السخاء اسم لما جاوز الجود والبخل اسم لما قصر عن الاقتصاد ، والهوج اسم لما أفضل عن الشجاعة .

وقال بعض الفلاسفة: الحب والعشق والهوى من جنس ، لكن العشق اشتهار وتضرع ، والوجد هو الحب الساكن الذي إذا رأى صاحبه شغف به ، وإذا غاب لهج بذكره ، والهوى ما تتبعه النفس غياً كان أم رشداً حسناً كان ، أو قبيحاً ، ولذلك ذمه الله تعالى بقوله « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » [1] .

---

(١) الأصبهاني : محاضرات الأدباء .

الحب : فلسفته وأنواعه

كانت العرب من أكثر الأمم بحثاً للحب وممارسته ، فنظم الشعراء فيه قصائد كثيرة ومنوعة ، وحلله الحكماء والفلاسفة تحليلاً كاد يكون فريداً في نوعه ، ووصفوه وصفاً دقيقاً ، فقال الجاحظ :

العشق داء لا يملك دفعه، كما لا يستطاع دفع عوارض الأدواء إلاّ بالحمية مع ما يولد الأغذية ، ويزيد في الطبائع بالازدياد في الطعم ، ولو أمكن أحداً أن يحتمي من كل ضرر ويقف عن كل غذاء للزم ذلك المتطبب في آفات صحته ونحل جسمه وضوى لحمه ، حتى يؤمر بالتخليط ويشار عليه بالعناية في الطيبات ، ولو ملك أيضاً صرف الأغذية ، واحترس بالحمية لم يملك ضرر تغيير الهواء ولا اختلاف الماء .

وأنا واصف كل العشق لتعرف حده ، هو داء يصيب الروح ، ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، كما ينال الروح الضعف من البطش والوهن في المرء ينهكه ، وداء العشق وعمومه في جميع البدن بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم وصعوبة دوائه يأتي من قبل اختلاف علله ، وانه يتركب من وجوه شتى كالحمى التي تعرض مركبة من البرد والبلغم ، فمن قصد العلاج أحد الخلطين كان ناقصاً من دوائه زائداً في داء الخلط الآخر، وعلى حسب قوة أركانه يكون ثبوته وإبطاؤه في الانحلال ، فالعشق يتركب من الحب والهوى ، والمشاكلة والألف ، وله ابتداء من المصاعدة ووقوف على غاية ، وهبوط في التواليد إلى غاية الانحلال ووقت الحلال .

وقال الجاحظ : والحب اسم واقع على المعنى الذي يرسم به لا يعتبر له غيره لأنه قد يقال المرء يحب الله وإن الله عز وجل يحب المؤمن ، وان الرجل يحب ولده والولد يحب صديقه وبلده وقومه ويحب على أي جهة يريد ولا يسمى ذلك عشقاً ، فنعلم حينئذ أن اسم الحب لا يكتفي به في معنى العشق حتى تضاف إليه العلل الأخرى ، إلاّ أنه ابتداء العشق ، ثم يتبعه الهوى ، فربما وافق الحق والاختيار ، وربما عدل عنهما ، وهذه سبيل الهوى في الأديان والبلدان وسائر الأمور ، ولا يميل صاحبه عن صحته واختياره فيما يهوى ، وكذلك قيل : أديانهم أرباب لأهوائهم ، وذلك أن العاشق كثيراً ما يعشق غير النهاية في الجمال ولا الغاية في الكمال ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة ، ثم إذا سئل عن حجته في ذلك لم تقم له حجة .

ثم قد يجتمع الحب والهوى ، ولا يسميان عشقاً ، فيكون ذلك في الولد والصديق والبلد والصنف من اللباس والفراش والدواب ، فلم يرَ أحد منهم يسقم بدنه ولا يتلف روحه من حب ولده ولا بلده ، وإن كان قد يصيبه عند الفراق لوعة واحتراق وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن قد تلف وطال جهده وضناه بداء العشق .

فعلم انه إذا أضيف إلى الحب والهوى المشاكلة أعني مشاكلة الطبيعة أي حب الرجال النساء وحب النساء الرجال المركب في جميع الفحول والاناث من الحيوان ، صار ذلك عشقاً صحيحاً ، وإن كان ذلك عشقاً من ذكر لذكر فليس إلاّ مشتقاً من هذه الشهوة ، وإلا لم يسم عشقاً إذا فارقت الشهوة .

ثم لم يره ليكون مستحكماً عند أول لقياه حتى يعقد لذلك الالف وتغرسه المواظبة في القلب ، فينبت كما تنبت المحبة في الأرض حتى يستحكم ويشتد ويثمر ، وربما صار لها كالجذع السموق والعمود الصلب الشديد ، وربما انعقف فصار فيه بوار الأصل فإذا اشتمل على هذه العلل صار عشقاً تاماً ،

ثم صارت قلة العيان تزيد فيه وتوقد ناره ، والانقطاع يسعره حتى يدخل العقل وينهك البدن ويشتغل القلب عن كل نافعة ، ويكون خيال المعشوق نصب عين العاشق ، والغالب على فكرته والخاطر في كل حالة على قلبه .

وإذا طال العهد واستمرت الأيام نقص على الفرقة واضمحل على المطاولة ، وإن كانت كلومه وندوبه لا تكاد تعفو آثارها ولا تدرس رسومها ، فكذلك الظفر بالمعشوق يسرع في حل عشقه .

والعلة في ذلك أن بعض الناس أسرع إلى العشق من بعض لاختلاف طبائع القلوب في الرقة والقسوة وسرعة الألف وإبطائه وقوة الشهوة وضعفها ، فما يظهر المعشوق عشقه الا عداه بدائه ونكت في صدره وشغف فؤاده .

وذلك من المشاكلة وإجابة بعض الطبائع بعضاً ، وتوقان بعض الأنفس إلى بعض وتقارب الأرواح . . . وقلما يكون عشق بين اثنين يستويان فيه إلاّ عن مناسبة بينهما في الشبه في الخلقْ والخُلق ، وفي الظرف أو الهوى أو الطبائع ، ولذلك ما ترى الحسن يعشق القبيح والقبيح يعشق الحسن ، ويختار المختار الأقبح على الأحسن ، وليس يرى الاختيار في غير ذلك ، فيتوهم الغلط عليه ، لكنه لتعارف الأرواح وازدواج القلوب [1] .

وقال ابن سينا : إن الخير بذاته معشوق ولولا ذلك لما نصب كل واحد مما يشتهي أو يتوق ، أو يعمل عملاً غرضاً أمامه يتصور خير بيته، فلولا أن الخيرية بذاتها معشوقة لما اقتصرت الهمم على إيثار الخير في جميع التصرفات ولذلك الخير عاشق للخير ، لأن العشق ليس في الحقيقة إلا استحسان الحسن والملائم جداً . ثم كل واحد من الموجودات يستحسن فلا يلائمه وينزع إليه مفقوداً ، والخير الخاص الميل للشيء والحقيقة والحسبان فيما أظن هو الملائم

(١) الجاحظ : القيان .

بالحقيقة ثم الاستحسان والنزاع والاستقباح أو النفرة في الموجود من علائق خيرة . . . فبين أن الخير يعشق بما هو خير إما الخاص به أو المشترك ، وكل العشق هو ما قد نيل أو ما سينال منه أي من جملة المعشوق ، وكلما زادت الخيرية زاد استحقاق المعشوقية وزادت العاشقية للخير . . . فتبين أن الهوايات لا تخلو عن العشق ، وذلك ما أردنا أن نبين .

وأن كل واحد من هذه الهوايات البسيطة غير الحسية قرين عشق غريزي لا يخلو عنه البتة وهو سبب له في وجوده إلى ثلاثة أقسام : أحدها قوة التغذية ، والثاني قوة التنمية ، والثالث قوة التوليد كذلك العشق الخاص بالقوة النباتية على أقسام ثلاثة : أحدها يختص بالقوى المغدية ، وهو مبدأ شوقه إلى حضور الغذاء عند حاجة المادة إليه وبقائه في المغتذى بعد استحالته إلى طبيعته ، والثاني يختص بالقوة المنمية ، وهو مبدأ شوقه إلى تحصيل زيادة المناسبة في أخطار المغتذى ، والثالث يختص بالقوة المولدة ، وهو مبدأ أشوقه إلى تهيئة مبدأ كائن مثل الذي هو فيه ، ومن البين ان هذه القوى مهما وجدت لزمتها هذه الطبائع العشقية فإذن هي في طبائعها عاشقة أيضاً .

لا شك أن كل واحد من القوى والنفوس الحيوانية يختص بتصرف يحثها عليه عشق غريزي ، وإلاّ لما كان وجود ها في البدن الحيواني إلاّ معدومة في جملة المعطلات ان لم يكن لها نفور طبيعي مبدأه بغضة غريزية وشوق طبيعي مبدأه عشق غريزي ، وذلك ظاهر في كل واحد من أقسامها . . . إلى أن قال : واما في الجزء الشهواني فلتقدم أمامه مقدمة ينتفع بها بذاته وفيها عليه القول في الفصول ، وهو ان العشق يتشعب قسمين : أحدهما طبيعي وحامله لا ينتهي بذاته دون غرضه بحال من الأحوال ما لم يصادمه دونه قاسر خارجي .. والثاني عشق اختياري وحامله قد يعرض بذاته عن معشوقه ليتخيل استضرار بعارض أمامه يزنُ . قدر يعرض على اورناس .

نفع المعشوق مثل الحمار ، فإنه إذا لاح له شخص الذئب متوجهاً نحوه

أقصر عن قضم الشعير وأمعن في هرب لوفائه ان ما يتصل به من ضرر العارض أرجح من منفعة المعرض عنه ، ثم قد يكون معشوق واحد لعاشقين أحدهما طبيعي ، والثاني اختياري .

وعشق الصورة الحسنة قد تتبعه أمور ثلاثة : أحدها حب معانقتها ، والثاني حب تقبيلها ، والثالث حب مباضعتها ، فأما حب المباضعة ، فمما يتعين عنده أن هذا العشق ليس إلاّ خاصاً بالنفس الحيوانية ، وان حصتها فيه زائدة ، وانها على مقام الشريك بل المستخدم لا على مقام الآلة ، وذلك قبيح جداً ، بل لن يخلص العشق النطقي ما لم تقمع القوة الحيوانية غاية الانقماع ، ولذلك بالحري أن يتهم العاشق إذا راود معشوقه بهذه الحاجة ، اللهم إلاّ أن تكون هذه الحاجة منه بضرب نطفي أعني انه قصد به توليد المثل ، وذلك في الذكر محال ، وفي الأنثى المحرمة بالشرع قبيح ، بل لا ينساغ ولا يستحسن إلاّ لرجل في امرأته أو في مملوكته .

وأما المعانقة والتقبيل ، فإذا كان الغرض فيهما هو التقارب والاتحاد وذلك لأن النفس تود أن تنال معشوقها بحسها اللمسي ونيلها له بحسها البصري ، فتستأنف إلى معانقته وتنزع إلى أن يختلط نسيم مبدأ فاعلية نفسانية ، وهو القلب بنسيم مثلها في المعشوق فتشتاق إلى تقبيله بمنكرين في ذاتها لكن استتباعها بالعرض أموراً شهوانية فاحشة توجب التوقي عنها إلاّ إذا يتقن من متوليهما خمود الشهوة والبراءة عن التهمة ، ولذلك لم يستنكر تقبيل الأولاد وان كان مبدأه مزعجاً ، فمن عشق هذا الضرب من العشق فهو فتى ظريف وهذا العشق تظرف ومروّة .

ثم ذكر عشق النفوس الإلهية ، فقال : كل واحد من الأشياء الحقيقية الوجود إذا أدرك أو نال نيلاً من الخيرات فإنه يعشقه بطباعه عشق النفوس الحيوانية للصور الجميلة ، وأيضاً كل واحد من الأشياء الحقيقية الوجود إذا

أدرك إدراكاً حسياً أو عقلياً ، واهتدى اهتداء طبيعياً إلى شيء مما يفيده في وجوده فإنه يعشقه في طباعه . . . مثل عشق الحيوان للغذاء والولدين للوالد . . . وقد كان اتضح ان من أدرك خيراً فإنه بطباعه يعشقه ، فقد اتضح ان العلة الأولى معشوقة للنفوس المتألهة . . . وإن الخير المطلق معشوق لها أعني بجملة النفوس المتألهة،وهذا العشق فيما غيره ذا فزائل البتة،وذلك لأنها لا تخلو من حالتي الكمال والاستعداد، وقد أوضحنا ضرورة وجود هذا العشق فيها حالة كمالها ، وأما حالة استعدادها فلن توجد إلاّ في النفوس البشرية دون الملائكة لغو الملائكية بالكمال .

وختم ابن سينا بحثه في العشق فقال : إن كل واحد من الموجودات يعشق الخير المطلق عشقاً غريزياً ، وأن الخير المطلق يتجلى لعاشقه ، إلاّ أن قبولها لتجليه واتصالها به على التفاوت . . . [١] .

وفي رسائل إخوان الصفا : إن من الحكماء من قد ذكر العشق وذمه ، وذكر مساوىء أهله وقبح أسبابه ، وزعم انه رذيلة، ومنهم من قال : إن العشق فضيلة نفسانية ومدحه وذكر محاسن أهله وزين أسبابه ، ومنهم من لم يقف على أسراره وعلله وأسبابه بحقائقها ودقة معانيها ، فزعم أنه مرض نفساني ، ومنهم من قال انه جنون إلهي ، ومنهم من زعم انه همة نفس فارغة ، ومنهم مَنْ زعم انه فعل البطالين الفارغي الهمم الذين لا شغل لهم ولعمري ان العشق يترك النفس فارغة منجميع الهم إلاّ هم المعشوق وكثرة الذكر له والفكرة في أمره وهيجان الفؤاد والوله به وبأسبابه ، ولكن ليس ذلك من فعل البطالين الفراغ كما زعم منْ لا خبرة له بالأمور الخفية والأسرار اللطيفة ، ولا يعرف من الأمور إلاّ ما تجلى للحواس وظهر للمشاعر وأما الذي يدرك منها بصفاء الذهن وجودة التمييز وكثرة الفكر وشدة البحث ودقة

---

(١) ابن سينا : رسالة في العشق .

النظر فهم عنها بمعزل ، وذلك أن الذين زعموا أن العشق هو مرض نفساني ، أو قالوا انه جنون إلهي ، فإنما قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا ما يعرض للعشاق من سهر الليل ونحول الجسم ونحور العيون وتواتر النبض والأنفاس الصعداء مثل ما يعرض للمرضى فظنوا انه مرض نفساني ، وأما الذين زعموا أنه جنون إلهي فإنما قالوه من أجل انهم لم يجدوا لهم دواء يعالجونهم به ولا شربة يسقونها إياهم فيبرؤن مما هم فيه من المحنة والبلوى إلاّ الدعاء لله بالصدقة والقرابين في الهياكل ورقى الكهنة وما شاكل ذلك .

ومن الحكماء من زعم أن العشق هو إفراط المحبة وشدة الميل إلى نوع من الموجودات دون سائر الأنواع وإلى شخص دون سائر الأشخاص أو إلى شيء دون سائر الأشياء بكثرة الذكر له وشدة الاهتمام به أكثر مما ينبغي فإن كان العشق هو ذا فليس إذاً أحد من الناس يخلو منه إذ قلّما يوجد أحد إلاّ وهو يحب ويميل إلى شيء دون سائر الأشياء أكثر مما ينبغي .

وكثير من الحكماء والأطباء يسمون هذه الحال ماليخولية . وقد أكثرت الأطباء القيل والقال في هذه العلة وأعياهم علاجها ، وقد ذكرت في كتب أحكام المواليد علل ذلك تركنا ذكرها مخافة التطويل لانا نريد أن نتكلم في العشق المعروف عند جمهور الناس ، وذلك أنهم لا يسمون العشق إلاّ ما كان من هذه الحال نحو شخص من أبناء الجنس ذكراً كان أو أنثى .

ومن الحكماء من قال : إن العشق هو هوى غالب في النفس نحو طبع مشاكل في الجسد ، أو نحو صورة مماثلة في الجنس ، ومنهم من قال : ان العشق هو شدة الشوق إلى الاتحاد ولهذا أي حال يكون عليها العاشق يتمنى حالاً أخرى أقرب منها .

وإن العلل كائنة في طباع النفوس والأسباب خارجة منها كما نبين . . .

واعلم يا أخي بأن النفوس المتجسدة كما كانت ثلاثة أنواع ، فمنها النفس النباتية الشهوانية ، وعشقها يكون نحو المأكولات والمشروبات والمنكح ، ومنها النفس الغضبيه الحيوانية ، وعشقها يكون نحو القهر والغلبة وحب الرياسة ومنها النفس الناطقة وعشقها يكون نحو المعارف واكتساب الفضائل . . . وانه ليس أحد من الناس يخلو من نوع من هذه الأنواع الثلاثة التي ذكرناها ، أو يكون آخذاً بنصيب من كل واحد منها قل أو كثر والعلة في ذلك انه لما كان من شأن النفوس أن تتبع أمزجة الأبدان في إظهار أفعالها وأخلاقها ومعارفها وبخاصة ما كان منها أغلب في المزاج وأقوى في أصل التركيب كما بينا في رسالة الأخلاق ورسالة مسقط النطفة . . .

وإن كثيراً من الناس يظنون أن العشق لا يكون إلاّ للأشياء الحسنة فحسب ، وليس الأمر كما ظنوا فإنه قد قيل ربما مستحسن ما ليس بالحسن ، ولكن العلة في ذلك هي الاتفاقات التي بين العاشق والمعشوق ، وهي كثيرة لا يحصي عددها إلاّ الله .

وذلك أن الاتفاقات بحسب المناسبات التي بين أجزاء المركبات ، فمن تلك المناسبات ما هي بين كل حاسة ومحسوساتها ، وذلك ان القوة الباصرة لا تشتاق إلاّ إلى الألوان والأشكال ، ولا تستحسن منها إلاّ ما كان على النسبة الأفضل ، وهكذا القوة السامعة لا تشتاق إلاّ إلى الأصوات والنغم ، ولا يستلذ منها إلاّ ما كان على النسبة الأفضل .

وعلى هذا القياس سائر الحواس كل واحدة منها لا تشتاق إلاّ إلى محسوساتها ولا تتحسس ولا تتلذذ إلاّ ما كان منها على النسبة الأفضل بينهما في الاتفاق ، ولما كانت تراكيب أمزجة الحواس والمحسوسات كثيرة الفنون وكثيرة التغيير غير ثابتة على حالة واحدة صارت القوى الحساسة في إحساسها لمحسوساتها مفننة متغيرة ، وذلك انك تجد واحداً من الناس أو من الحيوان

يستلذ مأكولاً أو مشروباً أو مسموعاً أو مشموماً، والآخر لا يستلذه، بل ربما كان يكرهه ويتألم منه ، كل ذلك بحسب اختلاف التراكيب وفنون الأمزجة وما يعرض لها وما تحدث بينهمامن المناسبات والمنافرات وشرحها طويل .

واعلم أن الأطفال والصبيان إذا استغنوا عن تربية الآباء والأمهات فهم بعد محتاجون إلى تعليم الأساتذة لهم العلوم والصنائع ليبلغوا بهم إلى التمام والكمال ، من أجل هذا يوجد في الرجال البالغين رغبة في الصبيان ومحبة الغلمان ليكون ذلك داعياً لهم تأديبهم وتهذيبهم وتكميلهم للبلوغ إلى الغايات المقصودة بهم ، وهذا موجود في جبلة أكثر الأمم التي لها تعلم العلم والصنائع والأدب والرياضيات مثل أهل فارس وأهل العراق وأهل الشام والروم وغيرها من الأمم .

وأما الأمم التي لا تتعاطى العلوم والصنائع والأدب مثل الأكراد والأعراب والزنج والترك ، فإنه ما يوجد فيهم ولا في طباعهم الرغبة في نكاح الغلمان وعشق المردان .

وأما محبة الرجال للنساء ومحبة النساء للرجال وعشقهما ، فإن ذلك في طباع أكثر الحيوانات التي لها سفاء ، وإنما جعلت تلك في طبائعها لكيما يدعوها إلى الاجتماع والسفاء ليكون منها النتاج ، والغرض منها بقاء النسل وحفظ الصورة .

ومن أنواع المحبوبات محبة الحيوان الازدواج والنكاح والسفاح لما فيه من بقاء النسل ، ومنها محبة الأمهات والآباء للأولاد وتحننهم على الصغار وتربيتهم وإشفاقهم عليهم كأنها مجبولة في طباعهم مركوزة في نفوسهم لشدة حاجة الصغار إلى الكبار ، ومنها محبة الرؤساء إلى الرياسات وحرصهم على طلبها ومراعاتهم لمرؤوسيهم وحفظهم لهم وإشفاقهم عليهم ومحبتهم للمدح

والثناء والشكر كأنها مجبولة في طباعهم مركوزة في نفوسهم ، ومنها محبة الصناع في إظهار صنائعهم وحرصهم على تتميمها وشهوتهم لتخليصها وتركيبها كأنه شيء مجبول في طباعهم مركوز في نفوسهم لشدة حاجتهم إليها .

ومنها محبة التجار لتجاراتهم ورغبة الراغبين في الدنيا ، وحرصهم على الجمع والإدخار لها وحفظها ، ومنها محبة العلماء والحكماء لاستخراج العلوم ووصف الآداب وتعليم الرياضيات والبحث . ومنها محبة البر والإحسان ، وما يقال فيهما من المدح والثناء كأنه شيء مجبول في طباع البشر مركوز في نفوسهم لما فيه من الحث على مكارم الأخلاق . ومنها محبة ابناء الجنس وما يسمى العشق وما تصف العشاق من أحوالهم وأحوال معشوقهم ، وما يجدون في نفوسهم من الأفكار ، والهموم والأحزان والفرح والسرور . . .

وقالوا لو لم يكن العشق موجوداً في الخليقة لخفيت تلك الفضائل كلها ، ولم تظهر ولم تعرف تلك الرذائل أيضاً ، فقد بان وتبين أنّا ذكرنا أن المحبة والعشق فضيلة ظهرت في الخليقة وحكمة جليلة وخصلة نفيسة عجيبة ذلك من فضل الله على خلقه .

وإن محبوبات النفوس ومعشوقاتها مفننة ، وهي بحسب مراتبها في العلوم والمعارف واكتساب الفضائل ، ولا النفس الملكية لمليق بها محبة العلوم والمعارف واكتساب الفضائل ، ولا النفس الملكية يليق بها محبه الأجساد والارتقاء إلى ملكوت السماء والسيحان في سعة فضاء الأفلاك والتنسم من ذلك الروح والريحان . . . وانك لا تجد ولا ترى نفسها تحب وتعشق وتشتاق إلاّ لأبناء جنسها وماشاكلها من المحبوبات والمعشوقات، مثال ذلك أنفس الصبيان والناقصين من الناس فإنهم لا يحبون ولا يعشقون إلاّ اللعب والتماثيل المصورة والزينة المشاكلة لمرتبة نفوسهم فإذا عقلوا وتعلموا أو ارتاضوا ارتفعت هممهم وشغلت نفوسهم بغيرها مما هو أشد تحقيقاً مما كانوا فيه

وهو الصورة والأشكال من المحاسن والزينة الموجودة في الأشكال والأجساد اللحمية من الحيوان والناس وهي المحبوبة المرغوبة منها المشتهاة المعشوقة عند أكثر الناس من البالغين العقلاء ، فإذا ارتاحت نفوسهم في العلوم الإلهية والمعارف الربانية ، ارتفعت نفوسهم أيضاً عن هذه الصورة والتماثيل المزوقة الموجودة في اللحم والدم إلى ما هي أشرف منها وأفضل ، وهي الصورة للنفوس ذوات الحس والبهاء والكمال والجمال التي تراها النفوس الناطقة الناجية في عالم الأرواح .

وانه مقرر في طباع الموجودات وجبلة النفوس محبة البقاء والدوام السرمد على أتم الحالات وأكمل الغايات وأتم حالات النفس الشهوانية بأن تكون موجودة أبداً تتناول شهواتها وتتمتع بلذاتها التي هي مادة وجود أشخاصها من غير عائق ولا تنغيص ، وهكذا من أتم حالات النفس الحيوانية ، ان تكون موجودة أبداً رئيسية على غيرها قاهرة لمن سواها منتقمة لمن يؤذيها من غير عائق ولا تنغيص ، وهكذا من أتم حالات النفس الناطقة ان تكون موجودة أبداً مدركة لحقائق الأشياء مصورة لها ملتذة بها مسرورة فرحانة بلا عائق ولا تنغيص وإنما صارت النفوس الناطقة تلتذ بالعلوم والمعارف ، لأن صورة المعلومات في ذاتها هي المتممة لها المكملة لفضائلها المبلغة لها أي أتم غاياتها وأفضل نهاياتها عند باريها .

وان كل محب لشيء من الأشياء مشتاق إليه هائم به وانه متى وصل إليه، وقال ما يهواه منه وبلغ حاجته من الاستمتاع به والتلذذ بقربه فإنه ولا بد يوماً من أن يفارقه أو يمله أو يتغير عليه وتذهب تلك الحلاوة وتتلاشى تلك البشاشة ويخمد لهب ذلك الاشتياق والهيجان إلاّ المحبين لله . . .

وإن الغرض الأقصى من وجود العشق في جبلة النفوس ومحنها الاجساد واستحسانها لها ولزينة الأبدان واشتياقها إلى المعشوقات المفننة ، كل ذلك

إنما هو تنبيه لها من نوم الغفلة ورقدةالجهالة ورياضة لها وتعريج لها وترقية من الأمور الجسمانية المحسوسة إلى الأمور النفسانية المعقولة ومن الرتبة الجرمانية إلى المحاسن الروحانية ودلالة على معرفة جوهرها وشرف عنصرها ومحاسن عالمها وصلاح معادها . . .

وأن المعشوق والمحبوب بالحقيقة إنما هي تلك الرسوم والصور التي كان يراها على ذلك الشخص وهو اليوم يراها منقوشة في نفسه مرسومة في جوهره مصورة في ذاته باقية لم تتغير فإذا فكر العاقل اللبيب فيها وصفن انتبهت نفسه من نوم غفلتها واستيقظت من رقدة جمالتها واشتغلت بذاتها وفازت بجوهرها واستغنت عن غيرها وكان حالها .

وان من ابتلي بعشق شخص من الأشخاص ومرت به تلك المحن والأهوال وعرضت تلك الأحوال ثم لم تنتبه نفسه من نوم غفلتها فيتسلى ويفيق أو نسي وابتلي من بعد بعشق ثان لشخص آخر فإن نفسه نفس غريقة في عمائها سكرى في جهالتها .

وقالت الحكماء إن الله هو المعشوق الأول ، والفلك إنما يدور شوقاً إليه ومحبة للبقاء [1] .

وكان يحيى بن خالد ذا بحث ونظر ، له مجلس يجتمع فيه أهل الكلام ، فتحدثوا في العشق ، فقال يحيى بن هيثم : أيها الوزير العشق ثمر المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين ، وهو من بحر اللطافة ورقة الضيف وصفاء الجوهر والزيادة فيه نقصان من الجسد .

وقال أبو مالك وهو خارجي المذهب : أيها الوزير العشق نفث السحر ،

---

(١) رسالة اخوان الصفا : المجلد الثالث .

وهو أخفى وأحرق من الجمر ، ولا يكون إلاّ بازدواج الطبيعي وامتزاج الشكلين ، وله نفوذ في القلب كنفوذ صيب المزن في خلل الرمل تنقاد له العقول وتشتكي له الآراء .

وقال أبو الهذيل وهو مغربي: أيها الوزير العشق يختم على النواظر ويطبع على الأفئدة ، مرتقى في الأجساد ومسرعة في الأكباد وصاحبه منصرف الظنون متغير الأوهام لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع إليه النوائب، وهو جرعة من نقيع الموت وبقية من حياض الشكل،غير انه من أريحية تكون في الطبع وطلاوة توجد في الشمائل وصاحبه جواد لا يصفو إلى داعية المنع ولا يسنح به نازع العذل .

وقال النظام إبراهيم بن يسار المعتزلي : العشق أرق من الشراب وأدب من الشباب ، وهو من طينة عطرة عجنت في أناء الحلي حلو المجتنى ما اقتصد فإذا أفرط عاد أصلاً قاتلاً وفساداً معضلاً لا يطمع في إصلاحه له سحابة غزيرة على القلوب فتشعبت شغفاً ونثرت كلفاً، وصريعه دائم اللوعة ضيق المتنفس مشارف الزمن طويل الفكر إذا جنه الليل أرق ، وإذا وضحه النهار قلق صومه البلوى وإفطاره الشكوى ، ثم قال : الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومَنْ يليهم حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعان من تتقارب وتتناسب وفيهما مر دليل عليه (١) .

وقال لسان الدين بن الخطيب : الإدراك ثلاث مراتب : الإدراك الحسي وهو أخذ الصورة بحاسة البصر مثلاً دون تشكيل في الخيال هو أضعف الإدراكات وأبعدها عن اللذة الحقيقية والاتصال الكلي ، والمطلوب الأشرد إذ هو باق بقاء الذات ، فالحواس الخمس لا تدرك الجمال،والأمور الروحانية

---

(١) المسعودي : مروج الذهب .

إلاّ بعد أخذها من المظاهر الحسية سمعاً وبصراً وشماً وذوقاً ولمساً ،والإدراكات العقلية تدرك الحس الموجود في غير المحسوسات ... فمن كانت حواسه أغلب مدركاته أو لم يكن له مدرك غير الحواس لم يدرك الإجمال الظاهر ، ومن كان الإدراك العقلي عليه أغلب كان أغلب مدركاته الأمور الروحانية .

وما كان منها روحانية كمحبة المواهب الروحانية من العلوم والصنايع العلمية والمواهب العقلية . . ومحبة متناسبة وهو محبة تقع لمناسب بين المحب والمحبوب بها حصل الائتلاف وبعدها حصل الاختلاف .

واختلف الناس هل المحبة جنس واحد لشمل محبة المحدث للمحدث ومحبة القديم للمحدث ومحبة المحدث للقديم. وسبب الاختلاف ملاحظة علل المحبات إذ محبة المحدث تقررت عللها وبواعثها من نوادر وجمال ومناسبة وممازجة وكلها لا تخلو من ميل أكيد وانجذاب من الطبع وجنوح إلى نيل كمال وإحراز لذة .

ومن المعلوم المتقرر أن النفس إنما تحب الملايم على الجملة وهو معنى الخير وتكره المنافر وهو معنى الشر ، ولا خير كالوجود ولا شر كالعدم . . . فالنفس إنما تحب وجودها بالذات . وجميع ما انصرف إليه حبها من مال أو ولد أو صحة أو مفيد مال أو جاه وعلم أو صديق ، إنما هو حبها لذاتها خاصة . . . فنقول : المحبوب الأول عند كل شيء نفسه التي بها أحب ومن أجلها أحب ومعنى حبه لنفسه إيثار الوجود على العدم وهي سر كراهة الموت وحب الحياة ، وعلى كل حال فبقاء الوجود محبوب وكمال الوجود محبوب . . . فإذا المحبوب الأول لكل حي نفسه ثم سلامة أعضائه ، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاءه . والمال محبوب لأنه سبب من دوام الوجود وكماله من المطاعم والملابس والتزيد في الأفضل من الأحوال واستقامة العيش بحسب الإرادة والولد للانتفاع في أسباب المعاش .

وحب الأصدقاء والأقارب وغيرهم . حب الكمال فإنه يرى نفسه لهم

كبيراً وحب المحسن لأجل إحسانه . . . وحب كل شيء مندرج في حب نفسه ، ونفس المحب والمحبوب ، وأما حب المناسبة وهو حب أي لمن يناسبه فراجع إلى مناسبة جلية ومناسبةخفية ،فالجلي كحب العالم للعالم والجاهل للجاهل والصانع للصانع . . . ويرجع إلى حب الشيء نفسه ، فإنما أحب شيمة الحبيب إليه وهو نفسه لتجليه إياها .

ومنه حب الجمال الظاهر على صفحات الأشياء فلم يوجب الاستحسان إلاّ مناسبة الجمال المتعجب للجمال المتعجب منه خاصة ، فإذا أقسام الحب راجعة في الأسنان إلى وجود نفسه وكماله وبقائه ، وحب من أحسن إليه ، بل لكونه فطنة الإحسان إليه وتعلق أمله به وهو يرجع لما قبله .

وحبه لمن كان حسناً جميلاً في ذاته سواء كان من الصور والباطنة كالمعاني والصفات أو من الصور الظاهرة كأشخاص الإنسان والحيوان (١) .

وقال ابن مسكويه : للمحبة أنواع وأسبابها تكون بعدد أنواعها فأحد أنواعها ما ينعقد سريعاً وينحل سريعاً ، والثاني ما ينعقد سريعاً وينحل بطيئاً ، والثالث ما ينعقد بطيئاً وينحل سريعاً ، والرابع ما ينعقد بطيئاً وينحل بطيئاً .

وإنما انقسمت إلى هذه الأنواع فقط لأن مقاصد الناس في مطالبهم وسيرهم ثلاثة ويتركب ، بينها رابع وهي اللذة والخير والمنافع والمتركب منها .

وإذا كانت هذه غايات الناس في مقاصدهم ، فلا محالة انها أسباب المحبة من عاون عليها وصار سبباً للوصول إليها فقد أفلح . فأما المحبة التي يكون سببها اللذة فهي التي تنعقد سريعاً وتنحل سريعاً،وذلك أن اللذة سريعة التغير ،

---

(١) لسان الدين بن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف .

وأما المحبة التي سببها الخير فهي التي تنعقد سريعاً وتنحل بطيئاً ، أما المحبة التي سببها المنافع فهي التي تنعقد بطيئاً وتنحل سريعاً ، وأما التي تتركب من هذه إذا كان فيها الخير فإنها تنحل بطيئاً وتنعقد بطيئاً .

وهذه المحبات كلها تحدث بين الناس خاصة لأنها تكون باردة وروية ، وتكون فيها مجازاة ومكافأة ، فأما التي تكون فيها بين الحيوانات غير الناطقة ، فالأحرى بها أن تسمى إلفاً وتقع بين الأشكال منها خاصة .

وأما التي لا نفوس لها من الأحجار وأمثالها فليس يوجد فيها إلاّ الميل الطبيعي إلى مراكزها التي تخصها ، وقد يوجد أيضاً بينها منافرة ومشاكلة بحسب أمزجتها الحادثة فيها من عناصرها الأولى ، وهذه الأمزجة كثيرة . وإذا وقع منها شيء يتناسب نسبة تأليفية أو عددية أو مساحية حدثت بينها ضروب من الشاكلة ، وإذ كان أضداد هذه النسب حدثت بينها منافرة وتحدث لها أشياء تسمى خواص ، وهي أفعال بديعة . وهي التي تسمى أسرار الطبائع ، ولا سيما في النسب التأليفية ، فإنها أشرف النسب بعد نسبة المساواة ولها أضداد أعني هذه النسب ، وهي متينة مشروحة في صناعة ، الارتماقيطي في صناعة التأليف .

وأما الأمزجة التي يحسب هذه النسب فهي خفية عنا وعسرة المرام ، وقد ادعى قوم الوصول إليها ، وليت تكوين هذه الأفعال والخواص التي تحدث بين الأمزجة من النسب المذكورة موجودة في العناصر أنفسها ، والكلام فيها خارج عن غرضنا ، وإنما ذكرناها هنا لأنها تشبه المشاكلات والمنافرات التي بين الحيوان في الظاهر ، والنسبة التي تحدث بين الناس بالإرادة ، وهي التي تتكلم فيها ويقع مكافأة ومجازاة .

والصداقة نوع من المحبة إلاّ أنها أخص منها ، وهي المودة بينهما ، وليس يمكن أن تقع بين جماعة كثيرين كما تقع المحبة .

وأما العشق فهو إفراط في المحبة وهو أخص من المودة ، وذلك انه لا يمكن أن يقع إلاّ بين اثنين فقط ، ولا يقع في النافع ولا في المركب من النافع وغيره ، وإنما يقع لمحب اللذة بإفراط ، ولمحب الخير بإفراط وأحدهما مذموم والآخر محمود .

فالصداقة بين الأحداث ، ومن كان في مثل طباعهم إنما تحدث لأجل اللذة ، فهم يتصادقون سريعاً ويتقاطعون سريعاً ، وربما اتفق ذلك بينهم في الزمان القليل مرات كثيرة وربما بقيت بقدر ثقتهم ببقاء اللذة ومعاودتها حالاً بعد حال ، فإذا انقطعت هذه الثقة بمعاودتها انقطعت الصداقة بالوقت وفي الحال .

والصداقة من المشائخ ، ومَنْ كان في مثل طباعهم ، إنما تقع لمكان المنفعة ، فهم يتصادقون بسببها ، فإذا كانت المنافع مشتركة بينهم ، وهي في الأكثر طويلة المدة ، كانت الصداقة باقية ، فحين تنقطع علاقة المنفعة بينهم ، وينقطع رجاؤهم في المنفعة المشتركة ، تنقطع موداتهم .

والصداقة بين الأخيار تكون لأجل الخير ، وسببها هو الخير ، ولما كان الخير شيئاً غير متغير الذات ، صارت مودات أصحابه باقية غير متغيرة .

ولما كان الإنسان مركباً من طبائع متضادة ، صار ميل كل واحد منها يخالف ميل الآخر ، فاللذة التي توافق أحدها تخالف لذة الأخرى التي تضادها ، فلا تخلص له لذة غير مشوبة بأذى .

ولما كان فيه أيضاً جوهر آخر بسيط إلهي غير مخالط لشيء من الطبائع الأخرى ، صارت له لذة غير مشابهة لشيء من تلك اللذات ، وذلك انها بسيطة أيضاً .

والمحبة التي سببها هذه اللذة هي التي تفرط حتى تصير عشقاً تاماً خالصاً شبيهاً بالوله ، وهي المحبة الإلهية الموصوفة التي يدعيها بعض المتألهين .

فإذا الجوهر الإلهي الذي في الإنسان، صفا من كدورته التي حصلت فيه من ملابسة الطبيعة ، ولم تجذبه أنواع الشهوات وأصناف محبات الكرامات اشتاق إلى شبيهه ، ورأى بعين عقله الخير الأول المحض الذي لا تشوبه مادة فأسرع إليه وحينئذ يفيض نور ذلك الخير الأول عليه ، فيلتذ به لذة لا تشبهها لذة ، ويصير إلى معنى الاتحاد الذي وصفناه استعمل الطبيعة بالكلية أحق بهذه المرتبة ، لأنه ليس يصفو الصفاء التام إلاّ بعد مفارقته الحياة الدنيوية .

ومن فضائل هذه المحبة الإلهية انها لا تقبل النقصان ولا تقدح فيها السعادة، ولا يعترض عليها الملك . ولا تكون إلاّ بين الأخيار فقط .

وأما المحبات التي تكون بسبب المنفعة واللذة فقد تكون بين الأشرار وبين الأخيار والأشرار ، إلاّ أنها تنقضي وتنحل مع تقضي المنافع واللذائذ ، لأنها عرضية ، وكثيراً ماتحدث بالاجتماعات في المواضع الغريبة ، إلاّ أنها تزول بزوال المواضع كالسفينة وما جرى مجراها . والسبب في هذه المحبة الأنس ، وذلك ان الإنسان آنس بالطبع وليس بوحشي ولا نفور ، ومنه اشتق اسم الإنسان في اللغة العربية ، وقد تبين ذلك في صناعة النحو ، وليس كما قال الشاعر : سميت إنساناً لأنك ناس .

فإن هذا الشاعر ظن أن الإنسان مشتق من النسيان ، وهو غلط منه ، وينبغي أن يعلم أن هذا الأنس الطبيعي في الإنسان هو الذي ينبغي أن نحرص عليه ونكتسبه مع أبناء جنسنا حتى لا يفوتنا بجهدنا واستطاعتنا ، فإنه مبدأ المحبات كلها .

وأجناس المحبات وأسبابها . فكلهـــا ما خلا المحبة الإلهية إذا كانت

مشتّركة بين المتحابين ، وكانت واحدة بعينها جاز في الشيئين أن ينعقدا معاً وينحلاّ معاً ، وجاز أيضاً أن يبقى أحدهما وينحل الآخر ، مثال ذلك أن اللذات المشتّركة بين الرجل والمرأة هي سبب للمحبة بينهما ، فقد يجوز أن تجتمع المحبات لأن السبب واحد وهي اللذة ، وقد يجوز أن تنقطع إحداهما وتبقى الأخرى ، وذلك أن اللذة تتغير ولا تكاد تثبت كما تقدم وصفها ، فقد يجوز أن يتغير سبب إحدى المحبتين ويثبت الآخر ، وأيضاً فإن بين الرجل وبين زوجته خيرات مشتّركة ومنافع مختلطة ، وهما يتعاونان عليها أعني الخيرات الخارجة عنها ، وهي الأسباب التي تعمر بها المنازل .

فالمرأة تنتظر من زوجها تلك الخيرات لأنه هو الذي يكتسبها ويحضرها . وأما الرجل فإنه ينتظر من زوجته ضبط تلك الخيرات لأنها هي التي تحفظها وتدبرها لتثمر ولا تضيع ، فمتى قصر أحدهما اختلفت المحبة ، وحدثت الشكايات ولا تزال كذلك إلى أن تنقطع أو تبقى مع الشكايات والملامة ، وكذلك حال المنفعة المشتّركة بين الناس إذا كانت واحدة بعينها .

وأما المحبات المختلفة التي أسبابها مختلفة فهي أولى بسرعة التحلل ، ومثال ذلك أن تكون محبة أحد المتحابين لأجل المنفعة ومحبة الآخر لأجل اللذة كما يعرض ذلك للمعاشرين على أن أحدهما مغن والآخر مستمع ، فإن المغني منهما يحب المستمع لأجل المنفعة ، والمستمع يحب المغني لأجل اللذة .

وكما يعرض أيضاً بين العاشق والمعشوق اللذين أحدهما يلتذ بالنظر والآخر ينتظر المنفعة ، وهذا الصنف من المحبة يعرض فيه أبداً التشكي والتظلم ، وذلك ان طالب اللذة يتعجل مطلوبه وطالب المنفعة يتأخر عنه ولا يكاد يعتدل الأمر بينها ، لذلك ترى العاشق يشكو معشوقه ويتظلم منه وهو بالحقيقة ظالم ينبغي أن يُشكى لأنه يتعجل لذته بالنظر ولا يرى المكافأة بما يستحق صاحبه .

والمحبة اللوامة كثيرة الأنواع إلاّ أن الأصل فيها ما ذكرت ، وتوشك أن تكون المحبة بين الرئيس والمرؤوس والغني والفقير تعرض لها الملامة والتوبيخ لأجل اختلاف الأسباب ، ولأن كل واحد ينتظر من المكافأة عند الآخر ما لا يجده عنده ، فيقع فساد في النيات بينهما ثم استبطاء ثم ملامات ، ويزيل ذلك طلب العدالة ورضا كل واحد بما يستحقه من الآخر وبذل كل واحد للآخر العدل المبسوط بينهما .

وأما محبة الأخيار بعضهم بعضاً ، فإنها تكون لا للذة خارجة ولا لمنفعة بل للمناسبة الجوهرية بينهما ، وهي قصد الخير والتماس الفضيلة ، فإذا أحب أحدهم الآخر لهذه المناسبة لم تكن بينهم مخالفة ولا منازعة ، ونصح بعضهم بعضاً وتلاقوا بالعدالة والتساوي في إرادة الخير .

وهذا التساوي في النصيحة وإرادة الخير هو الذي يوحد كثرتهم ، ولهذا حد الصديق بأنه آخر هو أنت إلاّ أنه غيرك بالشخص ولهذا صار عزيز الوجود ولم يوثق بصداقة الأحداث والعوام ومن ليس بحكيم لأن هؤلاء يحبون ويصادقون لأجل اللذة والمنفعة ولا يعرفون الخير بالحقيقة وأغراضهم غير صحيحة .

وأما السلاطين فإنهم يظهرون الصداقة على أنهم متفضلون ومحسنون إلى من يصادقهم فلا يدخلون تحت الحد الذي ذكرناه ، وفي صداقتهم زيادة ونقصان والمساواة عزيزة الوجود عندهم .

وكذلك محبة الوالد للولد والولد للوالد ، فإن أنواع هذه المحبة مختلفة وأسبابها أيضاً مختلفة . كما قلنا . الا أن محبة الوالد للولد والولد للوالد وإن كان بينهما اختلاف ما من وجه ، فإن بينهما اتفاقاً ذاتياً ، وأعني بالذاتي ههنا أن الوالد يرى في ولده انه هو هو وانه نسخ صورته التي تخصه من الإنسانية في شخص ولده نسخاً طبيعياً ، ونقل ذاته إلى ذاته نقلاً حقيقياً .

ولذلك يحب الوالد لولده جميع ما يحبه لنفسه ، ويسعى في تأديبه وتكميله بكل ما فاته في نفسه طول عمره ، ولا يشق عليه أن يقال له ولدك أفضل منك لأنه يرى أنه هو هو .

ثم تفضل أيضاً محبة الوالد على محبة الولد بأنه الفاعل له وبأنه يعرفه منذ أول تكوينه ويستبشر به وهو جنين ، ثم تزداد محبته له مع التربية والنشأة ويتأكد سروره به وتأهيله له ، ويحدث له اليقين بأنه باق به صورة وإن فني بجسمه مادة . . .

وأما محبة الولد للوالد فإنها تنقص عن هذه المرتبة بأن الولد مفعول وبأنه لا يعرف ذاته ولا فاعل ذاته إلاّ بعد زمان طويل ، وبعد أن يستثبت أباه حساً وينتفع به دهراً ، ثم يعقل بعد ذلك أمره بالصحة وعلى مقدار عقله واستبصاره في الأمور ، يكون تعظيمه لوالديه ومحبته لهما ، ولهذه العلة اوصى الله الولد بوالده ولم يوص الوالد بولده ، وأما محبة الأخوة بعضهم لبعض فلأن سبب تكوينهم ونشوئهم واحد بعينه .

وأما المحبة التي لا تشوبها الانفعالات ولا تطرأ عليها الآفات ، وهي محبة العبد لخالقه ، فإنها إنما تخلص للعالم الرباني وحده خاصة ولا سبيل لغيره إليها إلاّ بالدعوى الكاذبة ، وكيف يجد الإنسان السبيل إلى محبة من لا يعرفه ولا يعرف وجوه إحسانه المتصلة به في بدنه ونفسه اللهم إلاّ أن يتصور في نفسه حتماً ويظنه الخالق فيحبه ويعبده .

ولعمري إن العامة تدعي المعرفة والمحبة وهم يتصورون شخصاً وشبحاً ، فتكون عبادتهم له دون الله وهو الضلال البعيد .

وهذه المحبة لا محالة تتصل بها الطاعة والتعظيم ويتلوها ويقرب منها محبة

الوالدين وإكرامهما وطاعتهما ، وليس يرتقي إلى مرتبتهما شيء من المحبات الأخر إلاّ محبة الحكماء عند تلامذتهم ، فإنها متوسطة بين المحبة الأولى والمحبة الثانية .

وإن محبة المحسن أشد من محبة المحسن إليه فشهوته للإحسان أشد وأزيد من شهوة المحسن إليه [1] .

وقيل : الحب أوله الهوى ، ثم العلاقة ، ثم الكَلَف ، ثم الوَجد ، ثم العشق ، وهو مقرون بالشهوة ، والحب والمقت في الله تعالى ، والعشق اسم لما فضل عن المقدار الذي هو الحب ، ثم الشغف ، وهو إحراق القلب بالحب مع اللذة يجدها ، وكذلك اللوعة واللاعج والغرام ، ثم الجوى وهو الهوى المتباطن والتيم والسل والهيام وهو شبه الجنون ، والعشق عند الأطباء من جملة أنواع الماليخوليا [2] .

وقال أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور : وصف الهوى قوم وقالوا انه فضيلة وانه ينتج الحيلة ويشجع قلب الجبان ويسخي قلب البخيل ويصفي ذهن الغبي ويطلق بالشعر لسان المفحم ويبعث حزم العاجز الضعيف وانه عزيز ، تذل له عزة الملوك وتضرع فيه صولة الشجاع وتنقاد له طاعة كل ممتنع ويذلل كل مستصعب ويبرز كل محجة وهو داعية الأدب [3] .

وذكر أعرابي الهوى فقال : هو أعظم ملكاً في القلب من الروح في الجسم ، وأملك بالنفس من النفس يظهر ويبطن ويكشف ويلطف [4] .

---

(١) مسكويه: تهذيب الأخلاق .
(٢) صلاح بن أيبك الصفدي : شرح لامية العجم (مخطوط) .
(٣) القيرواني : زهر الآداب .
(٤) الحصري : زهر الآداب .

وقال اليماني بن عمر مولى ذي الرياستين : كان يبعث بأحداث من أهله إلى شيخ بخراسان ، ويقول : تعلموا منه الحكمة ، فكنا نأتيه وإذا انصرفنا من عنده اعترضنا ذو الرياستين عما أفادنا فنخبره ، فسرنا إلى الشيخ يوماً فقال لنا : أنتم أدباء وقد سمعتم الحكمة وفيكم أحداث ولكم نعيم فهل فيكم عاشق ؟ قلنا : لا . قال اعشقوا فإن العشق يطلق الغبي ويفتح جبلة البله ويسخي كف البخيل ويبعث على النظافة وحسن الهيئة ويدعو الى الحركة والذكاء وشرف الهمة وإياكم والحرام .

وذكر أعرابي الهوى فقال : هو أعظم ملكاً في القلب من الروح في الجسم واملك بالنفس من النفس يظهر ويبطن ويكشف ويلطف [١] .

وقيل لعبد الله بن المقفع : ما بال العاقل المميز الذهن واللبيب الفطن يتعرض للحب ، وقد رأى منه مواضع الهلكة ومصارع التلف ، وعلم ما يؤول إليه عُقباه وترجع به أخراه على أولاه ؟ فقال زخرف ظاهر العشق بجمال زينته يستدعي القلوب إلى ملابسته ، وحلى عاجل حلاوته يطلب النفوس إلى ملابسته كظاهر زخرف الدنيا ، وبهاء ، ونقهاء ، ولذيذ جني ثمرها ، وقد ذكرت أبصار قلوب أبنائها بالنظر إلى قبيح عيوب أفعالها في بلائها ، منغمسون في هلكة فتنتها متورطون مع علمهم بسوء عواقب خطبها وتجرع مرارة شربها وسرعة استرجاعها ما وهب وإخراجها ما ملكت ، فليس ينجو منها إلا من خبرها ولا يهلك فيها إلاّ من أمنها ، وكذلك صورة الهوى هي الفتنة سواء [٢] .

وقال ابن حزم : الحب أعزك الله أوله هزل وآخره جد دقت معانيه لجلالته عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلاّ بالمعاناة ، وليس بمنكر في

---

(١) الحصري : زهر الآداب .

(٢) الحصري : زهر الآداب .

الديانة ولا بمحظور في الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل ، وقد أحب من الخلفاء ، المهديين والأئمة الراشدين كثير .

وقد اختلف الناس في ماهية الحب وقالوا وأطالوا ، والذي أذهب إليه انه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع . . . وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات التي هو الاتصال والانفصال والشكل وأيا يستدعى شكله والمثل إلى مثله ساكن وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد والتنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد والنزاع فيها تشابه موجود فيما بيننا ، فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافي الخفيف ... ولو كانت علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب أن لا يستحسن إلاّ نقصان الصورة، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ، ويعلم فضل غيره ولا يجيد محيداً لقلبه عنه ، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه فعلمنا أنه شيء في ذات النفس وربما كانت المحبة بسبب من الأسباب ، وتلك تغني بغناء سببها فمن ودك لأمر ولى مع انقضائه .

وإن المحبة ضروب فأصلها محبة المتحابين في الله إما الاجتهاد في العمل وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذاهب ، وإما لفضل علم ، يمنحه الإنسان ومحبة القرابة ومحبة الإلفة والاشتراك في المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة ومحبة لبر يضعها المرء عند أخيه ومحبة لطمع في جاه المحبوب ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ومحبة لبلوغ اللذة وقضاء الوطر ومحبة العشق التي لا علة لها إلاّ ما ذكرنا من اتصال النفوس ، وكل هذه الأجناس فمنقضية مع انقضاء عللها وزائدة بزيادتها وناقصة بنقصانها متأكدة بدنوها فاترة ببعدها ، حاشا محبة العشق الصحيح الممكن من النفس فهي التي لا فناء لها إلاّ بالموت .

وإنك لتجد الإنسان السامي بزعمه وذا السن المتناهية، إذا ذكرته تذكر

وارتاح وصبا واعتاده الطرب واهتاج له الحنين ، وإن العشق استحسانٌ روحاني وامتزاج نفساني ، فإن قال قائل لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية ، إذ الجزءان مشتركان في الاتصال وحظهما واحد ، فالجواب عن ذلك أن نقول : إن نفس الذي لا يحب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الأعراض السائرة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية فلم تحس بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها ، حيث هي ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة . ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة طالبة له قاصدة إليه باحثة عنه مشتهية لملاقاته جاذبة له لو أمكنها . . . ولهذا ما اغتم بقراط حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه ، فقيل له في ذلك فقال : ما أحبني إلاّ وقد وافقته في بعض أخلاقه .

وهذا بعينه موجود في البغضة ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى ولا علة ويتثقل بعضهما بعضاً بلا سبب ، والحب داء عياء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ومقام مستلذ وعلة مشتهاة لا يجد سليمها البرء ولا يتمنى عليلها الافاقة يزيد للمرء ما كان يأنف منه ويسهل عليه ما كان يصعب عنده حتى يميل الطبائع المركبة والحيلة المخلوقة .

وللحب علامات يقفوها الفطن ويهتدي إليها الذكي ، فأولها إدمان النظر والعين باب النفس الشارع وهي المنقبة على سرائرها والمعبرة لضمائرها والمعربة عن بواطنها ، فترى الناظر لا يطرف يتنقل بتنقل المحبوب وينزوي بانزوائه ويميل حيث مال . . .

ومنها الإقبال بالحديث بما يكاد يقبل على سوى محبوبه ، ولو تعمد ذلك وإن التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه ، والإنصات لحديثه إذا حدث واستغراب كل ما يأتي به ، ولو انه عين المحال وخرق العادات وتصديقه وإن كذب وموافقته وان ظلم ، والشهادة له وان جار واتباعه كيف سلك وأي وجه من وجوه القول تناول .

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه والدنو منه واطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته والتباطؤ في الشيء عن القيام عنه .

ومنها بهت يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية مَنْ يحب فجأة ، وطلوعه بغتة ، ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ، كأنه هو الموهوب له والمسعى في حظه كل ذلك يبدي محاسنه ويرغب في نفسه ، فكم بخيل جاد وقطوب تطلق وجبان شجع وغليظ الطبع تطرب وجاهل تأدب ، وفقر تجمل وذي سنى تفتن وناسك فتك ومصون تمسك .

وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجيج حريقه وتوقد شعله واستطارة لهبه ، فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه ، فحينئذ نرى الحديث سراراً والاعراض عن كل ما حضر إلا عن المحبوب جهاراً .

ومن علاماته وشواهده لكل ذي بصر الانبساط الكثير الزائد والتضايق في المكان الواسع والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما وكثرة الفخر الخفي والميل بالاتكاء وتعمد لمس اليد عند المحادثة ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء ، وتحري المكان الذي قابل فيه .

ومنها علامات متضادة وهي على قدر الدواعي والعوارض الباعثة والأسباب المحركة والخواطر المهيجة والأضداد انداد والأشياء إذا أفرطت في غايات تضادها ووقفت في انتهاء حدود اختلافها . . .

ومن علامات الحب انك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته ، حتّى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته ، والبكاء من علامات الحب ولكن يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع هامل الشؤون .

ويعرض في الحب سوء الظن واتهام كل كلمة من أحدهما وتوجيهها إلى غير وجهها ، وهذا أصل العتاب بين المحبين ، وترى المحب إذا لم يثق ببقاء طوية محبوبه ، له كثير من التحفظ مما لم يكن يتحفظ قبل ذلك . ومن آياته : مراعاة المحب لمحبوبه وحفظه لكل ما يقع منه وبحثه عن أخباره حتى لا يسقط عنه دقيقة ولا جليلة وتتبعه لحركاته .

ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة ، وهذا أمر يترقى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة ، والهم والوجد والسهر على غير الأبصار ، فإن للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيراً في النفس ظاهراً وان تسمع نغمتها من وراء جدار فيكون سبباً للحب واشتغال البال ، وهذا كله قد وقع لغير واحد . . .

وذلك ان الذي أفرغ ذهنه في هوى من لم ير لا بد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها وعيناً يقيمها نصب ضميره لا يتمثل في هاجسه غيرها قد مال بوهمه نحوها فإن وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية ، وكلا الوجهين قد عرض وعرف وأكثر ما يقع هذا في ربات القصور المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، وحب النساء في هذا أثبت من حب الرجال لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن وتمكنه منهن .

وكثيراً ما يكون لصدق الحب بالقلب من نظرة واحدة ، وهو ينقسم قسمين فالقسم الواحد مخالف للذي قبل هذا ، وهو أن يعشق المرء صورة لا يعلم من هي ولا يدري لها اسماً ولا مستقراً ، وقد عرض هذا لغير واحد ، كما وقع ليوسف بن هارون الشاعر بقرطبة مع جارية أخذت بمجامع قلبه . . . وقد ذكر ابن حزم هذه القصة في كتابه طوق الحمامة .

والقسم الثاني هو أن يعلق المرء من نظرة واحدة جارية معروفة الاسم

والمكان والمنشأ، ولكن التفاضل يقع في هذا في سرعة الفناء وإبطائه، فمن أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر ومخبر بسرعة السلو وشاهد الظرافة والملك ، وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نمواً أسرعها فناء وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاذاً .

ومنهم مَن لا يحب إلاّ مع المطاولة ولا تصح محبته إلاّ بعد طول المخافتة ، وكثير المشاهدة وهذا الذي يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مر الليالي ، فما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً ، وهذا مذهبي (أي مذهب ابن حزم) ، واني لأطيل العجب من كل من يدعي انه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون في ظني متمكناً من صميم الفؤاد ، نافذاً في حجاب القلب فما أقدر أنك وما لصق بأحشائي حب قط إلاّ مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهراً وأخذي معه في كل جد وهزل . . . . وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدي واستطراف البصر الذي لا يجاوز الإيوان وهذا مر الشهوة ومعناها على الحقيقة فإذا فضلت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق اتصال نفساني تشترك فيه الطبائع مع النفس يسمى عشقاً .

ومن هذا دخل الغلط على من يزعم انه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين ، فإنما هذا من جهة الشهود ، وهي على الحجاز تسمى محبة لا على التحقيق ، وأما نفس المحب فما في الميل به فصل يصرفه من أسباب دينه ودنياه ، فكيف بالاشتغال بحب ثانٍ .

ولا بد لكل مطلوب من مدخل إليه يتوصل به نحوه، وذلك إما بإنشاء شعر أو بإرسال مثل وتعمية بيت أو طرح لغز . . . على قدر إدراكهم ، ثم يتلو التعريض بالقول إذا وقع القبول والموافقة الإشارة بلحظ العين . . . ثم يتلو ذلك إذا اقترحا المراسلة بالكتب .

ويقع في الحب بعد هذا ، بعد حلول الثقة وتمام الاستئناس إدخال السفير ويجب تخيره . . . ومن بعض صفات الحب الكتمان باللسان وجحود المحب إن سئل والتصنع بإظهار الصبر . . . وقد يمكن التمويه في أول الأمر على غير ذي الحس اللطيف ، وإما بعد استحكامه فمحال ، وربما يكون السبب في الكتمان تعاور المحب عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنه يزعمه من صفات أهل البطالة فيفر منه ويتفادى منه .

وقد تعرض في الحب الإذاعة وهو من منكر ما يحدث من أعراضه ، ولها أسباب منها : ان يريد صاحب هذا الفعل أن يتزيَّ بزي المحبين ، ويدخل في عدادهم ، وهي دعوى في الحب زائفة . وربما كان من أسباب الكشف غلبة الحب وتسود الجهر على الحياء ، فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عدلاً ، وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحكمه على العقل حتّى يمثل الحسن في تمثال القبيح في هيئة الحسن .

ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه وصرفه طباعه قسراً إلى طباع من يحبه ربما يكون المرء شرس الخلق صعب الشكيمة جموح القياد ماضي العزيمة . . . فما هو إلاّ أن يتنسم نسيم الحب ويتورط غمره ويعوم في بحره ، عادت الشراسة ليناً والصعوبة سهلة والمضاء استسلاماً .

وربما أشبع المحب شهوته وركب رأسه فبلغ شقاءه من محبوبه وتعمد مسرته على كل الوجوه سخط أو رضي ... وأتيحت له الأقدار، استوفى لذته جميعها .

وللحب آفات ، فأولها العاذل والعذال أقسام ... ومن آفات الحب الرقيب وانه لحمى باطنه وبرسام ملح وفكر مكب . والرقباء أقسام فأولهم مثقل بالجلوس غير متعمد في مكان ، ورقيب يدمن الجلوس ويطيل القعود ، ثم رقيب على المحبوب .

ومن آفات الحب : الواشي وهو على ضربين وأشر يريد القطع بين المتحابين فقط ، وان هذا لأفترهما سوأة على أنه السم الزعاف . . . وربما لم ينسج ترقيشه أي زخرفته . والثاني واش يسعى للقطع بين المحبين ينفرد بالمحبوب ويستأثر به ، وهذا أشد شيء وأقطعه واستفادة جهده . ومن الوشاة جنسها ثالث وهو واش يسعى بهما جميعاً ويكشف سرهما وهذا لا يلتفت إليه إذا كان المحب مساعداً .

ومن وجوه العشق الوصل وهو خط رفيع . . . ومن لذيذ معاني الوصل المواعيد ، وان للوعد المنتظر مكاناً لطيفاً من شفاف القلب ، وهو ينقسم قسمين أحدهما الوعد بزيارة المحب لمحبوبه . . . والثاني انتظار الوعد عن المحب أن يزور محبوبه . . .

ومن آفات الحب أيضاً الهجر ، وهو على ضروب فأولها هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر وانه لاحلى من كل وصل . . . ثم هجر يوجبه التذلل وهو ألذ من كثير الوصال ، ولذلك لا يكون إلاّ عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه ، ثم هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب ، وهذا فيه بعض الشدة ، لكن فرحة الرجعة وسرور المرضى يعدل ما مضى . . . والتجني بعض عوارض الهجران ، وهو يقع في أول الحب وآخره فهو في أوله علامة لصحة المحبة وفي آخره علامة لفتورها ، وباب للسلو . . . ثم هجر يوجبه الوشاة ، ثم هجر المعل ، والمعل من الأخلاق المطبوعة في الإنسان ، وأخرى لمن دُهي به لا يصفو له صديق ولا يصح له إخاء . . . ومن الهجر ضرب يكون متوليه المحب ، وذلك عندما يرى من جفاء محبوبه ، والميل عنه إلى غيره أو الثقيل يلازمه . . . ثم هجر القلى . . .

ومن حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الأخلاق في الحب وغيره ، الوفاء ، وأول مراتب الوفاء أن يفي الإنسان لمن يفي له ، وهذا فرض لازم

وحق واجب على المحب والمحبوب لا يحول عنه إلاّ خبيث المحتد لا خلاق له . . . ثم مرتبة ثانية وهو الوفاء لمن غدر وهي للمحب دون المحبوب وليس للمحبوب ها هنا طريق، ولا يلزمه ذلك وهي خطة لا يطيقها إلاّ جلد قوي ، واسع الصدر ، حر النفس ، عظيم الحلم ، جليل الصبر ، حصيف العقل . . . وغاية الوفاء في هذه الحال ترك مكافأة الأذى بمثله والكف عن سيء المعارضة بالفعل ، والقول والتأني في جر حبل الصحبة ما أمكن . . . وللوفاء شروط على المحبين لازمة ، فأولها أن يحفظ عهد محبوبه ويرعى غيبته ويستوي علانيته وسريرته . . .

ولكثرة وجود الغدر في المحبوب استغرب الوفاء منه ، فصار قليله الواقع منهم ، يقاوم الكثير الموجود في سواهم . ومن قبيح الغدر أن يكون للمحب سفير إلى محبوبه يستريح إليه بأسراره ، فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ويستأثر به دونه .

ولا بد لكل مجتمع من افتراق ولكل دان من تنازع ، وتلك عادة الله في العباد . . . والبين ينقسم أقساماً : فأولها مدة يوقن بانصرافها ، وبالعودة عن قريب وانه يشجي في القلب وغصة في الحلق لا تبرأ إلاّ بالرجعة ثم بين منع من اللقاء وتحظير على المحبوب من أن يراه محبه ، وان هذا ليولد من الحزن والاسف غير قليل ، ثم بين يتعمده المحب بعداً عن قول الوشاة وخوفاً أن يكون بقاؤه سبباً إلى منع اللقاء وذريعة إلى فشو الكلام فيقع الحجاب الغليظ ثم بين يولده المحب لبعض ما يدعوه إلى ذلك من آفات الزمان وعذره مقبول أو مطرح على قدر الحافز له إلى الرحيل ، ثم بين رحيل وتباعد ديار ، ولا يكون من الأوبة فيه على يقين خبر ، ولا يحدث تلاق وهو الخطب الموجع وأكثر ما يكون الهلع فيه إذا كان النائي هو المحبوب ، ثم بين الموت وهو الفوت ، وهو الذي لا يرجى له إياب وهو المصيبة .

واختلف الناس في أي الأمرين أشد البين أم الهجر ، وكلاهما مرتقى

صعب وموت أحمر ، فأما ذو النفس الأبية الألوف فلا شيء يعدل عنده مصيبة البين ، لأنه أتى قصداً وتعمدته النوائب عمداً فلا يجد شيء يعدل عنده مصيبة البين ، وأما الهجر فهو داعية السلو ورائد الإقلاع ، وأما ذو النفس التواقة الكثيرة النزوع والتطلع القلوق العزوف . فالهجر داؤه وجالب حتفه والبين له مسلاة ومنساة ، وما الهجر إلاّ جالب للكمد فقط ويوشك إن دام أن يحدث إيغاراً ، والبين أبكى الشعراء على المعاهد فأدروا على الرسوم الدموع ، وسقوا الديار ماء الشوق ، فناجوا وبكوا .

ولا بد للمحب إذا حرم الوصل من القنوع بما يجد وان في ذلك لتعللاً للنفس وشغلاً للرجاء ، وهو مراتب على قدر الإصابة والتمكن ، فأولها الزيارة ، وهي على وجهين أحدهما أن يزور المحب المحبوب ، وهذا وجه واسع ، والوجه الثاني أن يزور المحبوب محبه ، ولكن لا سبيل إلى غير النظر والحديث الظاهر ،ومن القنوع أن يسر الإنسان ويرضى ببعض آلات محبوبه وان له من النفس لموقعاً حسناً ، ومن القنوع الرضى بمزار الطيف وتسليم الخيال – وهذا إنما يحدث عن ذكر لا يفارق وعهد لا يحول وفكر لا ينقضي فإذا نامت العيون وهدأت الحركات سرى الطيف، ومن القنوع أن يقنع المحب بالنظر إلى الجدران ورواية الحيطان التي تحتوي على من يحب .

ولا بد لكل محب صادق المودة ممنوع الوصل إما بين أو هجر ، وإما بكتمان واقع لمعنى من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والنحول ، وربما أضجعه ذلك ، وهذا الأمر كثير جداً موجود أبداً ، والاعراض الواقعة من المحبة غير العلل الواقعة من هجمات العلل ويميزها الطبيب الحاذق والمتفرس الناقد .

وعاقبة كل حب إلى أحد أمرين إما احترام فيه وإما سلو حادث ، وقد نجد النفس تغلب عليها بعض القوى المصرفة معها في الجسد فكما نجد نفساً ترفض الراحات والملاذ للعقل في طاعة الله وللرياء في الدنيا تشتهر بالزهد ،

فكذلك نجد نفساً تنصرف عن الرغبة في لقاء شكلها للأنفة المستحكمة المنافرة للغدر أو استمرار سوء المكافأة في الضمير ، وهذا أصلح السلو وما كان من غير هذين الشيئين فليس الا ّ مذموماً .

والسلو المتولد عن الهجر وطوله إنما هو كاليأس يدخل على النفس من بلوغها إلى أملها فيفتر نزاعها ولا يقوي رغبتها والسلو في التجربة الجميلة ينقسم قسمين : سلو طبيعي وهو المسمى بالنسيان يخلو به القلب ويفرغ به البال ، ويكون الإنسان كأنه لم يحب قط . وهذا القسم وهو المسمى بالتبصر فترى المرء يظهر التجلد ، وفي قلبه أشد لدغاً من وخز الإشفى ، ولكنه يرى بعض الشر أهون من بعض أو يحاسب نفسه بحجة لا تصرف ولا تكسر ، وهذا قسم لا يذم آتيه ولا يلام فاعله ، لأنه لا يحدث إلاّ لسبب لا يصبر على مثله الأحرار ، والأسباب الموجبة للسلو المنقسم هذين القسمين كثيرة وعلى حسبها وبمقدار الواقع منها يعذر السالي ويذم ، فمنها الملل ومن كان سلوه عن ملل فليس حبه حقيقة ، وإنما هو طالب لذة ، ومنها الاستبدال وصاحبه أحق بالذم ، ومنها حياء مركب يكون في المحب يحول بينه وبين التعريض بما يجد فيتطاول الأمر في الإلفة والآلاف ، ويحدث السلو ، ومنها صفاء يكون من المحبوب فإذا أفرط فيه وأسرف وصادف من المحب نفساً لها بعض الأنفة والعزة تسلى ، وإذا كان الجفاء يسيراً منقطعاً أو دائماً أو كبيراً منقطعاً احتمل وأغضى عليه حتى إذا كثر ودام فلا بقاء عليه ولا يلام الناس لمن يحب في مثل هذا ،ومنها الغدر وهو الذي لا يحتمله أحد ولا يلام السالي عنه على أي وجه كافياً أو متبصراً بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه ، ثم سبب آخر وهو لا من المحب ولا من المحبوب ، ولكنه من الله وهو اليأس ، وفروعه ثلاثة : إما موت وإما بين لا يرجى معه أوبة ، وإما عارض يدخل على المتحابين بعلة المحب التي من أجلها وفق المحبوب فيغيرها ، وكل هــذه الوجوه من أسباب السلو والتبصر وعلى المحب الناسي .

ثم ختم ابن حزم بحثه بقوله : ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف وترك ركوب المعصية والفاحشة ، وأن لا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة ، وان لا يعصي مولاه المتفضل عليه الذي جعله مكاناً وأهلاً لأمره ونهيه [1] .

وسئل بعض الفلاسفة عن العشق ، فقال : جنون إلهي لا محمود ولا مذموم .

وسئل عنه آخر ، فقال : حركة النفس الفارغة

وقال الشاعر :

هل الحب إلاّ زفرة بعد زفرة   وحر على الأحشاء ليس له برد
وفيض دموع العين يا من كلما   بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

وقال بعض الصوفية : الهوى محنة امتحن الله خلقَه ، يستدل به على طاعة خالقهم ورازقهم . وقيل لبعضهم: ما العشق ؟ فقال: ارتياح في الخلقة ، وفرح يجول في الروح وسرور ينساب في أجزاء القوى ، وقال العيني : سألت أعرابياً عن الهوى ، فقال : هو أظهر من أن يخفى . وأخفى من أن يرى كامناً كمون النار في الحجر ، إن قدحته أورى وإن تركته توارى . وسئل يحيى بن معاذ عن حقيقته ؟ فقال : الذي لا يزيده البر ولا ينقصه الجفاء .

وقال بعضهم : الهوى أنواع أوله العلاقة ،وهو الشيء الذي يحدثه النظر والسمع ، فيخطر بالبال ، ثم ينمو فيقوى فيصير محبة ، والحب اسم مشترك يجمع ضروباً من ميل النفس كحب الولد والمال ، ثم الهوى ، ثم المودة ، ثم الصبابة ، ثم العشق ، ثم الوله والهيام والتتيم وهو أرفع درجات الحب لأنه التعبد .

---

(١) ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة .

قال الشاعر :

ثلاثـــة أحباب فحب علاقة وحب تملاق وحب هو القتل

وسئل بعض الصوفية عن الحب والهوى ، فقال الهوى يحل في القلب والمحبة يحل فيها القلب . وقيل : العشق لما يفضل من المحبة ، كما أن السخاء اسم لما جاوز الجود؛ والبخل اسم لما اقتصر عن الاقتصاد،والهوج اسم لما فضل عن الشجاعة .

وقال بعض الفلاسفة : الحب والعشق والهوى من جنس لكن العشق اشتهاء وتضرع والوجد هو الحب الساكن الذي إذا رأى صاحبه شغف به وإذا غاب لهج بذكره والهوى ما تتبعه النفس غياً كان أم رشداً ، حسناً كان أو قبيحاً ، ولذلك ذمه الله تعالى بقوله : (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

وزعم بعض المتفلسفين : أن الصداقة على ثلاثة أنواع ، إما لاتفاق الأرواح ، فيكون لاتفاق الشمس والقمر في المولدين في برج واحد ، فلا يجد أحدهما بدأً من حب صاحبه ، وإما لمنفعة تحصل ، فتولد ذلك ، ولهذا قال النبي (ص) : جبلت القلوب على حب مَن أحسن إليها وبغض مَن أساء إليها ، والإلفة تجمع مواد الحرص إليها ولهذا قال المتنبي :

ومـــا العشق إلاّ غـــرة وطماعة يعرض قلب نفسه فتصاب العمد الحرى
وما العشق إلاّ النار توقد في الحشا وتذكي إن انضمت عليه الحوائج

وقال أعرابي : ما أشد جولة الرأي عند الهوى وفطام النفس عند الصبا ، ولقد تصدعت كبدي للمحبين فلوم العاذلين قرط في آذانهم ، ونار مؤججة في أبدانهم ، لهم دموع المعاني كغروب السواني .

وقيل : كل شهوة تخطر فمداواتها سهلة ، ما خلا العشق ، وشكا معلم

سعيد بن مسلمة ولده أباه ، فقال: انه مشتغل بالعشق ، فقال : دعه فإنه يلطف وينظف ويظرف .

وقال الشاعر :

لا عار في الحب ان الحب مكرمة   لكنه ربما أزرى بذي الخطر

وقيل : لو لم يكن في العشق إلاّ أنه يشجع الجبان ويصفي الآذان ويبعث العاجز لكفاه شرفاً .

وقال الشاعر :

الحب شجع قلب كل فروقة   والحب حمل عاجزاً فأطاقا

وقال أعرابي: من لا يعشق فهو رديء التّركيب جافي الطبع كز المعاطف .

وكان ابن مليكة يؤذن فسمع غناء ، فطرب وقال :

من عاش في الدنيا بغير حبيب   فحياته فيهـا حياة غريب
ما تنظر العينـان أحسن منظر   من طالب إلفاً ومن مطلوب
ما كان في حور الجنان لآدم   لو لم تكن حواء من مرغوب
قد كان في الفردوس يشكو وحشة   فيها ولم يأنس بغير حبيب

وكان للرشيد ثلاث جوار اشتد شغفه بهن فقال :

ملك الثلاث الآنسات عناني   وحللن من قلبي بكل مكان
ما لي تطـاوعني البرية كلها   وأطيعهن وهنّ في عصياني
ما ذاك إلاّ أن سلطان الهوى   وبه قوين أعزّ من سلطاني

وقال عروة :

وكم من كريم أضر به الهوى   فعوده مـا لم يكن يتعود

وقال كثير :

صفائف يقتلهن الرجال بلا دم   فيا عجباً للقاتلات الصفائف

وقال الشاعر الخبزارزي :

ولرب عبد في الهوى   يستعبد الحر المطاعا

وقال بعض الفلاسفة : لم أرَ حقاً أشبه بباطل من العشق ، هزله جد وجده هزل ، أوله لعب وآخره عطب .

إن الهوان هو الهوى جزم اسمه   فإذا لقيت هوىً لقيت هوانا
وما ليس في الناس يحمد رأيه   فيوجد إلاّ وهو في الحب أحمق

وقال شاعر آخر :

إن التذلل في حكم الهوى شرف   لا تأنفن من الخضوع لذي الهوى

وقيل : التذلل للحبيب شيم الأريب .

ووصف أعرابي الهوى ، فقال : هو طرف من الجنون إن لم يكن عصارة السحر .

وقال الأصمعي : سألني الرشيد عن حقيقة العشق ، فقلت : أن يكون البصل منها أطيب من المسك من غيرها .

وقيل : كل هوى ثبت في الصغر فهو كالنقش في الحجر ، لا تغيره الأحوال ولا تبدله الأعوام .

وقال ابن الطثرية :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلباً خالياً فتمكنا [1]

---

(١) النويري : نهاية الأرب .

وقيل : سبب العشق مصادفة النفس ، ما يلائم طبعها ، فتحسنه وتميل إليه ، وأكثر أسباب المصادفة النظر ، ولا يكون ذلك باللمح ، بل بالتثبت في النظر ومعاودته بالنظر فإذا غاب المحبوب عن العين طلبته النفس ، ورامت التقرب منه ، وتمنت الاستمتاع به فيصير فكرها فيه وتصويرها إياه في الغيبة حاضراً ، وشغلها كله به فيتجدد من ذلك أمراض الفكر إلى ذلك المعنى ، وكلما قويت الشهوة البدنية قوي الفكر في ذلك .

قال الحسن البصري : مَن أطلق طرفه أطال أسفه .

وقال ذو النون : اللحظات تورث الحسرات : أولها أسف وآخرها تلف ، فمن تابع طرفه تابع حتفه .

ومن أسباب العشق سماع الغناء وإنشاد الغزل ، فإن ذلك يصور في النفس نقوش صور فتخمر خميرة صورة موصوفة ، ثم تصادف نظراً مستحسناً ، فتتعلق النفس بما كانت تطلبه حالة الوصف .

ويتأكد العشق بإدمان النظر وكثرة اللقاء وطول الحديث ، فإن انضم إلى ذلك معانقة أو تقبيل فقد تم استحكامه .

وقد وقع فيه جماعة الخلفاء والأكابر ، فلم يُعب عليهم ولا نقصهم ، فقالوا : العشق يولد الأخلاق الحميدة .

وقال أعرابي : مَنْ لا يعشق فهو رديء التركيب جافي الطبع كزّ المعاطف.

وروي أن الشعبي كان ينشد :

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى فأنت وعيرٌ في الفلاة سواء

وسمع ابن أبي مليكة غناء ، وهو يؤذن فطرب ، فقيل له في ذلك فقال :

إذا أنت لم تطرب ولم تدرِ ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

وسئل أبو نوفل : هل يسلم أحد من العشق ؟ فقال : نعم الجِلْفُ الجاني الذي ليس فيه فضل ، ولا عنده فَهم ، فأما مَن في طبعه أدنى طرف أو معه دماثة أهل الحجاز ورقة أهل الحجاز ورقة أهل العراق فهيهات .

وقال العباس :

لا عار في الحب أن الحب مكرمة   لكنه ربما أزرى بذي الخَطَر

وقال ابن عقيل : العشق مرض يعتّري النفوس العاطلة والقلوب الفارغة المتلمسة للصور لدواع ، ومساعدها إدمان المخالطة فيتأكد الإلف ، ويتمكن الإنس بالإدمان شغفاً ، وما عشق قط إلاّ فارغ ، فهو من علل البطالين وأمراض الفارغين من النظر في دلائل العبر وطلب الحقائق المستدل بها على أعظم الخالق ، ولهذا قلما تراه إلاّ في الرّعن البطِرين وأرباب الخلاعة النّوْكى .

وما عشق حكيم قط ، لأن قلوب الحكماء أشد تمنعاً عن أن توقفها صورة من صور اللون مع شدة تطلبها ، فهي أبداً تلحظ وتخطف ولا تقف ، وقل أن يحصل عشق من لمحة ، وقل أن يضيف حكيم إلى لمحة نظرة ، فإنه مارّ في طلب المعاني ، ومَن كان طالباً لمعرفة الله لا توقفه صورة على الطلب لأنها تحجبه عن الصور .

وقال الربعي : سمعت أعرابية تقول : مسكين العاشق ، كل شيء عدوّه ، هبوب الريح يقلقه ولمعان البرق يؤرقه ورسوم الديار تحرقه والعذل يؤلمه والتذكر يُسقمه والبعد والقرب يهيجه والليل يضاعف بلاءه والرقاد يهرب منه ، ولقد تداويت بالقرب والبعد فلم ينجع فيه دواء ولا عز بها عزاء .

قال أبو تمام :

أما الهوى فهو العذاب فإن جرتْ فيه النّوى فالتيّمْ كل التيّم [1]

وذكر النويري : إن الهوى هو السبب الباعث على الغزل ، وذلك انه إذا حل في الأجسام ارتاحت النفوس ورقت القلوب وانجذبت الخواطر وصفت الأذهان وسهل على القرائح ، فأبرزته الألسن [2] ... ثم قال : والتحقيق أن العشق شدة ميل النفس إلى صورة تلائم طبعها ، فإذا قوي فكرها فيه تصورت حصولها ، وتمنت ذلك فيتجدد من شدة الفكر مرض .

وقال الفراء : اللوعة حُرقة القلب من الحب .

وقال عبيد الله بن سلاّم : العلاقة الحب اللازم للقلب ، والجوى الهوى الباطن واللوعة حرقة الهوى واللاعج الهوى المحرق والشغف أن يبلغ الحب شغاف القلب وهو جلد دونه . والتتيم أن يستعبده الهوى والتبتل أن يسقمه الهوى . . .

وقال أبو عبدالله بن عرفة : الإرادة قبل المحبة ، ثم المحبة ، ثم الهوى ، ثم العشق .

وقال ابن دُرَيْد : الصبابة رقة الهوى ، واشتقاق الحب من أحب البعير إذا برك من الإعياء .

وقالوا في سبب العشق مصادفة النفس ما يلائم طبعها ، فتستحسنه وتميل إليه ، وأكثر أسباب المصادفة النظر ولا يكون ذلك باللمح ، بل بالتثبت فيه ومعاودته بالنظر ، فإذا غاب المحبوب عن العين طلبته النفس ورامت التقرب منه ، وتمنت الاستمتاع به فيصير فكرها فيه وتصويرها إياه في الغيبة حاضراً ، وشغلها كله به فيتجدد من ذلك أمراض لانصراف الفكر إلى ذلك المعنى ، وكلما قويت الشهوة البدنية قوي الفكر في ذلك .

---

(١) النويري : نهاية الأرب .
(٢) نفس المصدر السابق .

وقيل : الهوى هو السبب الباعث على الغزل ، وذلك أنه إذا حل في الأجسام ارتاحت النفوس ورقت القلوب وانجذبت الخواطر وصفت الاذهان وسهل على القرائح ، فأبرزته الألسن [1] .

وأخبر المظفر بن يحيى ، فقال : أحب رجل امرأة دونه في القدر ، فعذله عمه ، فقال : يا عم لا تلم مجبراً على سقمه ، فإن المقر على نفسه مستغنٍ عن منازعة خصمه ، وإنما يلام ما اقترف ما يقدر على تركه ، وليس أمر الهوى إلى الرأي فيملكه ، ولا إلى العقل فيدبره ، بل قدرته أغلب وجانبه أعز من أن تنفذ فيه حيلة حازم ولطف محتال .

ورأى سعيد بن مسلم ابناً له قد شرع في رقيق الشعر وروايته فأنكر عليه ، فقيل له : انه قد عشق ، فقال دعوه فإنه يلطف وينظف ويظرف .

وفي رواية وصف الهوى قوم وقالوا : انه فضيلة وانه ينتج الحيلة ويشجع قلب الجبان ويسخي قلب البخيل ويصفي ذهن الغبي ويطلق بالشعر لسان المعجم ويبعث حزم العاجز الضعيف وانه عزيز تذل له عزة الملوك وتضرع فيه صولة الشجاع وتنقاد له طاعة كل ممتنع ويذلل كل مستصعب ويبرز كل محجة وهو داعية الأدب ، وأول باب تفتق به الأذهان والفطن وتستخرج به دقائق المكايد والحيل وإليه تستريح الهمم وتسكن نوافر الأخلاق والشيم وله سرور يجول في النفس وفرح مستكن في القلب وبه يتعارف يمنع جليسه أهل المودة . . . وعليه تتألف الأشكال وله صولات على القدر ومكايد تبطل

---

(١) النويري : نهاية الأرب .

لطائف الحيل وظرف يظهر في الأخلاق والخلق ، وأرواح تسطع من أهلها وتعبق من ذويها [1] .

وقال ابن قيم الجوزية: قد يراد بالداعي الشعور الذي تتبعه الإرادة والميل فذلك قائم بالمحب ، وقد يراد به السبب الذي لأجله وجدت المحبة وتعلقت به ، وذلك قائم بالمحبوب ، ونحن نريد بالداعي مجموع الأمرين ، وهو ما قام بالمحبوب من الصفات التي تدعو إلى محبته وما قام بالمحب من الشعور بها والموافقة التي بين المحب والمحبوب ، وهي الرابطة بينهما وتسمى بين المخلوق والمخلوق مناسبة وملاءمة .

منها هنا ثلاثة أمور : وصف المحبوب وجماله وشعور المحب به والمناسبة وهي العلاقة والملاءمة التي بين المحب والمحبوب ، فمتى قويت الثلاثة وكملت قويت المحبة واستحكمت ، ونقصان المحبة وضعفها بحسب ضعف هذه الثلاثة أو نقصها .

فمتى كان المحبوب في غاية الجمال وشعور المحب بجماله أتم شعور والمناسبة التي بين الروحين قوية ، فذلك الحب اللازم الدائم ، وقد يكون الجمال في نفسه ناقصاً ، لكن هو في عين المحب كامل ، فتكون قوة محبته بحسب ذلك الجمال عنده ، فإن حبك للشيء يعمر ويقصر ، فإن حبك للشيء يعمي ويصم ، فلا يرى المحب أحداً أحسن من محبوبه ، وقد يكون الجمال موفراً لكنه ناقص الشعور به فتضعف محبته لذلك، فلو كُشف له عن حقيقته لأسر قلبه .

---

(١) الحصري : زهر الآداب ٣ : ٢٦٨ – ٢٦٩ .

ومنه الأدام الذي يصلح به الخبز ، وإذا وجد ذلك كله وانتفت المناسبة والعلاقة التي بينهما لم تستحكم المحبة ، وربما لم تقع البتة ، فإن التناسب الذي بين الأرواح من أقوى أسباب المحبة ، فكل امرىء يصبو إلى من يناسبه .

وهذه المناسبة نوعان : أصلية من أصل الخلقة وعارضة بسبب المجاورة أو الاشتراك في أمر من الأمور ، فإن من ناسب قصدك وقصده حصل التوافق بين روحك وروحه ، وتشاكل أرواح وسوق كل نفس إلى مشاكلها ، فان شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع ، فتكون الروحان متشاكلتين في أصل الخلقة ، فتنجذب كل منهما إلى الاخرى بالطبع ، وقد يقع الانجذاب والميل بالخاصية ، وهذا لا يعلل ولا يُعرف سببه كانجذاب الحديد الى الحجر المغناطيسي .

ولا ريب أن وقوع هذا القدر بين الأرواح أعظم من وقوعه بين الجمادات وهذا الذي حمل بعض الناس على أن قالوا ان العشق لا يقف على الحُسن والجمال ولا يلزم مَنْ عَدَمه وإنما هو تشاكل النفوس وتمازجها في الطباع المخلوقة فيها .

فإن المناسبة علةُ الضم شرعاً وقدراً ، وشاهد هذا بالاعتبار أن أحب الأغذية إلى الحيوان ما كان أشبه بجوهر بدنه وأكثر مناسبة له ، وكلما قويت المناسبة بين الغازي والغذي ، كان ميل النفس إليه أكثر ، وكلما بعدت المناسبة حصلت النفرة عنه ، ولا ريب أن هذا قدرٌ زائد على مجرد الحسن والجمال ، ولهذا كانت النفوس الشريفة الزكية العُلوية تعشق صفات الكمال بالذات فأحب شيء إليها العلم والشجاعة والعفة والجود والإحسان والتبصر

والثبات لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها . بخلاف النفوس اللئيمة الدنية فإنها بمعزل عن محبة هذه الصفات ، وكثير من الناس يحمله على الجود والإحسان فرحة عشقه ومحبته له .

واللذة التي يجدها في بذله . وكثير من الأجواد يعشق الجود أعظم عشق ، فلا يصبر عنه مع حاجته إلى ما يجود به ولا يقبل فيه عذل عاذل ولا تأخذه لومة لائم . وأما عشاق العلم فأعظم شغفاً به وعشقاً له من كل عاشق بمعشوقه ، وكثير منهم لا يشغله عنه أجمل صورة من البشر .

فعشق صفات الكمال من أنفع العشق وأعلاه ، وإنما يكون بالمناسبة التي بين الروح وتلك الصفات ، فإذا كانت المحبة بالمشاكلة والمناسبة ثبتت وتمكنت ولم يُزْلها إلاّ مانع أقوى من السبب ، وإذا لم تكن بالمشاكلة فإنما هي محبة لغرض من الأغراض تزول عند انقضائه وتضمحل .

وإن كان امرأً قائماً بالمحبوب سريع الزوال والانتقال زالت محبته بزواله وإن كان صفة لازمة فمحبته باقية ببقاء داعيها ، ما لم يعارضه معارض يوجب زوالها ، وهو إما تغير حال في المحب أو أذى من المحبوب ، فإن الأذى إما أن يضعف المحبة أو يزيلها .

وهذا موضع انقسم المحبون فيه قسمين : ففرقة قالت : ليس بحب صحيح ما يزيله الأذى ، بل علامة الحب الصحيح انه لا ينقص بالجفوة ولا يذهبه الأذى ، قالوا بل المحب يلتذ بأذى محبوبه له ، هذا وان كانت الطباع تأباه ، لكنه موجب الحب التام ومقتضاه . وقالت فرقة : بل الأذى يزيل الحب ، فإن الطباع مجبولة على كراهة مَن يؤذيها ، كما أن القلوب مجبولة على حب من يحسن إليها .

والإنصاف أن يقال: يجتمع في القلب بغض أذى الحبيب وكراهته ومحبته من وجهٍ آخر، فيحبه ويبغض أذاه وهذا هو الواقع، والغالب منها يواري المغلوب ويبقى الحكم له.

وإن أذى محبوبه له كان هذا خارج على الطباع، اللهم إلاّ أن يكون ذلك الأذى وسيلة إلى رضى المحبوب وقربه فإنه يتلذذ به إذا لاحظ غايته وعاقبته فهذا يقع.

قال النبي (ص): الأرواح جنود مجندة من تعارف منها ائتلف ومن تناكر منها اختلف (رواه الشيخان وأبو داود وغيرهم).

وقال بعض الأطباء: العشق امتزاج الروح بالروح لما بينهما من التناسب والتشاكل، فإن امتزج الماء بالماء امتنع تخليص بعضه من بعض ولذلك تبلغ المحبة بين الشخصين حتى يتألم أحدهما بتألم الآخر، ويسقم بسقمه وهو لا يشعر.

وإذا كانت المحبة من الجانبين استراح كل واحد من المحبين، وسكن ذلك بعض ما به وعدّه نوعاً من الوصال.

وقال أبو الهذيل العلاّف: لا يجوز في دور الفلك ولا في تركيب الطبائع ولا في الواجب ولا في الممكن أن يكون محب ليس لمحبوبه إليه ميل، فإذا تشاكلت النفوس وتمازجت الأرواح وتفاعلت عنها الأبدان، وطلبت نظير الامتزاج والجوار الذي بين الأرواح فإن البدن آلة الروح ومركبه، وبهذا ركب الله شهوة الجماع بين الذكر والأنثى طلباً للامتزاج والاختلاط بين

البدنين كما هو بين الروحين ، ولهذا يسمى جماعاً وخلاطاً ونكاحاً وافضاء لأنه يفضي إلى صاحبه ، فيزول الفضاء بينهما .

فإن قيل : فهذا يوجب الحب بالجماع وقوته به ، والواقع خلافه فإن الجماع يطفىء نار المحبة ويبرد حرارتها ويسكن نفس المحب .

ومعلوم أن محبة مَن ذاق الشيء الملائم وعُدم صبره أقوى من محبة مَن لم يذق، بل نفسه مفطومة عنه والمودة التي بين الزوجين والمحبة بعد الجماع أعظم من التي كانت قبله ، السبب طبيعي ان شهوة القلب ممتزجة بلذة العين ، فإذا رأت العين اشتهى القلب ،فإذا باشر الجسمُ الجسمَ اجتمعت شهوة القلب ولذة العين ولذة المباشرة ، فإذا فارق هذه الحال كان نزاع نفسه إليها أشد وشوقه إليها أعظم . . . .

ولذلك يتضاعف الألم والحسرة على من رأى محبوبه أو باشره ثم حيل بينه وبينه فتضاعف ألمه وحسرته في مقابلة مضاعفة لذة ما عاوده ، وهذا في جانب المرأة أقوى ، فإنها إذا ذاقت عُسَيْلة الرجل ولا سيما أول عُسيلته لم تكد تصبر عنه بعد ذلك .

ورأت طائفة أن الجماع يفسد العشق ويبطله أو يضعفه ، واحتجت بأمور منها : أن الجماع هو الغاية التي تطلب بالعشق ، فما دام العاشق طالباً فعشقه ثابت فإذا وصل إلى الغاية قضى وطره وبردت حرارة طلبه وطفئت نار عشقه ومنها أن سبب العشق فكري وكلما قوي الفكر زاد العشق وبعد الوصول لا يبقى الفكر . ومنها انه قبل الظفر ممنوع والنفس مولعة بحب ما منعت منه .

وزعم بعضهم انه (في الجاهلية) كان يشرط بين العشيقة والعاشق انه له من نصفها الأعلى إلى سرتها ينال منها ما يشاء من ضم وتقبيل ورشف ، والنصف الأسفل يحرم عليه .

قال الشاعر :

فللحب شطر مطلق من عقاله   وللبعل شطر ما يرام منيع

والشعراء قاطبة لا يرون بالمحادثة للأجنبيات بأساً وهو مخالف للشرع والعقل . وقد ذهب أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني إلى جواز النظر إلى مَن لا يحل له . وذهب أبو محمد بن حزم إلى جواز العشق للأجنبية من غير ريبة وقد خطأه ابن قيم الجوزية .

وفصل الخطاب بين الفريقين ؛ أن الجماع الحرام يفسد الحب ، ولا بد أن تنتهي المحبة بينهما إلى المعاداة والتباغض والقلى كما هو مشاهد بالعيان . وأما الجماع المباح فإنه يزيد الحب إذا صادف مراد المحب ، فإنه إذا ذاق لذته وطعمه أوجب له ذلك رغبة أخرى لم تكن حاصلة قبل الذوق .

وأما ما احتج به الآخرون فجوابه ان الشهوة والإرادة لم تطفأ نارها بالكلية ، بل فترت شهوة ذلك الوقت ، ثم تعود أمثالها ، وإنما يظهر هذا إذا غاب أحدهما عن حبيبه ، وإلاّ فما دام بمرأى منه وهو قادر عليه متى أحب . فإن النفس تسكن بذلك وتطمئن به ، فإذا حيل بينه وبين طلبه له ونزاع نفسه إليه على أن المحب للشيء متى أفرط في تناول محبوبه ، نفرت نفسه منه وربما انقلبت محبته كراهية .

ودواعي الحب من المحبوب جماله إما الظاهر أو الباطن أو هما معاً ، فمتى كان جميل الصورة جميل الأخلاق والشيم والأوصاف ، كان الداعي منه أقوى . وداعي الحب من المحب أربعة أشياء : أولها النظر إما بالعين أو بالقلب إذا وصف له ، فكثير من الناس يحب غيره ويفنى به محبة ، وما رآه لكن وصف له ، الثاني الاستحسان فإن لم يورث نظره استحساناً لم تقع المحبة ، الثالث الفكر في المنظور ، وحديث النفس به . فإن شغل عنه بغير مما هو أهم عنده منه لم يعلق حبه بقلبه وإن كان لا يعدم خطرات وسوانح .

قيل : الناس في هذا أقسام : منهم من يعشق الجمال المطلق ، فقلبه معلق به أنى استقلت ركائبه . وأنى حلت مضاربه ، وهذا لا يتوقف عشقه على الطمع ، ومنهم من يعشق الجمال المقيد سواء طمعت نفسه في وصاله أم لم تطمع ، ومنهم من لا يعشق إلاّ من طمعت نفسه في وصاله . فإن يئس منه لم يعلق حبه بقلبه ، والأقسام الثلاثة واقعة في الناس ، فإذا وجد النظر والاستحسان والفكر والطمع هاجت بلابله وأمكن من معشوقه مقاتله ، واستحكم داؤه وعجز عن الأطباء دواؤه .

وقال المشاؤون وهو لقب اتباع المعلم الأول أرسطو: هو اتفاق أخلاق وتشاكل محبات وتجانسها وشوق كل نفس إلى مُشاكلها ومُجانسها في الخلقة القديمة قبل إحباطها إلى الأجساد .

واختلف الناس في العشق هل هو اختياري أو اضطراري خارج عن مقدور البشر ، فقالت فرقة : هو اضطراري وليس باختياري ، قالوا وهو بمنزلة الظمآن للماء البارد والجائع للطعام وهذا مما لا يملك .

وقال التميمي في كتاب امتزاج الأرواح : سئل بعض الأطباء عن العشق ، فقال : إن وقوعه بأهله ليس باختيار منهم ولا بحرصهم عليه ، ولا لذة لأكثرهم فيه ، ولكن وقوعه بهم كوقوع العلل المُدْنفة والأمراض المتلفة لا فرق بينه وبين ذلك .

وقال المدائني : لام رجل رجلاً من أهل الهوى ، فقال : لو صح لذي هوى اختيار لاختار أن لا يهوى .

وقيل : إن العشق نوع من العذاب ، والعاقل لا يختار عذاب نفسه .

وقال القاضي أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن سلمان النوقاتي في كتابه تحفة الظراف : العشاق معذورون على كل الأحوال ، إذا العشق إنما دهاهم عن غير اختيار ، بل اعتراهم عن جهر واضطرار ، والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور ، لا على المقضيّ عليه والمقدور .

ورؤي أبو السائب المخزومي ، وكان من أهل العلم والدين بمكان ، متعلقاً بأستار الكعبة ، وهو يقول : اللهم ارحم العاشقين وقوّ قلوبهم واعطف عليهم (قلوب) المعشوقين ، فقيل له في ذلك ، فقال : والله للدعاء أفضل من عمرة الجِعْرانة .

وقالوا : والعشق حركة اختيارية للنفس إلى نحو محبوبها ، وليس بمنزلة الحركات الاضطرارية التي لا تدخل تحت قدرة العبد . وقالوا : والعقلاء قاطبة مطبقون على لوم من يحب ما يتضرر بمحبته .

وفصل النزاع بين الفريقين ان مبادىء العشق وأسبابه اختيارية داخلة

تحت التكليف فإن النظر والتفكر والتعرض للمحبة أمر اختياري ، فإذا أتى بالأسباب كان ترتب المسبّب عليها بغير اختياره . وهذا بمنزلة السكر مع شرب الخمر ، فإن تناول المسكر اختياري ، وما يتولد عنه من السكر اضطراري ولا ريب أن متابعة النظر واستدامة الفكر بمنزلة شرب المسكر ، فهو لا يلام على السبب ، ولهذا إذا حصل العشق بسبب غير محظور لم يُلم عليه صاحبه وإن سكر العشق أعظم من سكر الخمر . ومن أسباب السكر حب الصور ، فإنه إذا استحكم الحب وقوي أسكر المحب. أشعارهم بذلك مشهورة كثيرة، ولا سيما إذا اتصل الجماع بذلك الحب .

ومن أقوى أسباب السكر الموجبة له سماع الأصوات المطربة من جهتين : من جهة أنها في نفسها توجب لذة قوية لينفجر معها العقل ، ومن جهة أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها كائناً ما كان ، فيحصل بتلك الحركة الشوق والطلب مع التخيل للمحبوب وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكر لذة عظيمة تقهر العقل فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان .

فكلما قويت المحبة قويت اللذة بإدراك المحبوب ، واللذة فسرت بأنها إدراك الملائم كما أن الألم إدراك المنافي ، قال ابن تيمية : والصواب أن يقال إدراك الملائم سبب اللذة وإدراك المنافي سبب لها . واللذة أظهر من كل ما يعرف به فإنها أمر وجداني ، وإنما تُعرف بأسبابها وأحكامها .

وقالوا : والعشق المباح مما يؤجر عليه العاشق ، كما قال شريك بن عبد الله ، وقد سئل عن العشاق ، فقال : أشدهم حباً أعظمهم أجراً .

وقالوا : والعشق يصلي العقل ويذهب الهم ويبعث على حسن اللباس وطيب المطعم ومكارم الأخلاق ويعلي الهمة ويحمل على طيب الرائحة وكرم

العشرة وحفظ الأدب والمروءة وهو بلاء الصالحين ومحنة العابدين . وهو ميزان العقول وجلاء الأذهان وهو خلق الكرام .

وقالوا : وأرواح العشاق عطرة لطيفة وأبدانهم رقيقة ضعيفة وأرواحهم بطيئة الانقياد لمن قادها حاشا سكنها الذي سكنت إليه وعقدت حبها عليه ، وكلامهم ومنادمتهم تزيد العقول وتحرك النفوس وتطرب الأرواح وتلهو بأخبارهم أولو الألباب ، فأحاديث العشاق زينة مجالسهم وروح محادثتهم .

وقال بعض العقلاء : العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان إن تركته ضرك ، وان أكثرت منه قتلك .

وقال ابن عبد البرّ في كتابه بهجة المجالس : وجد في صحيفة بعض أهل الهند : العشق ارتياح جعل في الروح ، وهو معنى تنتجه النجوم في مطارح شعاعها ويتولد في الطباع بوصلة أشكالها ، وتقبله الروح بلطيف جوهرها وهو يعد جلاء القلوب وصقل الأذهان لم يُفرط فإذا أفرط صار سقماً قاتلاً ومرضاً منهكاً . لا تنفذ فيه الآراء ولا تنجح فيه الحيل والعلاج منه زيادة فيه .

وأما فيمن ذم العشق فقال بعضهم : إذا اقتحم العبد بحر العشق ولعبت به أمواجه فهو إلى الهلاك أدنى منه إلى السلامة .

وقالوا: وكيف يمدح أمر يمنع القرار ويسلب المنام ويولـّه العقل ويُحدث الجنون بل هو نفسه جنون كما قال بعض الحكماء : الجنون فنون والعشق فن من فنونه .

وقالوا : وكم من عاشق أتلف في معشوقه ماله وعرضه ونفسه وضيّع أهله ومصالح دينه ودنياه .

وقالوا : والعشق هو الداء تذوب معه الأرواح، ولا يقع معه الارتياح ، بل هو بحر من ركبه غرق فإنه لا ساحل له ولا نجاة منه .

وقالوا : ورأينا الداخل فيه يتمنى منه الخلاص ولات حين مناص . وقيل : وكم أكبّت فتنته رؤوساً على مناخرها في الجحيم وأسلمتهم إلى مقاساة العذاب الأليم وجرعتهم بين أطباق النار كؤوس الحميم ، وكم أخرجت من شاء الله من العلم والدين كخروج الشعرة من العجين ، وكم أزالت من نعمة وأحلت من نقمة ، وكم أنزلت من معقل عزة ، فإذا هو من الأذلين ، ووضعت شريفاً رفيع القدر والمنصب ، فإذا هو في أسفل السافلين ، وكم كشفت من عورة وأحدثت من رَوْعة وأعقبت من ألم وأحلّت من ندم وكم أضرمت من نار حسرات أحرقت فيها الأكباد وأذهبت قدراً كان للعبد عند الله ، وفي قلوب العباد ، وثم جلبت من جهد البلاء ودرْك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء ، فقل أن يفارقها زوال نعمة أو تحويل عافية أو طُروق بُلعة أو حدوث رزية . . هذه والله بعض جنايات العشق على أصحابه لو كانوا يعقلون . وقالوا : ويكفي من مضرة العشق ما اشتهر من مصارع العشاق ، وذلك موجود في كل زمان .

ثم أصدر ابن قيم الجوزية حكمه بين الفريقين مادح العشق وذامه ، فقال : العشق لا يحمد مطلقاً ولا يذم مطلقاً ، وإنما يحمد ويذم باعتبار متعلقه فإن الإرادة تابعة لمرادها والحب تابع للمحبوب ، فمتى كان المحبوب مما يحب لذاته أو وسيلة توصله إلى ما يحب لذاته لم تذم المبالغة في محبته بل تحمد .

وصلاح حال المحب كذلك بحسب قوة محبته ، ولهذا كان أعظم صلاح العبد أن يصرف قوى حبه كلها لله وحده بحيث يحب الله بكل قلبه وروحه وجوارحه ، فيوحد محبوبه ويوحد حبه .

وتوحيد الحب أن لا يبقى في قلبه بقية حب حتى يبذلها ، فهذا الحب

وإن سمي عشقاً فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه ، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلاّ بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وان تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله ، فلا يحب إلاّ الله ، فعشق هذا كله من أنفع العشق وهو غاية سعادة العاشق ، وكذلك عشق العلم النافع وعشق أوصاف الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر ومكارم الأخلاق فإن هذه الصفات لو صورت صوراً لكانت من أجمل الصور وأبهاها ، ولو صور العلم صورة لكانت أجمل من صورة الشمس والقمر ، ولكن عشق هذه الصفات إنما يناسب الأنفس الشريفة والزكية .

بقي هاهنا قسم آخر ، وهو عشق محمود يترّتب عليه مفارقة المعشوق ، كما يعشق امرأته أو آمته ، فيفارقها بموت أو غيره ، فيذهب المعشوق ويبقى العشق كما هو ، فهذا نوع من الابتلاء إن صبر صاحبه واحتسب نال ثواب الصابرين وان سخط وجزع وقابل هذه البلوى بالرضى والتسليم فدرجته فوق درجة الصبر .

والنفوس ثلاثة : نفس سماوية علوية محجتها منصرفة إلى المعارف واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان واجتناب الرذائل وهي مشغوفة بما يقربها من الرفيق الأعلى وذلك قوتُها وغذاؤها ودواؤها فاشتغالها بغيره هو دواؤها .

ونفس سبُعية غضبية محجتها منصرفة إلى القهر والبغي والعلو في الأرض والتكبر والرئاسة على الناس بالباطل فلذتّها في ذلك وشغفها به .

ونفس حيوانية شهوانية ، محجتها منصرفة إلى المأكل والمشرب والمنكح وربما جمعت إلى الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض والفساد .

والحب في هذا العالم دائر بين هذه النفوس الثلاثة ، فأي نفس منها

صادفت ما يلائم طبعها استحسنته ومالت إليه ، وكل قسم من هذه الأقسام يرون ان ما هم فيه أولى بالإيثار ، وأن الاشتغال بغيره والإقبال على سواه غَبَنْ وفوات حظ .

ثم ذكر ابن قيم الجوزية القسم الأول وهو العشق السماوي أي محبة الله ، فذكر من علاماتها ، فذكر المحبوب بذكره وحديثه والانقياد لأمر المحبوب وإيثاره على مراد المحب ، من علامات هذا الحب قلة صبر المحب عن المحبوب بل ينصرف صبره إلى الصبر على طاعته والصبر من معصيته والصبر على أحكامه.

ومنها الإقبال على حديثه وإلقاء سمعه كله إليه بحيث يفرغ لحديثه سمعه وقلبه .

ومنها البَهَت والروعة التي تحصل عند مواجهة الحبيب أو عند سماع ذكره ، ومنها غيرته لمحبوبه وعلى محبوبه ، فالغيرة له أن يكره ما يكره ويغار إذا عُصي محبوبه وانتهك حقه وضيع أمره والدين كله تحت هذه الغيرة .

ومنها بذل المحب في رضا محبوبه ما يقدر عليه مما كان يتمتع به بدون المحبة .

ومنها سروره بما يُسر به محبوبه كائناً من كان وإن كرهته نفسه ، فيكون عنده بمنزلة الدواء الكريه يكرهه طبعاً ويحب لما فيه من الشفاء ، وهكذا المحب مع محبوبه يسره ما يرضى به محبوبه وإن كان كريهاً لنفسه .

ومنها حب الوحدة والأنس بالخلوة والتفرد عن الناس ، ومنها استكانة المحب لمحبوبه وخضوعه وذله له والحب مبني على الذل .

ومن موجبات الحب إفراد الحبيب بالحب وعدم التشريك بينه وبين

غيره فيه ، لأنه متّى انصرفت قوة الحب إلى جهة أخرى لم يبق فيها متسع لغيرها .

ومن أمثال الناس : ليس في القلب حبُان ، ولا في السماء ربان ، ومتى تقسمت قوى الحب بين عدة محال ضَعُفت لا محالة .

ولما كان هذا الباب متصلاً بإفراد المحبوب بالمحبة ، ومن موجباته ، فإن الغيرة بحسب قوة المحبة وقوتها بحسب إفراد المحبوب حسن ذكره بعده ، وأصل الغيرة الحمية والإلفة ، والغيرة نوعان : غيرة للمحبوب وغيرة عليه ، فأما الغيرة له فهي الحمية له والغضب له إذا استهين بحقه وانتقصت حرمته وناله مكروه من عدوه فيغضب له المحب ويحمى وتأخذه الغيرة له بالمبادرة إلى التغيير ومحاربة مَن آذاه ، فهذه غيرة المحبين حقاً ، وهي من غيرة الرسل واتباعهم لله ممن أشرك به .

وأما الغيرة على المحبوب فهي أنفة المحب وحجته أن يشاركه في محبوبه غيره ، وهذه أيضاً نوعان : غيرة المحب أن يشاركه غيره في محبوبه ، وغيرة المحبوب على محبه أن يحب معه غيره .

والغيرة من صفات الرب ، وغيرة العبد على محبوبه نوعان : غيرة ممدوحة يحبها الله وغيرة مذمومة يكرهها الله ، فالتي يحبها الله أن يغار عند قيام الريبة ، والتي يكرهها أن يغار من غير ريبة ، بل من مجرد سوء الظن ، وهذه الغيرة تفسد المحبة وتوقع العداوة بين المحب ومحبوبه .

وقد يغار المحب على محبوبه من نفسه ، وهذا من أعجب الغيرة ، وله أسباب ، منها خشية أن يكون مفتاحاً لغيره ، ومنها أن يحمله فرط الغيرة على أن ينزل نفسه منزلة الأجنبي فيغار على المحبوب من نفسه ولا ينكر هذا فإن المحبة عجائب ، ومنها شدة الموافقة للحبيب ، والحبيب يكره أن ينسب محبته

إليه، وأن يذكر ذلك فهو لموافقته لمحبوبه يغار عليه من نفسه كما يسر هجر محبوبه إذا علم أن فيه مراده .

وملاك الغيرة وأعلاها ثلاثة أنواع : غيرة العبد لربه إن تنهك محارمه وتضيع حدوده ، وغيرته على قلبه أن يسكن إلى غيره وإن يأنس بسواه وغيرته على حرمته ان يتطلع إليها غيره ، فالغيرة التي يحبها الله ورسوله دارت على هذه الأنواع الثلاثة ، وما عداها فإنها من خدع الشيطان ، وإما بلوى من الله كغيرة المرأة على زوجها أن يتزوج عليها [1] .

وقال داود الأنطاكي : من الأسرار بين أصناف الأحجار ، اعتلاق المغناطيس والحديد مما لم يشك في وجوده ، وهذا لكثرة وجود المغناطيس وإلا فلسائر المنطرقات أحجار من الجمادات تجذبها لمشاكلة بينها في الزئبقة والكبريتية وهذا ظاهر التعليل [2] .

وحكي أن شخصاً كان له نخل ، وكانت واحدة منهن تزهر وتسقط قبل الانعقاد ، وربما تنثر وتسقط قبل البلوغ ، فشكا ذلك إلى حاذق ، فجاء حتى نظرها ، فقال : أنها عاشقة ، ثم دعا برصاص فصنع شريطاً وربطه منها إلى نخلة أخرى فحسن ثمرها في تلك السنة ودامت كذلك ، وان صاحب البستان قطع الشريط لينظر فأسقطت الزهر فأعاده فصلحت .

وغاية الأمر أن يدعى فيه الخواص فيقال : إن شدة الائتلاف بين العاشق والمعشوق في قبيل الخواص [3] .

وذكر داود الأنطاكي عن بعض ما وقع للحيوان من أمور العشق ،

---

(١) ابن قيم الجوزية : روضة المحبين .
(٢) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .
(٣) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفصيل الأشواق العشاق .

فقال : إن أعظم الحيوان إدراكاً من ذوات الأربع الخيل وإنها أقرب من غيرها إلى مزاج الإنسان ، قيل : انه جيء بحصان بأخته مبرقعة ، فلما نزل عنها انكشف الثوب ، فعرفها فجعل يجري حتى ألقى نفسه من جبل شاهق فتقطع .

وفي لطائف الأسرار أن رجلاً من أصفهان ولدت عنده فرس حصاناً وأخرى أنثى فائتلفا، فكان إذا فرق بين واحدة وأخرى لا تمشي كل منهما ، ولا تأكل ولا تشرب وتصيح حتى يجتمعا [1] .

ومما وقع لي من مشاهدات في حب الحيوانات لبعضها ، ما شاهدته في المهجر سنة ١٩٢٧ م ، وكنت قاطناً مع أحد أقاربي في أحد بيوت فريتون عاصمة سيراليون بأفريقية الغربية حيث اشترى من أحد الأفريقيين قرداً صغيراً من قردين كانا مع ذلك الأفريقي ، فلما انفصل القرد عن صفيه أخذ يصيح بصوت محزن ومؤثر ، وبقي على حاله هذه طوال تلك الليلة ، فلما أصبح الصباح وجدناه جثة هامدة لا حراك فيها .

وذكر داود الانطاكي أن بعض حكماء الهند قال : ما علق العشق بأحد عندنا إلا وعزينا أهله فيه .

وحكى الحافظ مغلطاي : إن العشق يختلف باختلاف أصحابه ، فإن الغرام أشد ما يكون مع الفراغ وتكرار التردد إلى المعشوق والعجز عن الوصول إليه ، فعلى هذا يكون أخف الناس عشقاً الملوك ، ثم مَن دونهم لاشتغالهم بتدبير الملك ، وقدرتهم على مرادهم ، ولكن قد يتذللون للمحبوب لما في ذلك من مزيد اللذة .

---

(١) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .

ودونهم أفرغ لقلة الاشتغال حتّى يكون المتفرغ له بالذات أهل البادية لعدم اشتغالهم بعوائق ، ومن ثم هم أكثر الناس موتاً به .

ثم اعلم أن العشق متى استولى لم يبق صفة سواه ولذلك يذهب الأخلاق العسرة وقوة النفس .

ومنهم من تحمله الأنفة على أن يفارق بعد إظهار شدة شوق وقوة ميل ، وكذا شدة الإقبال من المحبوب ، فيتوهم حيث تشبع نفسه أن الشوق لا يعاوده ، فيفارق ، ويعود ذلك عليه بتلف نفسه ، والحق ان ذلك كله مع عدم التمكن ، وهو الموسوم بالاشراك وإلاّ فالصادق منه لا يرى وجوداً لسوى المحبوب ، ومن ثم طعن على من يرى الدنيا مثالاً لمحبوبه أو يظن وجوده ودونوا ما صدر عمن بدأ بالسلوان ، ثم ندم .

وقد حث بعضهم على العشق فقال ابن الاحنف :

ما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ولا خير فيمن لا يحب ويعشق

وقال ابن أبي كثير لابن أبي الزرقاء: هل عشقت حتّى تكاتب وتراسل ؟ فقال : لا ، قال : لن تفلح والله أبداً .

وأنشد الشعبي :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فأنت وعيرٌ في الفلاة سواء

وأنشد ابن معاذ :

ولا خير في الدنيا إذا أنت لم تزر خليلاً ولم ينظر إليك حبيب

وقالوا إن العشق لا يتصور من جاهل غليظ الطبع ، والعشق فضيلة تنتج الحيلة وتشجع الجبـان وتسخي كف البخيل ، وتصفي ذهن الغبي وتطلق

بالشعر لسان الأعجم وتبعث حزم العاجز الضعيف وهو عزيز يذل له عز الملوك . وتضرع له صولة الشجاع .

ونقل ابن خلكان في ترجمة العلاف ما ملخصه : ان العشق جرعة من حياض الموت وبقعة من رياض الشكل لكنه لا يكون إلاّ عن أريحية في الطبع ولطافة في الشمائل وجود لا يتفق معه منع وميل لا ينفع فيه عذل .

وقال الشاعر :

ليس خطب الهوى بخطب يسير لا ينبئك عنه مثـــل خبير
ليس أمر الهوى يدبر بالرأ ي ولا بالقيـــاس والتفكير
إنما الأمر في الهوى خطرات محدثات الأمور بعد الأمور

وقيل هي ثعلبة بنت المهدي حكاه الصولي .

وحكي الغنوي: قال دعيت إلى عيادة مريض أحبه آخر ، فدخلنا عليهما والمحب الصحيح يذب عنه ، فكان إذا شكا المريض شيئاً شكا الآخر مثله فقدر أن قضى ونحن عنده فحال مفارقته نفسه فارق الصحيح نفسه .

ثم قال داود الانطاكي : أعلم إن العشق ألطف موجود ، نشأ في الوجود كما وحيث هو كذلك ،فمتعلقه لابد وأن يشاكله لاحتياج كل اثنين تألفاً إلى نسبة تأليفية ولا شبهة أن الروح ألطف ما في البدن ، فلذلك كان العشق فيها ، وإن العشق نصف الأمراض وشطر الأعراض وقسيم الاسقام ، وجل الآلام ، وهذا واضح لأن الروح هي الجزء اللطيف والبدن الجزء الكثيف والأمراض تبدأ بالبدن والعشق بالروح ولا شك أن سريان اللطيف في اللطيف أسرع ملاكاً، وأعظم استملاكاً ، ويليه اللطف في الكثيف كالحمى في البدن ثم الكثيف في الكثيف كالفالج فيه .

فعلى هذا يتجه كلام المعلم بل أقول ان العشق غالب الأمراض وليست بالنسبة إليه كالعشر إلى الكل والقطرة إلى البحر ، وبرهانه ان الأمراض غالباً تخص البدن وإنما اشتغال الروح حينئذ بالتدبير ، وإلاّ فهي في نفس صحيحة .

وأما العشق فعاقبته إفساد البدن وتعطيل الفكر وإلحاق العقلاء بأهل الجنون ، ثم مرتبته الثانية تتولد عن تكرار نظر أوسماع خطاب يتعقل له في الذهن معنى ، يكون لحديد القلوب مغناطيساً جاذباً ، ولأنظارها السفطية برهاناً غالباً ، ويسمى حينئذ العشق الحسي .

ثم مرتبته الثالثة الخيالية ، وهي عبارة عن استيعابه التخيل حتى لم يبق للعاشق تخيل إلاّ صورة المعشوق وإن شارك الناس في الأمور الظاهرة ، كانت تلك المشاركة غير تامة وعلاماتها غلبة السهو ونقص الأفعال والاحتياج إلى محرك باعث .

ثم مرتبته الرابعة مرتبة الحفظ وهي الاستيلاء على الحفظ فتصرف القوة عن تحصيل كل كمال والنظر إلى كل جمال ، وهذا هو العشق الذي يرى صاحبه الميل إلى سوى المحبوب إشراكاً ، والفكر في غيره ضياعاً واشغال الزمان بما سواه فساداً وخروجاً إليه .

ثم الخامسة مرتبة الاستغراق وهي استيلاء الاشتغال بالمحبوب على النفس الناطقة بأسرها وارتسام صورة المحبوب في مرآة العاقلة ، وحدها مع محو ما سواها .

والسادسة مرتبة الانقلاب وهي مرتبة ينقلب فيها إدراك العاشق في سائر آلاته ، فيصير إذا لمس الحجر أو ذاق الصبر أو سمع الإيذاء ، أو رأى شيئاً كالجيفة ، أو شم رائحتها فضلاً عن أضداد ذلك يعتقده المحبوب ، وربما

تجرد عن صورته ، فشاهدها المحبوب ، وهذه المرتبة مع العناية والإخلاص تنقلب قدسية إذا كانت النفس الناطقة قبل ذلك قد تخلصت بالكمالات عن البهيمية وإلاّ ألحقت صاحبها بالحيوانات وعبر عنها الأطباء بالماليخوليا .

والسابعة مرتبة العدم الكلي والمفارقة الأبدية ، وهي التي إذا بلغتها النفس لم تستقر في البدن وربما كانت مفارقتها بتذكر أو سماع ذكر أو تنفس صعداء أو أمر من المحبوب ، وحاصلها أن يصير الموت أعظم أُمنية للنفس .

وفي كتاب المتيمين : نظر رجل إلى معشوقته فغشي عليه، فقال حكيم انه من انفراج قلبه اضطرب جسمه ، فقيل له : ما بالنا لا نكون كذلك عند النظر إلى أهلنا ؟ فقال : محبة الأهل قلبية ، وهذه روحانية ، فهي أدق وألطف وأعظم سرياناً وفعالاً .

وأنشد في الحب :

فلست براء عيب ذي الود كله ولا بعض ما فيه إذا كنت رائيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

وأُنشد في الحب :

الحب أولـــه ميل يهيمُ به قلب المبين فيلقى الموت كاللعب
يكون مبدؤه من نظرة عرضت أو مزحة أشعلت في القلب كاللهب
كالنار مبدؤها من قدحة فإذا تضرمت أحرقت مستجمع الحطب (١)

وذكر داود الأنطاكي : أن بعض حكماء الهند قال : ما علق العشق

---

(١) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق .

بأحد عندنا إلاّ وعزينا أهله فيه ، وحكي الحافظ مغلطاي : أن العشق يختلف باختلاف أصحابه ، فإن الغرام أشد ما يكون مع الفراغ ، وتكرار التردد إلى المعشوق والعجز عن الوصول إليه . فعلى هذا يكون أخف الناس عشقاً الملوك ، ثم مَن دونهم لاشتغالهم بتدبير الملك ، وقدرتهم على مرادهم ، ولكن يتذللون للمحبوب لما في ذلك من مزيد اللذة كقول الحكم بن هشام :

ظل من فرط حبه مملوكا ولقد كان قبل ذلك مليكا

وقول الرشيد :

ملك الثلاث الآنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان

وقال ابن الأحمر سلطان الأندلس :

أيا ربة الخدر التي أذهبت نسكي على كل حال أنت لا بد لك منك
فإما بـــذل وهو أليق بالهوى وإما عز وهو أليق بالملك

وقال ابن طاهر صاحب خراسان :

فإني وإن حنت إليك ضمائري فما قدر حبي أن يذل له قدري

وقد حث بعضهم على العشق فقال ابن الأحنف :

وما الناس إلاّ العاشقون ذوو الهوى ولا خير فيمن لا يحب ويعشق

وقال ابن أبي كثير لابن أبي الزرقاء : هل عشقت حتى تطالب وتراسل ؟ فقال : لا . قال : لن تفلح والله أبداً . وأنشدني الشعبي :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فأنت وعيرٌ في الفلاة سواء

وأنشد ابن معاذ :

ولا خير في الدنيا إذا أنت لم تزر   خليلاً ولم ينظر إليك حبيب

وقالوا : إن العشق لا يتصور من جاهل غليظ الطبع ، والعشق فضيلة تنتج الحيلة وتشجع الجبان وتسخي كف البخيل وتصفي ذهن الغبي ، وتطلق بالشعر لسان الأعجم ، وتبعث حزم العاجز الضعيف وهو عزيز يذل له عز الملوك ، وتضرع له صولة الشجاع . وهو داعية للأدب ، وأول باب تفتق به الأذهان والفطن ، ويستخرج به دقائق المكايد والحيل ، وإليه تستريح الهمم وتسكن به فواتر الأخلاق والشيم ، يمتع ويؤنس أليفه،وله سرور يجول في النفوس وفرح يسكن في القلوب .

وقال سعيد بن سالم وقد قيل له : إن ابنك شرع في الرقيق من الشعر ، فقال : دعوه ينظف ويلطف ويظرف يعني انه يطلع من رقيق الشعر على أسرار البلغاء ، وليس أرق من الغزل ولا أدق ، لما فيه من تعلق العشق ومدح المحبوب ، وذلك يؤدي إلى ما ذكر ، فإن العاشق إذا علم ما يقربه إلى محبوبه ، بذل فيه إمكانه والظرافة واللطافة والنظافة أعظم مقرب ، فكأنه قال دعوه لعله يتصف بالعشق .

وقال الأصمعي وقد سأله الرشيد ما حقيقة العشق ؟ فقال : انه شيء يستغرق القلب في محاسن المحبوب ، ويذهله عن مساويه ، فيجد رائحة البصل من المحبوب أعظم من المسك والعنبر .

فعلى هذا يتجه كلام المعلم ، بل أقول أن العشق غالب الأمراض ، وليست بالنسبة إليه كالعشر إلى الكل والقطرة إلى البحر وبرهانه ان الأمراض غالباً تخص البدن وإنما اشتغال الروح حينئذ بالتدبير وإلاّ فهي في نفسها صحيحة .

وقال بعضهم الجنون فنون ، والعشق فن من فنونه ، واحتج بقول قيس :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعظم من بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين
إني جننت فهاتوا من جننت به إن كان ينفي جنوني لا تلوموني

وقيل لأبي زهير المدايني :ما العشق ؟ فقال : الجنون والذل وهو داء أهل الظرف . وقيل لأبي رائد الأوضاحي :ما تقول في العشق ؟ فقال: إن لم يكن طرفاً من الجنون فهو عصارة من السحر .

وقيل : سبب العشق النفساني الاستحسان والفكر ، وسببه البدني ارتفاع بخار رديء إلى الدماغ عن مَنِيٍّ محتقن،ولذلك أكثر ما يعتري العزاب وكثرة الجماع تزيله بسرعة .

وقال ابن الأكفاني : علامته نحافة البدن وخلاء الجفن للسهر ، وكثرة ما يتصعد إليه من الأبخرة وغور العين وجفافها إلاّ عند البكاء، وحركة الجفن ضاحكة كأنه ينظر إلى شيء لذيذ ونفس كثير الانقطاع والاسترداد والصعداء ونبض غير منتظم لا سيما عند ذكر أسماء وصفات مختلفة ، فأيها اشتد عنده اختلاف النبض وتغيير الوجه .

ومن علاماته اغضاء المحب عند نظر محبوبه إليه ورميه بطرفه نحو الأرض، وذلك من مهابته له وحيائه منه وعظمته في صدره . . . ومنها كثرة غيرته عليه ومحبة القتل والموت ليبلغ رضاه والإنصات لحديثه إذا حدث ، واستغراب كل ما يأتي به ولو أنه عين المحال وتصديقه وان كذب وموافقته وإن ظلم والشهادة له وإن جار واتباعه كيف يسلك والإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه والتعمد للقعود بقربه والدنو منه واطراح الأشغال الشاغلة عنه والزهد فيها والرغبة عنها والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته والتباطؤ في

المشي عند القيام عنه وجوده بكل ما يقدر عليه مما كان يتمتع به قبل ذلك كأنه هو الموهوب له، وهذا قبل استعار نار الحب ، فإذا تمكن أعرض عن ذلك كله وبدله سؤالاً وتضرعاً كأنه يأخذه من المحبوب حتى انه يبذل نفسه دون محبوبه . . .

ومنها الانبساط الكثير الزائد والتضايق في المكان الواسع وعلى الشيء يأخذه ، وكثرة الغمز الخفي والميل والتعمد للمس اليد عند المحادثة ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة وشرب ما أبقى المحبوب في الإناء ، ومنها تقبيل نعله في غيبته .

ومنها الاتفاق الواقع بين المحب والمحبوب ولا سيما إذا كانت المحبة محبة مشاكلة ومناسبة ، فكثيراً ما يتكلم المحبوب بكلام أو يريد أن يتكلم به فيتكلم المحب به بعينه ، وكثيراً ما يمرض المحب بمرض محبوبه .

ومنها إذا سئل عن أمر ،أجاب بخلافه وكثرة التثاؤب والتمطي والكسل ، إذا نظر إلى محبوبه ونكته في الأرض بإبهام رجله ، وهذا كثيراً ما يقع للنساء وعضها على شفتها السفلى وضربها على عضديها أو ثديها وإظهار محاسنها لمن تهواه توهمه أنها تري ذلك لبعض أهلها ونظرها إلى أعطافها ووضعها الحديث في غير موضعه .

ومنها الانقياد للمحبوب في جميع ما يختاره من خير وشر ، فإن كان المحبوب مشغوفاً بالعلم اجتهد المحب في طلبه أشد من اجتهاده ، وإن كان مشغوفاً بالنوادر والحكايات الحسان والأخبار المليحة المستحسنة بالغ المحب في طلبها وحفظها ، وإن كان مشغوفاً بحرفة أو صناعة اجتهد في تعلمها ما أمكنه ذلك فالمحبة النافعة ان يقع الإنسان على عشق كامل يحيله عشقه على

طلب الكمال ، والبلية كل البلية أن يبتلى الإنسان بمحبة فارغ بطال صغر من كل خير يحمله حبه على التشبه به .

وفي أخبار العشاق أن عاشقاً عشق السراويلات من أجل سراويل معشوقته فوجد في تركته اثنا عشر حملاً وفردة من السراويلات ذكره الصحيري .

وقيل لبعض العلماء : إن ابنك قد عشق ، فقال : الحمد لله الآن رقت حواشيه ولطفت معانيه وملحت إشاراته وظرفت حركاته وحسنت عباراته وجادت رسائله ، وجلت شمائله فواظب على المليح واجتنب القبيح .

وقيل لآخر كذلك فقال : لا بأس بذلك إذا عشق لطف وظرف ودق ورق .

وقيل : أرواح العشاق عطرة لطيفة وأبدانهم ضعيفة وأرواحهم بطيئة الانقياد لمن قادها حاشا سكنها الذي سكنت إليه وعقدت حبها عليه .

وسئل أبو نوفل : هل سلم أحد من العشق ؟ فقال : نعم الجلف الجافي الذي ليس له فضل ، ولا عنده فهم ، فأما من في طبعه أدنى ظرف أو معه دماثة أهل الحجاز وظرف أهل العراق فلا يسلم منه .

وقال بعضهم : لا يخلو أحد من صبوة إلا أن يكون جافي الخلقة ناقصاً أو منقوص البنية ، أو على خلاف تركيب الاعتدال .

وذهب جماعة من الأطباء وغيرهم إلى انه اختياري لا اضطراري ، وانه مرض ووسواس يجلبه المرء إلى نفسه بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور والشمائل .

وعقب على ذلك داود الأنطاكي فقال : والقول الصحيح الذي ليس

فيه رد ولا عن محبوبــه صد التفصيــل في ذلك ، فمنهم مَن إذا رأى الصورة الحسنة مات من شدة ما يرد على قلبه من الدهش ، وأمثال هذا العشق اضطراري والمخالفة فيه مكابرة في المحسوس ، ومنهم من يكون أول عشقه الاستحسان للشخص ، ثم تحدث له إرادة القرب منه ، ثم المودة ، وهو أن يود لو ملكه ، ثم يقوى الود فيصير محبة ، ثم يصير خلة ، ثم يصير هوى ، ثم يصير عشقاً ، ثم يصير تتيماً والتتيم حالة يصير بها المعشوق مالكاً للعاشق ، ثم يزيد التتيم فيصير ولهاً ، ثم الخروج عن حد الترتيب والتعطل عن التمييز ، فهذا وأمثاله مبدأ عشقه اختياري ، لأنه كان يمكنه دفع ذلك وحسم مادته على أن هذا النوع أيضاً إذا انتهى بصاحبه إلى ما ذكره ، صار اضطرارياً كما قال الشاعر :

العشق أول ما يكون مجـــانة فإذا تمكن صار شغلاً شاغلا

والمحبة على قسمين : القسم الأول محبة غرضية ، فهذه لا يجب الاشتراك فيها ، بل يقابلها مقت المحبوب ، وبغضه للحب كثيراً ، إلاّ إذا كان له معه غرض نظير غرضه ، فإنه يحبه لغرضه منه ، كما يكون بين الرجل والمرأة ، لأن لكل منهما غرضا مع صاحبه .

والقسم الثاني محبة روحانية ، سببها المشاكلة والاتفاق بين الروحين ، فهذه لا تكون إلاّ من الجانبين ، ولا بد فلو فتش المحب محبة صادقة قلب محبوبه لوجد عنده من محبته نظير ما عنده أو فوقه أو دونه .

وذكر بعضهم أن سبب المحبة ثلاثة أشياء ، إما رؤية صورة أو سماع نغمة أو سماع صفة فهذه الثلاثة هي أصل ينبوع المحبة ، إذ لا يخلو حب أحد من أن يستند إلى شيء منها ، وقد قيل : ثلاث محبات ، فحب علاقة ، وحب تملاق وحب هو القتل . وأحوال الناس تختلف في ذلك ، فمنهم من يحب

بمجرد الوصف دون المعاينة فيغني بمن وصف له محبة وما رآه ولكن وصفه له واصف .

وأما تغيير الألوان عند العيان من صفرة وغيرها فتغير لون المحبين إذا وقعت العين في العين وهرب الدم إلى شبكة الدماغ ، فقد علل سبب اصفرار وجه العاشق الفزع ، فإن الدم لا يأوي مع الفزع ، وربما نظر المعشوق إلى العاشق فجأة . فيضطرب قلبه وتشتعل الحرارة ثم تخمد ، فإذا خمدت برد التامور وجمد الدم واستحال اللون إلى السواد والخضرة ، ثم يستقر فيصفر.

وأما إصفرار وجه المعشوق ،فحين خجل والخجل عرض من حركة تامور القلب ، فتجعل الدم يضغط وتلطفه ، فيظهر في أرق مكان في الوجه ، وذلك عند معالجة الحرارة العرضية ، ومجاهدتها الدم لما يندفع فيطلب الخلاص حتى ينتهي إلى تحت الرأس فيمنعه الحاجز من النفوذ فيهبط إلى الوجه فيحمر الوجه ، وقبيل الوجه الرقيق البشرة الصافي الأديم إلا خجل يحمر وإذا فزع يصفر ، ومنه قولهم ديباج الوجه يريدون تلونه من رقته .

ومغالطة الحبيب في نفسه وإلحاق يومه بأمسه ، وهو من أعظم حشوة وأكثرها رشوة وأحسنها اختراعاً وأكثرها خداعاً وأبلغها خطابة وأكثرها إصابة .

وقال ابن سناد الملك من رسالة : وأنا والله في أمرك مغلوب ، والسبب اني أنا المحب وأنت المحبوب ولا أتجالد عليك فأعزك وأخون حبك ، ولا أتصنع عليك فأغشك وأغم قلبك ، أعمل ما شئت فأنا الشاكر ، وقل ، فلي سمع يعشق قولك والتفت ترَ أمالي ترفرف حولك ، فافعل فأنت المعذور واستطل فها أنا المغرور ، بل المسرور وارجع إلى الود الذي بيننا فكل ذنب عليك مغفور .

وقالوا : ان الحب لا شفاء من هذا الداء العضال إلاّ بطبيب الوصال ، مثل غمز النهدين وقرع الشفتين والتصاق البدنين .

وقالت جماعة أن الحب إذا نكح فسد ، ومنهم من قال لا يستحكم الحب إلاّ بعد إيقاع الوطء ، ازدادت المحبة ، ويسمونه مسمار المحبة (١) .

وقال عبد الله بن جعفر المديني : قلت لأبي زهير المديني : ما العشق ؟ قال : الجنون والذل وهو داء أهل الظرف .

وقال يحيى بن معاذ : لو كان إليّ من الأمر شيء ما عذبت العشاق لأن ذنوبهم ذنوب اضطرار لا ذنوب اختيار (٢) .

وقال العباس بن الأحنف في الإفراط في الحب :

خليلي ما للعاشقين قلوب   وما لعيون الناظرات ذنوب
ويا معشر العشاق ما أصعب الهوى   إذا كان ما يلقى المحب حبيب (٣)

وقيل : إن الملوك لقدرتهم على من يحبونه بالنقود والفضة والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، نعم قد يعيش الملك العظيم فلا يذهب به عشقه إلى ترك تدبير ملكه ، وإنما أكثر ما يظهر من أمر الملوك أن يضعوا محبوبهم في مقام مالكهم وهم مالكوه .

وقال بعضهم : الحب حرفان حاء وباء فحاؤه حيرة وحزن (٤) .

وسئلت اعرابية عن الهوى ؟ فقالت : لا متع الهوى بملكه ، ولامني بسلطانه ، وقبض الله يده وأوهن عضده ، فإنه جائر لا ينصف في حكم أعمى

---

(١) ابن أبـي حجلة : ديوان الصبابة .
(٢) السراج : مصارع العشاق .
(٣) المسامرات (مخطوطة) .
(٤) مسعود القنّاوي : فتح الرحيم الرحمن شرح لامية المعجم لابن الوردي.

لا ينطق بعدل ولا يقصر في ظلم ، ولا يرعوي للذم ولا ينقاد لحق ولا يبقي على عقل وفهم ، لو ملك الهوى وأطيع لرد الأمور على ادبارها ، والدنيا على أعقابها [1] .

وقال الشيرازي في روضة القلوب : اعلم ان الناس قد كثر كلامهم في وصف المحبـــة ونعت المعشوق ، فأهل الطب يجعلون العشق مرضاً دماغياً يتولد عن النظر والسماع ويجعلون له علاجاً كسائر الأمراض الدماغية .

وهو مراتب ودرجات بعضاً فوق بعض ، فأول مرتبة منه تسمى الاستحسان وهي المتولدة عن النظر والسماع ، ثم تقوى هذه المرتبة بطول الفكرة في محاسن المحبوب وصفاته الجميلة ، فتصير مودة ، وهي الميل إليه ثم تتأكد المودة فتصير محبة وهي الائتلاف الروحاني ، فإذا قويت صارت خلة وهي بين الآدميين تمكن أحدهما من قلب الآخر حتى تسقط بينهما السرائر ثم تقوى الخلة فتصير هوى ، وهو ان الحب لا يخالطه في محبة محبوبه تغير ولا يداخله تلون ، ثم يزيد الهوى فيصير عشقاً ، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الشهوانية ، فيمتنع عن الطعام والنوم ، فإذا قوي العشق صار تتيماً ، وفي هذه الحالة لا يوجد في قلبه فضل لغير صورة المعشوق ولا ترضى نفسه سواها ، فإذا تزايد الحال ذلك ، ولها عن المحبة ، فقال : هي حلوة المبدأ مرة العقبى .

وقيل لبعض المحبين كيف وجدت الحب ؟ قال : نار لا يخبو سعيرها ولا يخمد زفيرها .

وقال بعضهم : المحبة ميلك إلى رضا محبوبك ولو بهلاك نفسك .

وقال بعضهم : المحبة محو الأشباح وذوب الأرواح .

---

(١) زهر الآداب ٣ : ١٨ .

وقال بعضهم : ان المحبة قوة غريزية تحدث للشجاع جبناً وللجبان شجاعة، وتؤدي إلى الداء العضال الذي لا دواء له .

وقال بعضهم : المحبة أن لا ينظر المحب لعيوب المحبوب [1] .

المصادر العربية المخطوطة :

ابن ابي شيبه : المصنف .
البغوي : المصابيح .
النابلسي : كنز الحقائق .
ابن عربي (منسوب) : المسامرات .
ابن الجوزي : المدهش .
ابن قيم الجوزية : أخبار النساء .
السيوطي : المحاضرات والمحاورات .
عبد الرحمن الصفوري : نزهة المحال .
الزمخشري : ربيع الأبرار .
الحريري : الجليس والأنيس .
صلاح الدين الصفدي : شرح لامية العجم .
لسان الدين بن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف .

المصادر العربية المطبوعة :

الدارمي : السنن .
ابن عربي : الفتوحات المكية .

---

(١) مسعود القناوي : فتح الرحيم - شرح لامية ابن الوردي .

القشيري : الرسالة القشيرية .
السهروردي : عوارض المعارف .
عبد الله بن علي السراج الطوسي : اللمع في التصوف .
الشافعي : الديوان .
ابن رشيق : العمدة .
الجاحظ : العشق والنساء .
عبد الله بن الدّمَيْنة : الديوان .
المسعودي : مروج الذهب .
الجاحظ : القيان .
ابن مسكويه : الأخلاق .
أبو الطيب محمد بن إسحاق الوشاء : الظرف والظرفاء .
المبرد : الكامل .
ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة في الألفة والألاّف .
اخوان الصفا : رسائل اخوان الصفا .
ابن قيم الجوزية : روضة المحبين .
داود الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .
شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة المغربي : ديوان الصبابة .
مصطفى العروسي : نتائج الأفكار القدسيه في معاني الرسالة القشيريه .
النويري : نهاية الأرب .
أبو جعفر السراج القاري : مصارع العشاق .
الأصبهاني : محاضرات الأدباء .
مسعود القناوي : فتح الرحيم الرحمن شرح لامية ابن الوردي .
أبو إسحاق الحصري القيرواني : زهر الآداب وثمرات الألباب .
ابن سينا : رسالة في العشق .
محمد بن أحمد بدر المشهور بأم ذبان : سراج السائدين .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢ / ٢٤ .
الجاحظ : المحاسن والأضداد .
الجاحظ : الحيوان .
الجاحظ : البيان والتبيين ٢ / ٥٥ .
الأصفهاني : الأغاني ٣ / ٤٠ .
نزهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع .
أحمد بن يوسف الفاسي : شرح رائية أحمد الثري الشريشي .

الحبُّ: أقسامُه وأشكالُه

يمكن تقسيم الحب عند العرب إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ الحب المعروف والمتداول بين الناس والتمازج بينهم ، وينتهي هذا الشكل من الحب إما بعقد قران وزواج ، أو بمصاحبة ومضاجعة بشكل غير شرعي وشاذ .

٢ ـ الحب العذري ، وينتهي هذا النوع من الحب إما بإصابة أحد المحبين المتيمين ، أو المحب والمحبوب معاً بعاهات جسدية ونفسية تنتهي حياة أحدهما أو كل منهما بالهلاك والموت الزؤام .

٣ ـ الحب الإلهي ، فتسمو روح الإنسان فيه ، وتتغلب على حواس الجسد المعروفة وتقوى عليها، وتتكشف أمام المحب حالات روحية خارقة ، وذوقية غير ملموسة بالحس الجسدي وغير متذوقة لدى الآخرين من العالم ، وقد تطرق بعضهم إلى ذكر شيء من ذلك الحب الأسمى وسنذكر ذلك إن شاء الله عند بحثنا في ذلك الحب .

بحث الجاحظ في العشق والنساء ، فقال : الحب هو أصل الهوى ، والهوى الذي يتفرع منه العشق ، والعشق الذي يهيم له الإنسان على وجهه أو يموت

كمداً على فراشه ، وأول ذلك إدخال الضيم على مروءته واستشعار الذلة لمن أطاف بعشيقته ولم نطنب مع ذلك في ذكر ما يتعشق من أهل الحب من الرحمة والرقة وحب الأموال النفيسة والمراتب الرفيعة وحب الرعية للأئمة وحب المصطنع لصاحب الضيعة مع اختلاف مواقع ذلك من النفوس ومع تفاوت طبقاته في العواقب .

وليس كل حب يسمى عشقاً ، وإنما العشق اسم للفاضل عن ذلك المقدار كما أن السرف اسم لما زاد على المقدار الذي يسمى جوداً .

قال عروة بين الزبير : والله اني لأعشق الشرف كما تعشق المرأة الحسناء .

ووجدنا العشق كلما كان أرسخ وصاحبه به أكلف فإن موقع لذة الظفر منه أرسخ وسروره بذلك أبهج .

وإنّا لم نجد أحداً ممن عشق والديه ولا ولده ، ولا من عشق مراكبه ومنزله ، كما رأيناهم يموتون من عشق النساء الحرام .

ورجلان من الناس لا يعشقان عشق الأعراب ، أحدهما الفقير المدقع ، فإن قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن لأن فيه الرياسة الكبرى وفي جواز الأمر ونفاذ النهي ، وفي ملك رقاب الأمم ما يشغل قوى العقل عن التوغل في الحب والاحتراق في العشق .

ونحن وإن رأينا ان فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر ، فليس ينبغي لنا أن لا نقصر في حقوق المرأة ، وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء ، أن يصغر حقوق الأمهات .

ورأيت أكثر الناس من أهل البصر بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة. والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينة والممشوقة ، ولا بد من جودة القد وحسن الخرط واعتدال المنكبين واستواء الظهر ولا بد من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والضعيفة ، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول (١) .

وقال الجاحظ : ومن آفة عشق القيان على كثرة فضائلهن وسكون النفوس إليهن ، ولأنهن يجمعن للإنسان من اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض ، واللذات كلها إنما تكون بالحواس . . . فللعين النظر إلى القينة الحسناء أو المشهية إن كان الحذق والجمال لا يكاد أن يجتمعا لمستمتع ومرتع ، وللسمع منها حظ الذي لا مؤنة عليه ، ولا تطرب آلته إلاّ اليد وللمس فيها الشهوة والحنين إلى الباه والحواس كلها ، رواد للقلب وشهود عنده .

وفي الأثر (إياكم والنظر فإنها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة) فكيف بالنظر والشهوة إذا صاحبها السماع وتكانفتها المغازلة .

إن القينة لا تكاد تخالص في عشقها ولا تناصح في ودها ، لأنها مكتسبة ومجبولة نصب الحبالة والشرك للمتربطين ليضعوا في أنشوطتها ، فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ وداعبته بالتبسم وغازلته في أشعار الغناء ولهجت باقتراحاته ونشطت للشرب وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته والحزن لفراقه تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه وأوهمته أن الذي بها أكثر مما به منها . . .

---

(١) الجاحظ : رسالة في العشق والنساء .

ثم إذا منعن الزنا غلبه عليهن مخارج بيوت الكشاخنة ترميهن في جحور الزناة ، ثم هن أمهات أولاد مَنْ قد بلغ بالحب لهن إن غفروا لهن كل ذنب وأغضوا منهن على كل عيب ، وإذ كن في منزل رجل من السوقة عذرتهن فإذا انتقلن إلى منازل الملوك زال العذر ، والسبب فيه واحد والعلة سواء .

وكيف تسلم القينة من الفتنه أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنها تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصدر عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والأخانيث وبين الخلفاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة تروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات عدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر إلا عن غفلة . . . وإنما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة [١].

وقال الجاحظ : وكثيراً ما يعتري العشاق والمحبين غير المحترفين ، كالرجل تكون له جارية ، وقد حلت من قلبه محلاً ، وتمكنت منه تمكناً لا يجنب أصل ذلك الحب الغضبة تعرض وكثرة التأذي بالخلاف يكون منها ، فيجد الفترة عنها لبعض هذه الحالات التي تعرض ، فيظن انه قد سلا أو يظن أنه في عزائه عنها على فقدها محتملاً بيعها إن كانت أمة أو طلاقها إن كانت زوجة ، فلا ينشب ذلك الغضب أن يزول ، وذلك الأذى أن ينسى فتحرك له الدقائق ويثمر ذلك الغرس فيتبعها قلبه ، فإما أن يسترجع الأمة من مبتاعها بأضعاف ثمنها أو يسترجع الزوجة بعد أن نكحت فإن تصبر وأمكنه الصبر

---

(١) الجاحظ : رسالة في القيان .

لم يزل معذباً ، وإن أطاع هواه واحتمل المكروه، فهذا هو العقاب بل والنكس فليحذر الحازم الفترة ، يجدها في حب حبيبه والغضبة التي تنسيه عواقب أمره .

ولم أسمع ولم أقرأ في الأحاديث المولدة في شأن العشاق في القلوب والأكباد والأحشاء والزفرات والحنين ، وفي التدليه والتوليه ، ومتى تسعد الدمعة ومتى يورب العين الجمود ، ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر ، وأظهر فليس ينبغي لنا أن لا نقصر في حقوق الأمهات ، وكذلك الأخوة والأخوات والبنون والبنات ، وأنا وإن كنت أرى أن هو هذا أعظم فإن هذه أرحم .

قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجل من أكبر المهيرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة والحرة.

وإنما يستثار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً والرجال بالنساء أبصر ، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك ، وقد تحسن المرأة أن تقول كأن أنفها السيف ، وكأن عينها عين غزال ، وكأن عنقها إبريق فضة ، وكأن ساقها جمارة وكأن شعرها العناقيد وكأن أطرافها المداري وأشبه ذلك ، وهناك أسباب أخر بها يكون الحب والبغض .

رأيت أكثر الناس من أهل البصر بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة والمجدولة من النساء تكون بين السمينة والممشوقة ولا بد من جودة القدر وحسن الخرط واعتدال المنكبين واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون كاسية العظام بين الممتلئة والضعيفة ، وإنما يريدون بقولهم مجدولة

جودة العصب وقلة الاسترخاء ، وان تكون سليمة من الزوائد والفضول [1] .

قال النبي (ص) : باعدوا بين أنفاس النساء والرجال ، فإن المعاينة واللقاء كان الداء الذي لا دواء له .

قال عمر بن الخطاب : اخرجوهن بالعري فإن النساء يخرجن إلى الأعراس ويقعن في المناحات ويظهرن في الأعياد ، ومتى كثر خروجهن لم يعد بدّ من أن يرين مَن هو من شكلهن ، ولو كان بعلهن أتم حسناً وأحسن وجهاً ، والذي رأت أنقص حسناً ، ولكان ما لا تملكه أظرف عندها مما تملكه ، ولكان ما لم تملكه أو تستكثر منه أشد لها اشتغالاً واجتذاباً .

قال سليمان بن داود الهاشمي لابنه : لا تكثر الغيرة على أهلك فترمي بالشر من أجلك ، وإن كانت بريئة ولا تكثر الضحك فيستخفك فؤاد الرجل الحليم وعليك بخشية الله فإنها غلبت كل شيء .

وقال عبد الله بن جعفر لابنته : إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق وإياك وكثرة العتب فإنه يورث البغضاء وعليك بالكحل فإنه أزين الزينة وأطيب الطيب الماء [2] .

وكانت مهدية بنت جبير التغلبية تقول : ما في بطن الرجل بضعة أحب إلى المرأة من بضعة تناط بعقد الحالبين ومنفرج الرجلين .

وحدثني جهم قال : قلت لامرأة من كلب ما أحب الأشياء من الرجال إلى النساء ؟ قالت : ما يكثر الأعداد ويزيد في الأولاد حربة في غلاف تناط بحقوى رجل جاف إذا غافس أدهى وإذا جامع أنجى . قال : وقال أبو ثمامة

---

(١) الجاحظ : العشق والنساء .

(٢) الجاحظ : المحاسن والأضداد .

لامرأة من زبيد وهي تبكي عند قبر من الميت قالت : كان يجمع بين حاجبي والساق ويهزني هز الصارم الأعناق والله لولا ما ذكرته لك ما استهلت بالدموع عيناي وقد كذبتك امرأة تبكي على زوجها لغير ما أعلمتك .

وقال العجاج : تزوج العجاج امرأة يقال لها : الدهناء بنت مسحل ، فلم يقدر عليها ، فشكت ذلك إلى أهلها فسألوه فراقها ، فأبى وقال لأبيها نطلب لابنتك إياه ؟ قال نعم عسى أن ترزق ولداً فإن مات كان قرطاً وإن عاش كان قرة عين (١) .

وقالت امرأة من خثعم :

فإن تسألوني من أحب فإنني   أحب وبيت الله كعب بن طارق
أحب الفتى الحق السلول ناضلاً   على الناس معتاد الضرب المفارق

وخطب عبد الله بن مسعود ، فقال في خطبته: النساء حبالة الشيطان (٢) .

وقال الجاحظ : ألا ترى أن الغيرة إذا جاوزت ما حرم الله فهو باطل ، وإنا بالنساء لضعفهن أولع حتى يغرن على الظن والحلم في النوم ، وتغار المرأة على أبيها وتعادي امرأته وسريرته ، ولم يزل القيان عند الملوك من العرب والعجم على وجه الدهر (٣) .

قال رسول الله (ص) : من الغيرة التي يحب ، فالغيرة في الريبة ، وأما الغيرة التي يبغض فالغيرة في غير ريبة (٤) .

قال معاوية : ثلاث خصال من السؤدد : الصلح واندماج البطن وترك الإفراط في الغيرة .

---

(١) الجاحظ : المحاسن والأضداد .
(٢) الجاحظ : الحيوان ٣ : ١٦ .
(٣) الجاحظ : البيان والتبيين . ٢ : ٥٥
(٤) الجاحظ : القيان .

ولما نزل قيس بن زهير ببعض العرب ، قال لهم : إني غيور وأنا فخور وأنا آنف ، ولكن لا أغار حتّى أرى ولا أفخر حتّى أفعل ولا آنف حتّى أضام ، فعابوه بقوله : لا أغار حتى أرى ويظن به عنى إلى رؤية السبب لا رؤية المرافقة ، وعابوا معاوية أيضاً بقوله هذا ، ونسبوه إلى قلة الغيرة وما أرى في قوله وترك الإفراط عيباً ، لأن الإفراط المجاوز للحق ولمقدار المصلحة وظلم الحليلة الضعيفة والحرمة الكريمة غير لائق .

وعن الأصمعي قال : كان عقيل بن علقمة غيوراً ، وكان الخلفاء يصاهرونه ، وكانت له ابنة يقال لها الحرباء ، فكان إذا خرج إلى الشام ، خرج بها لفرط غيرته .

ومما يحدث الهوى في قلوب النساء لغير أزواجهن ويدعوهن إلى الحرص على الرجال والطلب لهن أمور منها ، ان يظهر أو يكون الرجل منهمكاً في النساء مظاهراً لها بالزنا ، فإن ذلك مما يفرط بها بطلب الرجال والحرص عليهم .

وقال الشاعر :

ما أحسن الغيرة في حينهـــا وأقبح الغيرة في كل حين
مـــن لم يزل متهمـــاً عرسه متبعاً فيها لرجم الظنون
أوشك أن يغريهـــا بالذي منك إلى عرض نقي ودين
لا تطلع منك عـــلى ريبـــة فيتبع المغرور حبل القرين

وقال الشاعر :

لا تأمنن على النساء ولو أخا ما في الرجال على النساء أمين
كل الرجال وإن تعفف جهده لا بـــد أنّ بنظرة سيخون

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : قيل لعقيل بن علقمة وكان شديد

الغيرة وأراد سفراً أين غيرتك على من تخلف ؟ قال : أخلف معهن الجوع والعري فإنهن إذا جعن لم يمزحن وإذا عرين لم يبرحن [1] .

وروي عن النبي (ص) قوله : لا خير فيمن لا يغار ، وقيل كل حب بلا غيرة فهو حب كذاب ، وقيل : لا كرم في مَن لا يغار . وقال قيس ابن زهير لما تزوج في غير قومه لامرأته أنا غيور فخور آنف ، ولكني لا آنف حتى أضار ، ولا أفخر حتى أفاخر ولا أغار حتى أرى ، وإنها عن رؤية الإثارة لا رؤية المواقعة ودخول الميل في المكحلة .

وقيل كثرة الغيرة ، ضجار ، وقلتها اغترار .

وروي في الخبر أن امرأة غارت فصبرت دخلت الجنة . وقيل : غيرة النساء أشد من غيرة الرجال . وقيل : هذا خطأ فليس ما ينال المرأة إذا رأت امرأة على فراش زوجها من جنس ما ينال الرجل إذا رأى رجلاً على فراش امرأته [2] .

وقيل : مراتب الغيرة هي باعثة النفوس ، مادتها المروءة والمحبة ، ثم تزيد وتختلف بحسب الدواعي والأشخاص ، والمحمود منها ما كان واقعاً عند مشاهدة نقص في ناموس إلهي وحكم ديني ونمط شرعي ، فتبعث المتانة في الدين ، والمروءة على إصلاح ما نقص باليد إن أمكن ، ثم اللسان ثم القلب ، ثم توسع الناس فيها باسم (الغيرة) فأضافوا إليها سوء الظن ، فوقعوا بذلك في مفاسد كثيرة كنهي بعض جهلة المتصوفة عن ذكر الله غيرة عليه والحج والصلاة وغير ذلك مدّعياً انه ليس بأهل لها ، وقتل بعض العشاق من يتوهم منه ميلاً إلى محبوبه بل نفسه ، بل معشوقه ،ولهم فيها كلام كثير في قوالب شتى [3] .

---

(١) ابن قيم الجوزية : أخبار النساء .

(٢) الأصبهاني : محاضرات الأدباء .

(٣) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .

وقال الزمخشري : وإياك والتغاير السقم والريبة إلى الريب [1] .

وعن بريدة قال : قال رسول الله (ص) لعلي يا علي لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة [2] .

وحكي عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك ؛ أنه قال : لم تقل العرب بيتاً أغزل من قول جميل بن معمر :

لكل حديث بينهن بشاشة   وكل قتيل عندهن شهيد

فضلته بهذا البيت سكينة بنت الحسين بن علي به دون جماعة مَن حضر من الشعراء [3] .

وقال الشافعي :

أكثر الناس في النساء وقالوا   إن حب النساء جهد البلاء
ليس حب النساء جهداً ولكن   قرب من لا تحب جهد البلاء [4]

ونهى المهدي بشاراً عن ذكر النساء ، وكان المهدي من أشد الناس غيرة[5].
وقال الوشاء : اعلم انه لم يبتل أحد من أهل المروءات والأدب وأهل التظرف والأرب ، ولا امتحن سراة الفتيان ببلية هي أعظم من هوى القيان ، لأن حبهن حب كذوب وعشقهن عشق مشوب وهواهن منسوب إلى الملل ليس بثابت ، ولا متصل ، وإنما هو مطمع وغرض وهن سريعات الغرض يستدل على ذلك بأفعالهن الردية وأخلاقهن السيئة وإنهن لن يقصدن إلاّ أهل النّشَب (المال)ويصدفن عن ذوي الحسب وان محبتهن تظهر ما ظهرت

---

(١) الزمخشري : ربيع الأبرار (مخطوط) .
(٢) البغوي : المصابيح .
(٣) ابن رشيق : العمدة .
(٤) الشافعي : الديوان (مخطوط) .
(٥) الأصفهاني : الأغاني ٣/٤٠ .

علامات اليسار والمال ، وينتقلن عند الإفلاس والإقلال وليس إظهارهن للمحبة مما ينعقد عليه منهن ذوو الآداب ولا بما ينخدع به لهن ذوو الألباب ، وكل ذلك منهن غرور وخداع وزور ، ولا مرجع له ولا محصول ، وإنما أمرهن عند ذوي الجهالة مجهول وما رأيت لكثير رغبة في تعشق الإماء وقد أنشدني بعض الظرفاء :

ليس عشق الإماء من شكل مثلي   إنما يعشق الإماء العبيـــد
صل إذا ما وصلت حرة قوم ٍ   قد حماها آباؤها والجدود

ومن أول الأشياء على خبث سرائر الإماء : ان الواحدة منهن إذا رأت في مجلس فتىً له غنى وكثرة مال ويسار وحسن حال مالت إليه لتخدعه وأقبلت عليه لتصرعه ومنحته نظرها وأبدته بصرها وغزته بطرفها وأشارت إليه بكفها وغنت على كاساته ومالت إلى مرضاته وشربت من فضلة كأسه وأومأت إلى تقبيل رأسه حتى توقع المسكين في حبالها وترهفه باحتيالها وتعلق قلبه بحبها وتطمعه في قربها وتحويه بلطف تملقها وترهقه ، وتستبيه ببديع تقنعها وبالمكر والخداع وتطلبه للاجتماع وتباكيها لفرقته وتحازنها عند روحته ترسل إليه بالرسل وتعاديه بالختل وتخبره عن سهرها وتنبئه عن فكرها وتشكو إليه القلق وتخبره بالأرق ، الخ . . .

حتى إذا نفد اليسار وذهب الإكثار وأتلف المال وجاء الإقلال أظهرت الملل وأعلنت البدل وتبرمت بكلامه وضجرت بسلامه ، ومالت إلى سواه ونفرت بعد القرب وأبغضته بعد الحب فحينئذ يدرك المغرور الندم ويلحقه الأسف حين لا تغني عنه الحيلة ولا يجدي عليه اللهف .

وقال بعضهم : ان هوى القيان على ما فيهن من العيوب أسرع إلى النفوس وأوقع في القلوب وأغلق بالأرواح وأخلق للنجاح وهن أقرب أملاً وأقل

عللاً والظافر بهن أسرع من الظفر بربات الخدور والمحجبات وراء الستور وانهن مزورات وأولئك معدومات .

ومع ذلك فلا تعلق للشيوخ عندهن ولا لذوي القبح والعدم ، لا مطمع له بهن على أنهن يحتملن القبح والشيب مع اليسار ويكرهنهما مع الفقر والاقتار.

وهن على ما فيهن من سرعة الملل وما طبعهن عليه من البدل متمكنات من القلوب مبرآت عند محبتهن من العيوب، وإن من محمود ومذاهب الظرفاء الميل إلى مغازلة النساء ومداعبة القينات وحب النساء عندهن من حسن الاختيار .

ثم قال الوشاء : واعلم انه لا يصح العشق إلاّ لأربعة لذوي مروءة ظاهرة أو ذي طاهرة أو ذي مال واسع أو ذي أدب بارع ، ويقبح من سواهم ، لأن الفقير إذا تعدى طوره ورام أن يجاوز قدره قبح ذلك به كما انه يقبح بذي الغنى ترك التعرض لأسباب الهوى .

فلا ينبغي لأحد أن يذل لهواه فيشمت بنفسه أعداه ولا يركن إلى واحدة من النساء الحرائر والإماء ، فكلهن في الغدر سواء وما لواحدة منهن عهد ولا وفاء .

ومن أكثر المحال وأحمق المقال ، قناعة المرأة بصديق وصبرها على رفيق أحسن من فيهن حالاً وأقلهن اشغالاً من لها صاحب مشهور وخليل مستور وربيب تراسله وصديق تجامله وإن كان ذلك لا لمال ولا لطمع وآمال. .

وقد يجب على العاقل المتأدب وذوي الحنكة والتجارب أن يجعل المرأة (القينة) بمنزلة الريحانة يتنعم بنضرتها ويتمتع بزهوتها حتى إذا جاء أوان جفافها ، وحالت عن حالها في وقت قطافها نبذها من يده وألقاها وباعدها من مجلسه وقلاها إذ لم يبق فيها بقية لمستمتع ولا لذة لمتمتع (١) .

---

(١) أبو الطيب محمد بن إسحاق الوشاء : الظرف والظرفاء .

أخبر أبو العباس أحمد النيسابوري : ان هارون الرشيد كان يحب جارية ، وكانت تبغضه ، فكتب لها : إن التي عذبت نفسي بما قدرت كل العذاب فما أبقت ولا تركت . فلما رأتني باكياً ضحكت فعدت أضحك مسروراً بضحكتها حتى إذا ما رأتني ضاحكاً فبكت [1] .

وأما الآفات التي تجري على العاشق من المرض والضنا والجنون والمخاطرات بالنفوس وإلقائها إلى الهلاك فهي كثيرة جداً مشاهدة ومسموعة .

وأما مَن كفر بسبب العشق فكثيرون جداً لا ينحصرون،وأما من قتل بسبب العشق فلا يكاد ذلك يحصر كثرة وأعظمه وأشده عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، وذلك فقد عشق امرأة من تيم الرباب يقال لها قطام ، كانت من أجمل النساء ، وكانت ترى رأي الخوارج ، وقد قتل علي رضي الله عنه قومها يوم النهروان ،فلما رآها ابن ملجم عشقها ، فخطبها ، فقالت : لا أتزوجك إلاّ على ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة، وان تقتل علي بن أبي طالب، فحمله العشق على أن خسر الدنيا والآخرة ، وتزوجها على ذلك .
ومنهم من حمله العشق على قتل أبيه ، وهو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن الناصر. وأما من قتل بسبب العشق فكثير جداً لا يكاد يحصر [2] .
وقيل :
إذا لعب الرجال بكل شيء رأيت الحب يلعب بالرجال [2]

وقال ابن حزم : وإني لأسمع كثيراً ممن يقول : الوفاء في قمع الشهوات في الرجال دون النساء ، فأطيل العجب من ذلك ، وان لي قولاً لا أحول عنه : الرجال والنساء في الجنوح إلى هذين الشيئين سواء ، وما رجل عرضت

---

(١) الحريري الجليس والأنيس . (مخطوط) .
(٢) النويري : نهاية الأرب .
(٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي : أخبار النساء (مخطوط) .

له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ، ولم يكن ثم من مانع إلاّ وقع في شرك الشيطان ، واستهوته المعاصي واستفزه الحرص والطمع ، وما من امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلاّ وأمكنته حتماً مقضياً وحكماً نافذاً لا محيد عنه البتة . . . وهو أني ما رأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلاً يراها أو يسمع حسها إلاّ وأحدثت حركة فاضلة ، كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غنية مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك . . . والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء . وأما إظهار الزينة وترقيب المشي وإيقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة فهذا أشهر من الشمس في كل مكان .

ثم قال : ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف وترك ركوب المعصية والفاحشة ، وان لا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة وان لا يعصي مولاه المتفضل عليه الذي جعله مكاناً وأهلاً لأمره ونهيه (١) .

وقيل : واختلفت آراء الحذاق وتشعبت مرادات العشاق ، فمن ذاهب إلى أن الأفضل خزن الأسرار وان ذلك من فعل الأحرار ، ومن قائل ان إفشاءها يسر القلب ، ويسري الكرب ، ومن قائل بالتفصيل ، وان الإذاعة إلى المحبوب مطلوبة ، إذ هو الطبيب ، وكتم العلة عنده تعذيب . أما الإباحة لغيره فغير جائزة في مذهب المحبين وفاعلها ممقوت ، ومن أكبر المذنبين ، وهذا الطريق قد ادعى في ديوان الصبابة انه الكاشف عن وجهه نقابه ، ولا والله له فيه ذرة ولم يكن ارتضع من هذا اللقح درة (٢) .

وانقسمت العشاق إلى قسمين : قسم وفى له محبوبه وحصل له بعد الوعد

---

(١) أبو محمد علي بن حزم : طوق الحمامة في الالفة والالاف .

(٢) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .

مطلوبه ، وهو العزيز النادر ، وغير الوافي الوافر ، وقسم مات بغصته ، وحالت المنية بينه وبين أمنيته وانتهاز فرصته.

وأما الرضا بالدور من المحبوب والقناعة باليسير من المطلوب ، وإن طال الوعد وكثر الخضوع وامتد البعد ، وانسكبت الدموع فصفة العاشق القانع الملقي عن نفسه المطامع المنزه محبوبه عن التكليف المشفق عليه من نحو التعنيف ، وقد اتصف به جم غزير عدداً فيه أقل القليل أكثر الكثير (١) .

وقيل : الأصل في المحاسن والمطلوب عند العقلاء في كل المواطن ، إنما هو إصلاح السرائر وتهذيب البواطن لا الظواهر ، وإنما ضم إصلاح الظاهر إلى ما ذكر طلباً لتحصيل الكمال ودلالة في الأغلب على الاعتدال ويتم الأول بتحسين المقاصد وإصلاح العقائد وقصر القلب على عتاب الحق في تلك المواقف مستعداً بالمراصد مستعداً للأوامر الإلهية وتلغي ما في تلك الصحائف .

وأما المحاسن الظاهر اللائق ذكرها بهذا المحل . قال بعضهم : الحسن الصريح ما استنطق بالتسبيح أو هو تناسب الخلقة واعتدال البشرة وصفاء المادة أو مركب من الوضاءة والتناسب والصباحة .

وقيل : الحسن بياض اللون وسواد الشعر ، وكل منهما شطره ، والصباحة كالملاحة ، والبياض والجمال ما أخذ البصر ، أو هو السمن اشتقاقاً من اسم الشحم ، والصحيح انه معنى لا يدرك ويختلف باختلاف الأشخاص ودقة الأنظار وصحة التأدي إلى الأفكار ، وأهل الفراسة تجمل الجمال الظاهر دليلاً على اعتدال المزاج (٢) .

---

(١) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .

(٢) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .

وقيل : الصبر على تعنت المعشوق وتجنبه عن الصب المشوق والصفح عن التجني حين يذوق جناه ، وفسح سخطه وظلمه بظلمه ورضاه ، وهو أصل عند العشاق يبنى عليه ويرجع في قواعد مذهب المحبين إليه كما قيل :

شرط المحبة عند أرباب الهوى   ان المليح على التجني يعشق

لا يصدهم صد ولا يقفون من سيوف اللحظ عند حد ولا تأخذهم فيه لومة لائم ، ولا يعدون جور ما يرد من الظلم من المظالم .

قال ابن النبيه :

من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه   حلواً فقد جهل المحبة وادعى

وقد تلطفت عُليَّة بنت المهدي حيث تقول :

جبل الحب على الجور فلو   أنصف المحبون فيه لسمج
ليس يستحسن في شرع الهوى   عاشق يلحق تأليف الحجج

وقيل : لما كان التجني من المحبوب وتعنته الذي يكاد أن يفوت الغرض المطلوب ، يشتبه بالهجر والقطيعة ، ويسر التفريق بينهما على من لم يخض لجة هذه الشريعة ، وجب بعد أن أشرنا إلى حقيقة الأول ، هجر الدلال ان نشير إلى الثاني ونذكر ما له من الأقسام والمباني : القسم الأول هجر الدلال ، وهو الممدوح الصفات ، المقصود بالذات ، وسببه علم المحبوب بمكانته عند المحب وانه يتلذذ بالإساءة كما يتلذذ بالحسنة ولا تغيره الحوادث على اختلاف الأزمنة ، ولهذا إذا صفت مرآة أهل المحبة اتحدوا في كل رتبة فيقع لأحدهم بعد المبالغة في هذا الصفاء أن يعتقد ارتفاع الخلاف وإنصاف كل أحد بما عنده من الأوصاف فانظر إلى قول بهاء الدين زهير في قوله :

عتب الحبيب فلم أجـــد   سبباً لذاك العتب حادث
مـــا كنت أعلـــم انـــه   ممـــن تغـــيره الحوادث

والقسم الثاني هجر الملال ، وهو هجر منشؤه الملازمة مع اختلاف الحصال وتكون المحبة فيه غير عريقة ، بل منشؤها علة على الحقيقة وسببه ما ذكر من الاختلاف وتحري النفس طلب الاعتساف ، وعلامته تأثير مباعدة المكان وطول الأزمان ، وعلاجه التحبب والتخلق بخلق المراد وسلوك كل ما أراد ، وربما محبته الهدية والملاطفة بالأخلاق المرضية والصفح مع حسن الصبر والمجاوزة عن الزلة ، وان عظم الأمر وبعض العشاق من المترسمين حرج في علاجه بتباعد المكان والغيبة الممتدة إلى مدة من الزمان وفيه أنشد :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتحمدوا

هذا لا يحسن على إطلاقه إلاّ بعد تحقيق وثاقه ، وهو أن يكون للمحبة أمل وإنها ضعف بالملازمة وإلاّ فالبعد مع عدم ذلك غاية مطلوبة وصفة محبوبة .

والقسم الثالث وسماه بعض الصوفية : الأزلي ، وهذا التقابل والتدابر يجوز حمله على حقيقته ، ويجوز أن يراد به أمر معنوي ، غايته الاختلاف وأسباب هـذا كثيرة ، أعظمهـا عنـد المتمسكين بالشرائع اختلاف الأديان وعند مطلق العالم يستند إلى الإرادة الإلهية حيث يعجز أكمل مخلوقاته وعين أعيان سر صفائه عن قيام الناموس بدونها . ويرى بعضهم أن الثلاثة من متعلقات العشق ويجمع بين الكلاميين بتفاوت المراتب [1] .

---

(١) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .

المصادر العربية المخطوطة :

ابن أبي شيبة : المصنف .
ابن قيم الجوزية : أخبار النساء .
الشافعي : الديوان .
الحريري : الجليس والأنيس .

المصادر العربية المطبوعة :

الجاحظ : رسالة في العشق والنساء .
الجاحظ : رسالة في القيان .
الجاحظ : المحاسن والأضداد .
الجاحظ : البيان والتبيين .
الراغب الأصفهاني : محاضرات الأدباء .
دواد الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .
البغوي : المصابيح .
ابن رشيق : العمدة .
الأصفهاني : الأغاني
أبو الطيب محمد بن إسحاق الوشاء : الظرف والظرفاء .
النويري : نهاية الأرب .
أبو محمد علي بن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاّف .
ابن أبي حجلة المغربي : ديوان الصبابة .

الحب الجنسي

وذكر صاعد في كتاب الطبقات : العشق طمع يتولد في القلب ويتحرك وينمو ثم يتربى ، وتجتمع إليه مواد من الحرص وكلما قوي زاد صاحبه في الاهتياج واللجاج والتمادي في الطمع والفكر والأماني والحرص على الطلب ، حتى يؤديه ذلك إلى الغم المقلق ، ويكون احتراق الدم عند ذلك باستحالة السوداء أو إلتهاب الصفراء وانقلابها إليها ، ومن طبع السوداء إفساد الفكر ومع فساد الفكر يكون زوال العقل ورجاء ما لا يكون،وتمني ما لا يتم حتى يؤدي ذلك إلى الجنون فحينئذ ربما قتل العاشق نفسه وربما مات غماً .

وربما نظر إلى معشوقه ، فمات فرحاً، وربما شهق شهقة فتختنق روحه فيبقى أربعاً وعشرين ساعة فيظنون انه مات فيدفنونه وهو حي ، وربما تنفس الصعداء فتختنق نفسه في تامور قلبه ، وينضم عليها القلب ولا ينفرج حتى يموت وتراه إذا ذكر مَن يهواه هرب دمه واستحال .

ولم تزل العشاق تستحلي تجني الحبيب وتقول ضرب الحبيب زبيب .

شرط المحبة عند أرباب الهوى ان المليح على التجني يعشق لا يصدهم صد، ولا يقفون من سيوف اللحاظ عند حد ، فكم رأوا جور الحبيب عدلاً ، وقالوا : الحد إذا أقبل أهلاً وسهلاً لا يأخذهم فيه لومة لائم ولا يعدون الجور من المظالم .

وقد قسموا الهجر على أربعة أقسام ، فقالوا: هجر دلال وهجر ملال وهجر مكافأة على الذنب وهجر يوجبه البغض المتمكن في الصدور[1] ..

قال ابن أبي حجلة : عقدنا في أسباب العشق وعلاماته للكلام على أسباب العشرة النفسانية وعلاماته الجثمانية في أن هذا النوع الأخير كثير والمتصف به من المحبين جم غفير وسنورد من ذلك ما يعذب وروده وتخفق كقلب العاشق بنوده .

قال بعض الأطباء : سبب العشق النفساني الاستحسان والفكر وسببه البدني ارتفاع بخار رديء إلى الدماغ عن مني محتقن ، ولذلك أكثر ما يعتري العزاب وكثرة الجماع تزيله بسرعة .

وقال ابن الأكفاني في الخلاصة : علامته نحافة البدن وخلاء الجفن للسهر وكثرة ما يتصعد إليه من الأبخرة ، وغور العين وجفافها إلاّ عند البكاء وحركة الجفن ضاحكة ، كأنه ينظر إلى شيء لذيذ ونفس كثير الانقطاع والاسترداد والصعداء ونبض غير منتظم لا سيما عند ذكر أسماء وصفات مختلفة فأيها اشتد عنده اختلاف النبض وتغيير الوجه فهو .

ومن علاماته إغضاء المحب عند نظر محبوبه إليه ورميه بطرفه نحو الأرض وذلك من مهابته له وحيائه منه وعظمته في صدره . . . ومنها كثرة غيرته عليه ومحبة القتل والموت ليبلغ رضاه والاتصالات الحديثة إذا حدت ،واستغراب كل ما يأتي به ولو انه عين المحال وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وان ظلم

---

(١) ابن أبي حجلة : ديوان الصبابة .

والشهادة له وإن جاء ،واتباعه كيف يسلك ،والإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه والتعمد للقعود بقربه والدنو منه ، واطراح الأشغال الشاغلة عنه والزهد فيها ، والرغبة عنها والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته والتباطؤ في المشي عند القيام عند وجوده بكل ما يقدر عليه ، مما كان يتمتع به قبل ذلك كأنه هو الموهوب له وهذا قبل استعار نار الحب فإذا تمكن أعرض عن ذلك كله وبدله سؤالاً وتضرعاً كأنه يأخذه من المحبوب حتّى انه يبذل نفسه دون محبوبه . . . ومنها الانبساط الكثير الزائد والتضايق في المكان الواسع ، والمحاربة على الشيء يأخذه أحدها وكثْرة الفخر الخفي والحيل والتعمد للمس اليد عند المحادثة ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة وشرب ما أبقى المحبوب في الإناء ، ومنها تقبيل نعله فيغيبته. ومنها الاتفاق الواقع بين المحب والمحبوب ولا سيما إن كانت المحبة محبة مشاكلة ومناسبة ، فكثيراً ما يتكلم المحبوب بكلام ، أو يريد أن يتكلم به ليتكلم المحب به بعينه، وكثيراً ما يمرض المحب بمرض محبوبه .

ومنها أنه إذا سئل عن أمر أجاب بخلافه وكثْرة التأدب والتمطي والتكسل إذا نظر إلى محبوبه ونكته في الأرض بابهام رجله، وهذا كثيراً ما يقع للنساء وعضها على شفتها السفلى وضربها على عضديها أو ثديها وإظهار محاسنها لمن تهواه توهمه أنها تري ذلك لبعض أهلها ونظرها إلى أعطافها ووضعها الحديث في غير موضعه .

ومنها الانقياد للمحبوب في جميع ما يختاره من خير وشر ، فإن كان المحبوب مشغوفاً بالعلم اجتهد المحب في طلبه أشد من اجتهاده ، وإن كان مشغوفاً بالنوادر والحكايات الحسان والأخبار المليحة المستحسنة بالغ المحب في طلبها وحفظها، وإن كان مشغوفاً بحرفة أو صناعة اجتهد في تعلمها إن أمكنه ذلك ، فالمحبة النافعة أن يقع الإنسان على عشق كامل يحمله عشقه على

طلب الكمال ، والبلية أن يبتلي الإنسان بمحبة فارغ بطال صفر من كل خير فيحمله حبه على التشبه به .

وفي أخبار العشاق ان عاشقاً عشق السراويلات من أهل سراويل معشوقته، فوجد في تركته اثنا عشر حملاً وفردة من السراويلات ذكره الصحيري .

ومن المعلوم أن الشيء إذا كان عند العرب عظيماً وخطره جسيماً كالهزبر والرمح والسيف والداهية والمحبة المحرقة ، وما أدراك ماهية ووضعوا له أسماء كثيرة ، وكانت عنايتهم به شهيرة، ولا شيء يعدل اعتناءهم بالحب الذي يسلب اللب ، فأول مراتبه الهوى وهو ميل النفس وقد يطلق ويراد به نفس المحبوب ، ثم العلاقة وهي الحب اللازم للقلب ، وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب ثم الكلف وهو شدة الحب وأصله من الكلفة ، وهي المشقة يقال كلفه تكليفاً إذا أمره بما يشق عليه ، فكأن الحبيب يكلف المحب ما لا طيق ، ثم العشق وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب . وفي الصحاح : يالعشق فرط الحب .

وقال الشاعر :

لا خير في الدنيا بغير صبابة ولا في النعيم ليس فيه حبيب

وقال آخر :

إذا لم تذق في هذه الدار صبوة فموتك فيها والحياة سواء

وقال المتنبي :

وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت مَن لا يعشق

وقالوا : وأرواح العشاق عطرة لطيفة وأبدانهم ضعيفة وأرواحهم بطيئة الانقياد لمن قادها حاشا سكنها الذي سكنت إليه وعقدت حبها عليه.

وقال بعضهم : لا يخلو أحد من صبوة إلاّ أن يكون جافي الخلقة ناقصاً أو منقوص البنية أو على خلاف تركيب الاعتدال .

وأما ما جـاء في ذمه وسريان سمه ، فأكثر من أن يحصى ، فكم ترك الغني صعلوكاً والمالك مملوكاً . . . وكم من عاشق أتلف في معشوقه ماله وعرضه ونفسه .

قال الوأواء الدمشقي :

سبيل الهوى وعر وحلو الهوى مر   وبرد الهوى حر ويوم الهوى دهر

وقال محمد اليزيدي :

كيف يطيق الناس وصف الهوى   وهو جليـل مـا له قدر
بل كيف يصفو ولحليف الهوى   عشق وفيه البين والهجر

الهوى أكثر ما يستعمل في الحب المذموم ، وقد يستعمل في الحب الممدوح استعمالاً مقيداً .

وقال القاضي أبو عمرو محمد بن أحمد النوفاني في كتابه تحفة الظراف : العشاق معذورون على كل حال ، مغفور لهم جميع الأقوال والأفعال إذ العشق إنما دهاهم على غير اختيار ، بل اعتراهم على جبر واضطرار ، والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور لا في المقضي عليه والمقدور .

وقال التميمي في كتابه امتزاج الأرواح : سئل بعض الأطباء عن العشق ، فقال : ان وقوعه بأهله ليس باختيارهم ولا بحرصهم عليه ولا لذة لأكثرهم فيه ولكن وقوعه بهم كوقوع العلل المدنفة والأمراض المتلفة ، فقال : لا فرق بينه وبين ذلك .

وقال المدائني : لام رجل رجلاً من أهل الهوى ، فقال : لو كان الذي

هوى اختيار لاختار أن لا يهوى ، ولكن لا اختيار لذي هوى . قالوا : والعشق نوع من العذاب ، والعاقل لا يختار العذاب لنفسه .

وذهب جماعة من الأطباء وغيرهم رأى انه اختياري لا اضطراري والقول الصحيح الذي ليس فيه رد ولا عن محبوبه صد التفصيل في ذلك ، وهوان العشق يختلف باختلاف بني آدم وما جبلوا عليه من اللطافة ورقة الحاشية وغلظ الكبد وقساوة القلب ونفور الطباع وغير ذلك ، فمنهم من إذا رأى الصورة الحسنة مات من شدة ما يرد على قلبه من الدهش ، وأمثال هذا العشق اضطراري ، والمخالفة فيه مكابرة في المحسوس .

ومنهم من يكون أول عشقه الاستحسان للشخص ثم تحدث له إرادة القرب منه ، ثم المودة ، وهو ان يود لو ملكه ثم يقوى الود فيصير محبة ، ثم يصير خلة ثم يصير هوى ثم يصير عشقاً ، ثم يصير تتيماً والتتيم حالة يصير بها المعشوق مالكاً للعاشق ، ثم يزيد التتيم فيصير ولهاً ،والوله الخروج عن حد الترتيب والتعطل عن التمييز ، فهذا وأمثاله مبدأ عشقه اختياري لأنه كان يمكنه دفع ذلك وحسم مادته على أن هذا النوع أيضاً إذا انتهى بصاحبه إلى ما ذكر ، صار اضطرارياً كما قال الشاعر :

العشق أول ما يكون مجانة فإذا تمكن صار شغلاً شاغلا

وقال الشاعر :

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق
رأى لجـــة ظنها موجـــة فلما تمكن منها غرق

والمحبة على قسمين : القسم الأول محبة غرضية فهذه لا يجب الاشتراك فيها ، بل يقابلها مقت المحبوب وبغضه للمحب كثيراً إلاّ إذا كان له معه

غرض نظير غرضه فإنه يحبه لغرضه منه ، كما يكون بين الرجل والمرأة لأن لكل منهما غرضاً مع صاحبه .

والقسم الثاني محبة روحانية سببها المشاكلة والاتفاق بين الروحين ، فهذه لا تكون إلاّ من الجانبين ، ولا بد فلو فتش المحب محبة صادقة قلب محبوبه لوجد عنده من محبته نظير ما عنده أو فوقه أو دونه .

وأحوال الناس تختلف في ذلك ، فمنهم من يحب بمجرد الوصف دون المعاينة ، فيغني بمن وصف من محبة وما رآه ، ولكن وصفه له واصف .

وحاصل القضية ان من الناس من يعشق على السماع ، ويفنى في محبة مَن لا يراه ، ومنهم من يعشق باللمس والشم كما قيل :

والعين تعشق ما تهوى وتبصره   كذلك يعشق فيك الأنف والأذن

وكان يقال : مَن أطلق طرفه كثر أسفه ، ومن كثرت لحظاته دامت حسراته .

وقال أعرابي : العشق نبت بذره النظر وماؤه المزاورة ونماؤه الوصل ، وقتله الهجر ، وحصاده التجني .

وقال الصوري :

غرست الهوى باللحظ ثم احتقرته   وأحملته مستأنساً متسامحـــا
ولم تدر حتّى أينعت شجراته   وهبت رياح الوجد فيه لوافحا
فأمسيت تستدني من الصبر عازباً   عليك وتستدعي من النوم نازحا

وأما التفضيل بين البيض والسود والسمر ذوات النهود ، فما قيل في تفضيل السمر :

لا أعشق الأبيض المنفوخ من سمن ... لكنني أعشق السمر المهـــازيلا
اني امرؤ أركب المهر المضمر في ... يوم الرهان فدعني واركب الفيلا

وقال علي بن الجهم :

وعـــائب للسمر من جهلــه ... فيا ظبي مفضل للبيض ذي محك
قولوا لـــه دعنا أما تستحي ... من جعلك الكـــافور كالمسك

وقال الشريف الرضي :

أحبك باللون السواد فـــإنني ... رأيتك في العينين والقلب توأما
وما كان سهم العين لولاسوادها ... يبلغ حبات القلوب إذا رمى

وقال مسلمة :

لام العواذل في سوداء فاحمة ... كأنها في سواد القلب تمثـــال
وهام بالخال أقوام وما علموا ... اني أهيم بشخص كله خـــال

وقال ابن رشيق :

دعـــــا بك الحسن فاستجيبي ... يا مسك في صبغة وطيـــب
تيهي عـــلى البيض واستطيلي ... تيـــه شباب عـــلى مشيب
ولا يرعـــك أسود أو لون ... كمقلة الشـــادن الربيب

وأما ما قيل في تفضيل البيض على السود ، فأكثر من أن يذكر له شاهد أو يمتد إليه ساعد المساعد .

قال الجاحظ : والعرب تمدح بالبياض وتهجو بالسواد ، وربما مدحوا بالسواد .

وقال بعض السلف : جعل الله البهاء والهدج مع الطوال والدهاء والدمامة مع القصار ، والخير فيها بين ذلك ، وقال بعض الناس : يفضل السمان ويقول: السمنة نصف الحسن وهو يستر كل عيب في المرأة ويبدي محاسنها .

وأما غيرة المحب على المحبوب حتى من نفسه وأبناء جنسه ، والمحبون فيها نوعان والمضروبون بسوطها ضربان ، فالأول يحبه الله ورسوله ، ويتم به العاشق سؤله ، والثاني مذموم وصاحبه ملوم ، فالنوع المحبوب منها أن يغار عند قيام الريبة ، والنوع المذموم أن يغار عن غير ريبة ، بل من مجرد سوء الظن ، وهذه الغيرة تفسد المحبة ، ولا تترك منها حبة لأنها توقع العداوة بين المحب والمحبوب وربما حملته على الوقوع فيما اتهمه به ، ويترتب عليها مفاسد كثيرة مما يؤدي إلى فساد الصورة والحكايات في هذا الباب مشهورة .

وقال عبد الله بن شداد : الغيرة غيرتان : غيرة يصلح بها الرجل أهله وغيرة تدخل النار .

وأما الغيرة على المحبوب من الآدميين فللناس فيها ضروب وحسنات ، غالبها ذنوب ، فمنهم من يغار على المحبوب من النسيم ، إذا هب أو سمع انه في الدرب .

ومنهم من يغار عليه أي المحبوب من وصاله له مخافة أن يكون مفتاحاً لغيره كما قال علي بن عبد الله الجعبري :

ربمـــا سرني صدودك عمداً وطـــلابيك وامتنـــاعك عني
حذراً أن أكون مفتاح غيري فإذا مـــا خلوت كنت التمني

وقال آخر :

ولما رمت باللحظ غيري حسبتها كما آثرت بالعين تؤثر بالقلب
وإني لأرجو أن تدوم ببعدها ولكن سوء الظن من شدة الحب

ومنهم من يمتنع من ذكر محبوبه مخافة تعريضه لحب غيره له ، كما قال علي بن عيسى الرافعي :

ولست بواصف يوماً حبيبـــاً أعرضـــه لأهـــواء الرجال
وما بالي أشوق قلب غـــيري ودون وصاله ستر الحجال

وكثير من الجهال وصف امرأته ومحاسنها لغيره ، فكان ذلك سبب فراقها واتصالها بالموصوف له ، وذلك من قلة عقله وحمقه ، قال ابن أبي حجلة : وقد رأيت جماعة بهذه الصفة ، ومنهم من بالغ في الغيرة حتى قتل محبوبه بعده غيره ، كما ذكر ذلك عن جماعة من جملتهم ديك الجن الحمصي .

وأما إفشاء السر والكتمان وهزل كل منهما وجده ، ففيه مذهبان ، فمنهم من أباح إباحته ورأى في إفشائه راحة ، ومنهم من رأى في كتمانه من الديانة .

قال شهاب الدين السهروردي المقتول بحلب :

وارحمتـــــا للعاشقين تحملوا سر المحبـــة والهوى فضاح
بالسر ان باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء العـــاشقين تباح
وإذا هم كتموا تحدث عنهم عند الوشاة المدمع السفاح

ثم قال ابن أبي حجلة : والذي أراه في ذلك كله : ان المحب إذا علم من محبوبه الوفاء وعدم الجفاء فالواجب عليه إفشاء السر إلى الحبيب وإبداء العلة إلى الطبيب .

وقد قال بعض من مارس الحب وحلب أشطره : إفشاء المحب سره الى المحبوب وشكوى ما يقاسيه طرف من السحر ، بل السحر كله ومعظمه وجله.

ومنهم من يكتم عشقه خوفه أن يذهب المحبوب من أيديهم ، كما حصل لأحمد بن أبي عثمان الكاتب انه كان صديقاً لأبي الفضل عبد الغفار الأنصاري فعشق أحمد جارية لام جعفر اسمها نعمى وهام بها ،فأطلعه على سره ووصفها له ، فعشقها عبد الغفار الأنصاري ، فاعتل علة طويلة ، فاتصل خبره بأم جعفر وظنت ان به علة فوجهت إليه طبيباً فأنشد :

أرسلت أم جعفر لي طبيباً   لشكائي فضل علم الطبيب
ودوائي وأصل دائي لديها   في يدي شادن غرير ربيب
خبروها بان نعمى دوائي   كي تداوي مريضها عن قريب

فسمعت أم جعفر الأبيات ، وسألت عن قصته ، فلما وقعت عليها وهبته الجارية ، وهجر أحمد عبد الغفار ، وقال : جعلتك موضعاً لسري فأفسدت علي.والمفاسد المترتبة على إفشاء السر ان الغيرة كثيرة ، ولهذا قال أبو العلاء المعري :

فظن بسائر الإخوان شراً   ولا تأمن على سر فؤادا

وقال بشار :

لاخرجنّ من الدنيا وحبكم   بين الجوانح لم يعلم به أحد

وقال طلحة بن أبي بكر :

لا تظهــرنّ محبة لحبيــب فترى بعينك منه كل عجيب
أظهرتّ يوماً للحبيب مودتي فأخذت من هجرانه بنصيب

ووصف أعرابي قوماً ، فقال : سيوفهم آفات الأعمار وصدورهم قبور الأسرار . وما أحسن قول ابن مماتي من أبيات :

وضاق عليّ السجن حتى كأنني حللت به للضيق في صدر محنق
فيا ليتني كالدمع في جفن عاشق فأخرج أو كالسر في صدر أحمق

وقال العباس بن الأحنف :

باح دمعي فليس يكتم سراً ووجدت اللسان ذا كتمان

وأما مغالطة الحبيب في نفسه وإلحاق يومه بأمسه ، وهو من أعظم الأبواب حشوة ، وأكثرها رشوة وأحسنها اختراعاً وأكثرها خداعاً وأبلغها خطابة وأكثرها إصابة .

وقال ابن سنان الملك من رسالة : وأنا والله من أمرك مغلوب ، والسبب إني أنا المحب وأنت المحبوب ولا أتجالد عليك فأعزك وأخون حبك ولا أتصنع عليك فأغشك وأغم ما شئت فأنا الشاكر وقل قلبي سمع يعشق قولك والتفت تر آمالي ترفرف حولك فافعل فأنت المعذور واستطلق منها أنا المضرور، بل المسرور وارجع إلى الود بيننا فكل ذنب لك مغفور .

وقال الخرائطي : كان رجل نخاس عنده جارية لم يكن له مال غيرها ،

وكان يعرضها في المواسم ، فتغالى الناس فيها حتّى بلغت مبلغاً كثيراً من المال ، وهو يطلب الزيادة فعلقها رجل فقير ، فكاد عقله أن يذهب ، فلما بلغه ذلك وهبها له فعوقب في ذلك ، فقال : إني سمعت الله يقول : ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعاً ..

وسمع المهلب فتى يتغنى في جارية له ، فقال المهلب :

لعمري اني للمحبين راحم وإني بـين العاشقين حقيق
سأجمع منكم شمل ود مبدد وإني بمـا قد ترجوان خليق

ثم وهبها له ومعه خمسة آلاف دينار .

وحكى التميمي في كتابه امتزاج النفوس : ان معاوية بن أبي سفيان اشترى جارية من البحرين ، فأعجب بها إعجاباً شديداً ، فسمعها يوماً تنشد أبياتاً ، منها :

وفارقته كالغصن يهتز في الثرى طريراً وسيماً بعدما طر شاربه

فسألها ، فقالت له ، : هو ابن عم ، فردها إليه وفي قلبه منها شرر النيران .

وذكر الخرائطي : إن المهدي خرج إلى الحج حتّى إذا كان بزبالة وجلس يتغدى إذا شاب بدوي دخل عليه وبكى ، وقال : يا أمير المؤمنين : إني عاشق ، قال ادخلوه فأدخلوه ، فقال : من عشيقتك ؟ قال : ابنة عمي . قال : ألها أب ؟ قال : نعم .قال:فما له لا يزوجك بها ؟ قال: ههنا شيء يا أمير المؤمنين . قال : ما هو ! قال : إني هجين والهجين الذي أمه أمة ليست بعربية . قال له المهدي : فما يكون ؟ قال انه عنده عيب ، فأرسل في طلب

أبيها، فأتى به فقال: هذا ابن أخيك! قال: نعم. قال: فلم لا تزوجه كريمتك؟ فقال له مثل ما قال ابن أخيه، وكان من أولاد العباس عنده جماعة، فقال: هؤلاء كلهم بنو العباس وهم هجن، فما الذي يضرهم من ذلك؟ قال: هو عندنا عيب، فقال له المهدي زوجه إياها على عشرين ألف درهم عشرة آلاف للعيب وعشرة آلاف مهرها. قال: نعم، فحمد الله وأثنى عليه وزوجه إياها، وأتى ببدرتين فدفعهما إليه فأنشأ الشاب يقول:

ابتعت ظبية بالغلاء وإنما يعطي الغلاء لمثلها أمثالي
وتركت أسواق القباح لأهلها إن القباح وان رخصن غوالي

وذكر الخرائطي عن أبي عساف قال: مر أبو بكر بجارية وهي تقول:

وهويته من قبل قطع تمائمي متماشياً مثل القضيب الناعم

فسألها أحرة أنت أم مملوكة؟ فقالت: مملوكة، فقال من هواك، فتلكأت فأقسم عليها فأنشدت:

وأنا التي لعب الغرام بقلبها قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشتراها من مولاها وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب وقال: هؤلاء فتن الرجال فكم والله قد مات بهن كريم وعطب بهن سليم. وأجمعوا على الحب وأشاروا إليه انه لا شفاء من هذا الداء العضال إلاّ بطبيب الوصال، مثل غمز النهدين وقرع الشفتين والتصاق البدنين، وان جماعة قالوا: ان الحب إذا نكح فسد. ومنهم مَن قال لا يستحكم الحب إلاّ بعد إيقاع الوطء ازدادت المحبة ويسمونه مسمار المحبة.

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه وفي الهجر فهو الدهر يخشى ويتقي

وقال أيضاً:

زيدي أذى مهجتي أزدك هوى فأجهل الناس عاشق حاقد

وأما هجر الحلال فيثبطه مرور الأيام والليالي ، إما بتنائي الدار أو بطول الاختيار .

قال العباس بن الأحنف :

ما أراني إلاّ سأهجر من ليس يراني أقوى على الهجران
ملني واتقى بحسن الإخـــاء ما أضر الإخاء بالإنسان

وأما الهجر الذي يتولد عن الذنب ، فالتوبة تزيله من القلب عند الاعتراف بالذنب ، وأما الهجر الذي يوجبه البغض الطبيعي فهو الذي لا دواء له . قال الحصري : وهذا لا يصح بين ذوي الإخلاص وذوي الاختصاص ، إذ حقيقة المشاكلة تمنعه وصحة المناسبة تدفعه ، والذي يقوله ابن أبي حجلة ان هذا القسم مرضه مما لا يمكن علاجه ولا يعذب أجاجه فالمحبوب فيه لا يلام.

وأما الوعد والأماني فقد قال الشاعر :

اعلّل بالمنى قلبي لعــلي أروّح بالأماني الهمّ عني
واعلم ان وصلك لا يرجى ولكن لا أمل من التمني

ولم يزل المحبون يعللون بالأماني نفوسهم ويترعون براح راحتها كؤوسهم، فمنهم من فــاز بالأمنية قبــل حلول المنية ، ومنهم من مــات بأعظم غصة وما وقع الحبيب على قصة من نال من دنياه أمنيته ، أسقطت الأيام منها الإلف وهذا النوع الأخير كثير ، والسقيم به من المحبين جم غفير .

وقيل لأعرابي : ما أمتع لذات الدنيا ؟ فقال ممازحة الحبيب ومحادثة الصديق ، وأماني تقطع بها أيامك .

وقال علي بن أبي طالب : تجنبوا المنى فإنها تذهب بهجة ما خولتم وتصغر المواهب التي رزقتم .

وقال علي بن عبيدة : الأماني مخايل الجهل . والرضا من المحبوب بأيسر مطلوب ، والعاشق القنوع ممن يقنع من الحبيب بالنظر ، إذا حضر ،ويرضى منه بالسلام ولو مرة في العام ، فهو في الرضا منه بالنزر اليسير .

ومن أدى به الحب إلى النحول وإلى الذبول وأصبح كالطلل بين الطلول ، فهو من شدة الضرر كما قال صرور :

وكم ناحل بين تلك الحيا م تحسبه بين أطنابها
فمحبوبه في الجفاء واحد كالألــف وهو في رقته كالخيال يمشي إلى خلف

وأما ما يكابده الأحباب من الأمور الصعاب وغير ذلك ، فقد قال الطغرائي :

ومن طلب الأحبة كان أسخى ببذل النفس من كعب بن مامه
ومن طلب الغنائم لم يهب من نضى من دون مطلبه جامه

وقال محمد بن داود الظاهري :

حملت جبال الحب فيك وإنني لاعجز عن حمل القميص واضعف
وما الحب من حسن ولا من سماحة ولكنه شيء به الروح تكلف

وقال ابن أبي الحديد :

بالله ضع قدميك فوق محاجري فلقد قنعت من الوصال بذاكا
وأطل محادثتي فإن مسامعــي تهوى حديثك مثل ما أهواكا

ثم وصف أحمد بن يحيى بن أبي حجلة من أهل القرن الثامن الهجري (٧٢٥ – ٧٧٦ هـ) من ابتلي من أهل الزمان بحب النساء والغلمان . فقد ذكر عشاق زمانه فمنهم من اتصف بالانصاف وسلك طريقة السلف في العفاف ، وهذا النوع فيما يظهر أعز من الكبريت الأحمر ، لم أره ولا رأيت من رآه وإن وجدت اسمه فأين مسماه ، بل قصارى أهل هذا العصر يعشق أحدهم بكرة ويواصل الظهر ويسلو العصر ، وعلى هذا حكاية بعض العلماء ، من

أهل المدينة فيما حكاه عمرو بن شيبة قال : كان الرجل يحب الفتاة فيدور بدارها حولاً يفرح إن رأى مَن رآها ، فإذا ظفر بها في مجلسه تشاكيا وأنشد الأشعار ، واليوم يشير إليها وتشير إليه فيعدها وتعده فإذا التقيا لم يشكوا حباً ، ولم ينشدا شعراً وقام إليها كأنه على نكاحها أمين الاقتناء .

وإن الملوك ليسوا كغيرهم في العشق ،وإن الملك العظيم قد يعشق مرةويذهب به عشقه إلى ترك تدبير ملكه ، وهناك طبقة أخرى دون الملوك إذا عشقوا لم يتفرغوا لاشتغالهم بصنائعهم ، وطبقة أخرى يبخلون بأديانهم وعقولهم عن شغل قلوبهم بما لا يحل لهم ويحرم عليهم وما سوى هؤلاء فإن عشقهم عرض من الأعراض ، بل مرض من الأمراض إذا وصلوا إليه وربما صار هجراناً بل عداوة إلى آخر العمر ، وهذا هو الغالب على أهل زماننا هذا ، وهو أفسد أنواع الحب إذ يوجد عند الفراغ ويذهب عنه الشغل ويحدث عند غلبة الشهوة بالجفاء ويحب بقليل الوفاء ومن كانت هذه حاله سهل أمره وانطفأ بالبولة جمره ، فمن أهل العشق من اقتصر على دمية القصر ،فهام بالحسناء من النساء، ومنهم من خلع في الأمر العذار وقال للسلو عن وجنته الحمراء النار ولا العار، ومنهم من قرن بين الفريقين وجمع من المذكر والمؤنث بين الضدين ، فتراه يأتي على ما حضر ولا يتوقف عند صورة من الصور .

وذكر ابن أبي حجلة قول الرسول (ص) : ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء ، ثم قال : ولا سيما نساء هذا الزمان (القرن الثامن الهجري) من كل شمس خدر تطلع من قوادها بين قرني شيطان وغيرها ممن اشتغلت بالسحاق والخروج بعد زوجها من الباب أو الطاق كما قيل في معنى ذلك .

ثم ذكر من اتصف بالعفة فقال : العشق مع العفة في بني عذرة كثير والمقتول منهم عشقاً جم غفير .

وقيل لبعضهم وقد طال عشقه لجارية من قومه ما أنت صانع إن ظفرت بها ولا يراكما إلاّ الله ؟ قال: والله لا جعلته أهون الناظرين لا أفعل بها خالياً إلاّ ما أفعله بحضرة أهلها: حنين طويل ولحظ من بعيد واترك ما يكره الرب ويفسد الحب .

وقيل لآخر : ما كنت صانعاً لو ظفرت بمحبوبتك ؟ فقال ضمها ولثمها وعصيان الشيطان في أكمها ولا أفسد عشق عشرين سنة بلذة ساعة تفنى ويبقى حسابها إن فعلت هذا للئيم ولم يلدني كريم .

ثم ختم ابن أبي حجلة بحثه بذكر من مات من حبه وقدم على ربه، منهم : عبد الوهاب الأزدي وما ذكره التميمي في كتاب الامتزاج والمغلاطي والسراج ابن العلاء بن عبد الرحمن التغلبي وأبو القاسم التنوخي والجاحظ وابن عبد ربه ومحمد بن هارون وأبو القاسم الشروطي والمفضل الضبي ومصعب بن الزبير وأحمد بن محمد الغنوي ، وأبو مسهر وأحمد بن أبي الحواري وصالح المري وابن أبي الدنيا ومسعر بن كدام والعتبي وذو النون المصري وحماد المراكبي وأبو الحسن الفاري والأصمعي والمرزباني وابن دريد ومحمد بن بشر الأنصاري والحكم بن عمر الغفاري والفرزدق والخالدي كتاب الزيارات وياقوت أبو داعي إلى آخره ممن نقل عنهم المؤلف أحمد بن يحيى بن أبي حجلة من أهل القرن الثامن الهجري في كتابه ديوان الصبابة، من الأشخاص الذين ماتوا وتلفوا عشقاً .

(١) ابن أبي حجلة : ديوان الصبابة .

المصادر العربية المخطوطة :

المسامرات المنسوبة : لابن عربي .

ابن قيم الجوزية : أخبار النساء .

المصادر العربية المطبوعة :

الإبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف .

أبو محمد جعفر السراج القاري : مصارع العشاق .

ابن قيم الجوزية : روضة المحبين .

نزهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع .

الحب العذري

روي عن النبي (ص) قوله : من حفظ بين لحييه ورجليه دخل الجنة . وقيل : إن عمر بن ربيعة لما اشتد به المرض بكى أخوه،فرفع طرفه ، وقال : لعلك تشفق مما قلته في شعري ؟ قال : نعم . قال : عتق ما أملك إن وطئت امرأة حراماً ، فقال الحمد لله هونت عليّ .

وقال أبو زيد : كان الرجل إذا عشق جارية ، فراسلها سنة رضي بأن تمضغ علكاً ، فتبعثه إليه ، والآن لا يرضى إلاّ أن يشيل رجليها كأنه قد أشهد على نكاحها أبا هريرة وحزبه ، ومن أخبار العفة خبر يسار الكواكب ، وهو عبـــد تعرض لابنة سيده ، فقالت له : يا يسار إشرب من هذا السمار ، وقل في ظل الأشجار ، وإياك وبنات الأحرار ، فلما أبى دعته إلى نفسها ، وكانت قد أعدت مذاكيره موسى فصار مثلاً [(١)] .

وذكر داود الأنطاكي بعض من مات بالعشق كمالك بن الحارث من بني الأخرش على ثمان وعشرين من عمره ، وجنوب صاحبته بنت قيس بن أخرش الجعدي وقد مات بالعشق أيضاً . وأخبار عبد الله بن علقمة بن زرارة من قحطان وصاحبته حبيش بنت سعد من خزيمة من اليمن ووقع في عشقها ثم أمر خالد بن الوليد فضرب عنقه ، ولما رأت صاحبته ذلك فقبلته وشهقت

---

(١) الأصبهاني : محاضرات الأدباء .

شهقة أو شهقتين فماتت ، فلما أخبروا رسول الله بذلك قال : أما كان فيكم رجل رحيم .

وأخبار نصيب بن محجن الشهير بالشاعر الزنجي من كنانة وصاحبته أم بكر زينب بنت صفوان من كنانة وهي الأصح أنها ليست زنجية وقد هام بها وتوفي نصيب سنة ثلاث وعشرة ومائة ، وقيل : احدى عشر وقيل توفيت قبله .

وأخبار المرقش وصاحبته أسماء،وأخبار عتيبه بن الحباب وصاحبته ريا، وأخبار كعب وصاحبته ميلاء (١) .

وروي عن ابن عباس قال : قال النبي (ص) من عشق فعف فمات فهو شهيد .

وقال النبي (ص) : عفوا تعف نساؤكم .

وقال الأصمعي : قلت لأعرابية : ما تعدون العشق فيكم ؟ قالت : الضمة والغمزة والقبلة ثم انشأت تقول: ما الحب إلاّ قبلة وغمز كف وعضد ، ما الحب إلاّ هكذا ، ان نكح الحب فسد ثم قالت : كيف تعدون أنتم العشق قلت : نمسك بقرنيها ونفرق بين رجليها ، قالت : لست بعاشق أنت طالب ولد ثم أنشأت تقول :

قد فسد العشق وهان الهوى ... وصار مَنْ يعشق مستعجلا
يريـــد أن ينكح أحبابـــه ... من قبل أن يشهد أو ينحلا

وقيل لرجل وقد زفت عشيقته على ابن عم لها : أيسرك أن تظفر بها

---

(١) انظر : داود الأنطاكي : تزيين الأسواق .

الليلة قال : نعم والذي امتعني بحبها وأشفاني بطلبها ، قيل فما كنت صانعاً بها ؟ قال : كنت أطيع الحب في لثمها وأعصي الشيطان في اثمها ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقي ذميم عاره وينشر قبيح أخباره اني اذن للئيم لم يلدني كريم [١] .

قال سعيد بن عقبة الهمداني : لقيت أعرابياً ، فقلت مَن أنت ؟ قال من قوم إذا عشقوا ماتوا . قلت : عذري ورب الكعبة، وسأله: لم ذلك ؟ فقال : في نسائنا صباحة وفي رجالنا عفة [٢] .

وأخرج الخطيب البغدادي عن الغزي : ما رأيت عاشقين اجتمعا ، فتحدثا من أول الليل إلى الغداة ، ثم قاما إلى الصلاة .

وأخرج التنوخي عن عروة بن الزبير قال : قلت لعذري : إنكم أرق الناس قلوباً يريد احبابهم إلى الحب ، فقال : نعم لقد تركت ثلاثين شاباً خامرهم السل ما بهم داء إلاّ الحب .

وقيل لعذري : أتعدون موتكم في الحب مزية ، وهو من ضعف البنية ووهن العقدة وضيق الرئة ، فقال : أما والله لو رأيتم المحاجر البلج ترشق بالعيون الدعج من تحت الحواجب الزج والشفاه السمر تبسم عن الثنايا الغر كأنها شذر الدر لجعلتموها اللات والعزى [٣] .

وقال قيس المجنون :

إن البــلاد وما فيها من الشجر لو بالهوى عطشت لم ترو بالمطر
لو ذاقت الحب أرض الله لاشتغلت أشجارها بالهوى فيهــا عن الثمر

---

(١) الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف .
(٢) نزهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع .
(٣) الأنطاكي : تزيين الأسواق .

وصارت أغصانها جرداً بلا ورق   من حر نار الهوى ترمين بالشرر
ليس الحديد ولا صم الجبال إذا   فكرت أقوى على البلوى من البشر [1]

وقال بعضهم : مررت بغورك المجنون ، وقد أتاه أهله بطبيب يقال له : عبد العزيز ليعالجه ، فسلمت وقلت : ما خبرك يا أبا محمد ؟ فقال: خبري والله مع هؤلاء المجانين ظريف ، أنا عاشق وهم يظنون فيّ جنة ، وقد أتوني بهذا الطبيب ليعالجني ، ثم أنشأ يقول :

أتوني بالطبيب فعالجوني   على أن قيل مجنون غريب
طبيب الأجر فيه عساه يوماً   من الأيام يعقل أو يتوب
وما صدقوا الفتى محويه قلبي   أجل من أن يعالجه الطبيب
وما بي جنة لكن قلبي   به داء تموت به القلوب
وما عبد العزيز طبيب قلبي   ولكن الطبيب هو الحبيب

وقال الحسن بن رفاعة : رأيت علويه المجنون يوماً وفي عنقه حبل ، والصبيان يجرونه ، فلما رآني قال : يا أبا علي بماذا يعذب الله أهل الجرائم يوم القيامة ؟ قلت : بأشد العذاب . قال : فأنا والله في أشد عذابه ، ولو عذب الله أهل جهنم بالحب والهجر والرقباء ، لكان أشد عليهم ، ثم قال :

انظر إلى ما صنع الحب   لم يبق لي جسم ولا قلب
أنحل جسمي حب مَن لم يزل   من شأنه الهجران والعتب
ما كان أغناني عن حب مَن   من دونه الأستار والحجب

وقال محمد بن يحيى المدني : سمعت عطاء يقول : كان الرجل يحب الفتاة ، فيطوف بدارها حولاً كاملاً يفرح إن رأى مَن رآها وإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار .

---

(١) المسامرات (مخطوطة) .

وقيل لأعرابي : ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوى ؟ قال : كنت أمتع عيني من وجهها وقلبي من حديثها وأستر منها ما لا يحبه الله ولا يرضى بكشفه إلاّ عند حله . قيل : فإن خفت أن لا تجتمعا بعد ذلك ؟ قال : آكل قلبي الى حبها ولا أصير بقبيح ذلك الفعل إلى نقض عهدها .

وقال أبو عثمان : قد ترى الأعرابي وظاهره ظاهر الجفاء ، فما هو إلاّ أن يعشق حتى تجده أرق من الماء وألطف من الهواء ، ومع ذلك يلقى أحدهم عشيقته فيترشفها ويعانقها من دون الثياب ويمنعه التكرم ويحجزه الورع عن وطئها وإن أمكنته .

وقيل لبعض الأعراب ما الذي ينال أحدكم من عشيقته ومعشوقه إذا خلوا ؟ فقال: أن يكون له نصفها الأعلى من سرتها إلى قمة رأسها يصنع فيه ما شاء ولبعلها من سرتها إلى أخمصها .

وقال أعرابي : لم يكن العشق ضرباً من السحر انه لسعة من الجنون .

وسئلت أعرابية عن الهوى ، فقالت : هو الهوان غلط باسمه وإنما يعرف ما نقول من أبكته المعارف والطلول .

وسئلت أعرابية عن صفة الهوى ؟ فقالت :

الحب أولـــــه ميل تهيم به نفس المحب فيلقى الموت كاللعب
يكون مبدؤه من نظرة عرضت أو مزحة أشعلت في القلب كاللهب
كالنار مبدؤها من قدحة فإذا تضرمت أحرقت مستجمع الحطب

وأنشد :

ليس خطب الهوى بخطب يسير لا ينبئك عنه مثـــل خبير
ليس أمر الهوى يدبر بالرأ ي ولا بـــالقياس والتفكير
إنما الحب والهوى خطرات محدثات الأمور بعد الموت

وقال أعرابي : إن الصبر على الهوى أشد من الصبر على البلاء ، كما أن الصبر على المحبوب أشد من الصبر عن المكروه .

وقال العتبي : سمعت أعرابية تقول : مسكين العاشق كل شيء عدوه ؛ هبوب الريح يقلقه ولمعان البرق يؤرقه ورسوم الديار تحرقه ، والعذل يؤلمه والتذكير يسقمه إذا دنا الليل منه هرب النوم عنه، ولقد تداويت بالقرب والبعد ، فما أنجح فيه دواء ، ولقد أحسن الذي يقول :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد

وذكر أعرابي وجده بامرأة ، فقال : ما ازدادت مني بعداً إلاّ ازددت بها قرباً [1] .

وقال أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي الملقب بنفطويه قال : دخلت على محبوب داود الأصبهاني في مرضه الذي مات فيه ، فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال : وجد من تعلم أورثني ما ترى، فقلت ما منعك عن الاستمتاع به مع القدرة عليه ، فقال : الاستمتاع على وجهين : أحدهما النظر المباح ، والثاني اللذة المحظورة ، فأما النظر المباح فأورثني ما ترى ، وأما اللذة المحظورة فإنه منعني [2] .

وقال عبد الملك بن قُرَيْب : قلت لأعرابي حدثني عن ليلتك مع فلانة ؟ قال: نعم خلوت بها والقمر عرينها ، فلما غاب أريتنيه ، قلت : فما كان بينكما ؟ قال : أقرب ما أحل الله مما حرم الله : الإشارة بغير ما بأس والدنو بغير مساس .

---

(١) ابن قيم الجوزية : أخبار النساء .
(٢) أبو محمد جعفر السراج القاري : مصارع العشاق .

وقال محمد بن سيرين : كانوا يعشقون في غير ريبة ، وكان الرجل يأتي إلى القوم ، فيتحدث عندهم لا يستنكر له ذلك .

ولما احتضر ذو الرمة ، قال : لقد همت بمي عشرين سنة في غير ريبة ولا فساد .

وقال سفيان بن زياد : قلت لامرأة من عذرة ورأيت بها هوى غالباً خفت عليها الموت منه: ما بال العشق يقتلكم معاشر عُذرة من بين أحياء العرب؟ فقالت : فينا جمال وتعفف ، والجمال يحملنا على العفاف ، والعفاف يورثنا رقة القلوب والعشق يفني آجالنا ، وانا نرى عيوناً لا ترونها .

وقال بسر الوليد : سمعت أبا يوسف يقول في مرضه الذي مات فيه : اللهم انك تعلم اني لم أطأ فرجاً حراماً قط ، وأنا أعلم ولم آكل درهماً حراماً قط وأنا أعلم .

وقال إسماعيل بن إسحاق القاضي : دخلت على المعتضد وعلى رأسه غلمان صباح الوجوه أحداث ، فنظرت إليهم فرآني المعتضد وأنا أتأملهم فلما أردت القيام أشار إلي فمكثت ساعة فلما خلا قال لي : أيها القاضي والله ما حللت سراويلي على حرام قط .

وقال عمر بن بكير : قال أعرابي : علقت امرأة كنت آتيها فأحدثها سنين ، وما جرت بيننا ريبة قط ، إلاّ أني رأيت بياض كفها في ليلة ظلماء فوضعت يدي على يدها ، فقالت له لا تفسد ما بيني وبينك فإنه ما نكح حب قط إلاّ فسد . قال : فقمت وقد تصببت عرقاً حياء منها ، ولم أعد إلى شيء من ذلك .

ثم قال ابن قيم الجوزية : وهذه الطائفة لعفتهم أسباب أقواها إجلال الجبار ثم الرغبة في الحور الحسان في دار القرار ، ثم أدنى من ذلك أن يحمله عليها خوف العار والشنار .

ومنهم من يحمله على العفة الإبقاء على محبته خشية ذهابها بالوصال ، ومنهم مَن يحمله عليها عفة محبوبه ، ومنهم من يحمله عليها الجبار منه والاحتشام له وعظمته في صدره ، ومنهم من يحمله عليها الرغبة في جميل الذكر وحسن الأحدوثة ، ومنهم من يحمله عليها الإبقاء على جاهه ومروئته وقدره عند محبوبه وعند الناس ، ومنهم مَن يحمله عليها كرم طبعه وشرف نفسه وعلو همته ، ومنهم من يحمله عليها لذة الظفر بالعفة فإن للعفة لذة أعظم من لذة قضاء الوطر ، لكنها لذة يتقدمها ألم حبس النفس ، ثم تعقبها اللذة . وأما قضاء الوطر فالضد من ذلك ، ومنهم مَن يحمله عليها علمه بما تعقبه اللذة المحرمة من المضار والمفاسد .

ولم يزل الناس يفتخرون بالعفة قديماً وحديثاً . قال إبراهيم بن قرمة :

ولرب لذة ليلة قد نلتهـــا ... وحرامها بحلالها مدفوعُ

وقال مسلم بن الوليد :

ألا رب يوم صار في العيش نلته ... بما ونداني العفــافة والنهي

وقال نِفْطَوَيْه :

كم خلوتُ بمن أهوى فيمنعني ... منه الحياءُ وخوف الله والحذرُ
وكم ظفرت بمن أهوى فيقنعني ... منه الفُكاهة والتجميش والنظر
أهوى الحسان وأهوى أن أجالسهم ... وليس لي في حرام منهم وطر
كذلك الحب لا إتيــانُ معصيـــة ... لا خير في لذة من بعدها سَقَرُ

وقال الشهاب محمود بن سليمان الحلبي :

لله وقفــــةُ عاشقَيْن تلاقيـــا ... من بعد طول نوىً وبُعد مزار
يتعـــاطيان من الغرام مُدامـــة ... زادتهما بعـــداً مـــن الأوزار
صدق الغرام فـــلم يمل طرفُ إلى ... فحش ولا كفّ لحل إزار
فتلاقيـــا وتفرقـــا وكـــلاهمـــا ... لم يخش قط من عائبٍ أو زار

وقال الخرائطي : حدث أبو غسان النهدي قال : مر أبو بكر الصديق في خلافته بطريق من طرق المدينة ، فإذا جارية تطحن برها وهي تقول :

وهويته من قبل قطع تمائمي الخ . . . .

فدق عليها الباب فخرجت إليه فقال : ويلك أحرة أنت أم مملوكة ؟ فقالت : بل مملوكة يا خليفة رسول الله . قال: فمن هويت ؟ فبكت ، ثم قالت بحق الله ألا انصرفت عني ، قال : لا أريم أو تعلميني ، فقالت :

وأنا التي لعب الغرام بقلبها فبكت لحب محمد بن القاسم

فصار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه ، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب . وقال : هؤلاء فِتَنُ الرجال وكم قد مات بهن من كريم وعُطب عليهم من سليم .

ويذكر عن عثمان بن عفان : انه جاءته جارية تستعدي على رجل من الأنصار ، فقال لها عثمان : ما قصتك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين كلفت بابن أخيه ، فما أنفك أراعيه ، فقال له عثمان : إما أن تهبها لابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالي ، فقال أشهد يا أمير المؤمنين انها له [1] .

وكذلك حصل لعلي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان .

قال عبد الكريم القشيري : قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا مَن يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه)، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومَن لم يحب لقاء الله لم يحب الله تعالى لقاءه .

والمحبة حالة شريفة شهد الحق سبحانه بها للعبد وأخبر عن محبته للعبد ، فالحق سبحانه يوصف بأنه يحب العبد والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه .

---

(١) ابن قيم الجوزية : روضة المحبين .

والمحبة على لسان العلماء هي الإرادة ، وليس مراد القوم بالمحبة الإرادة فمحبة الحق سبحانه للعبد إرادته ، لانعام مخصوص عليه كما أن رحمته له إرادته الانعام فالرحمة خاص من الإرادة والمحبة أخص من الرحمة .

وقالوا : محبته من الصفات الخيرية ، فأطلقوا اللفظ وتوقفوا عن التفسير ، فأما ما عدا هذه الجملة مما هو المعقول من صفات محبة .

وقال القشيري : وعبارات الناس عن المحبة كثيرة ، وتكلموا في أصلها في اللغة ، فبعضهم قال الحب اسم لصفاء المودة ، لأن العرب تقول صفاء بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان ، وقيل : الحبان ما يعلو الماء عند المطر الشديد ، فعلى هذا المحبة غليان القلب وثوراته عند العطش والاهتياج إلى لقاء المحبوب .

وقيل انه مشتق من حباب الماء بفتح الحاء ، وهو معظمه فسمي بذلك ، لأن المحبة غاية معظم ما في القلب من المهمات .

وقيل اشتقاقه من اللزوم والثبات ، يقال : أحب البعير ، وهو أن يبرك فلا يقوم ، فكأن المحب لا يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه .

وقيل : الحب مأخوذ من الحب وهو القرط ، وسمي القرط حباً ، إما للزومه للإذن أو لقلقه ، وكلا المعنيين صحيح في الحب .

وقيل : هو مأخوذ من الحب ، والحب جمع حبة ، وحبة القلب ما به قوامه فسمي الحب حباً باسم محله . وقيل : غير ذلك [١] .

وقال القشيري : وأما أقاويل الشيوخ في المحبة ، فقال بعضهم : المحبة الميل الدائم بالقلب الهائم ، وقيل : المحبة إيثار المحبوب على جميع المصحوب . وقيل : موافقة الحبيب في المشهد والمغيب ، وقيل : محو الحب لصفاته وإثبات

---

(١) القشيري : الرسالة في التصوف .

المحبوب بذاته . وقيل : مواطأة القلب لمرادات الرب . وقيل : خوف ترك الحرمة مع إقامة الخدمة .

وقال أبو يزيد البسطامي : المحبة استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك . وقال سهل : الحب معانقة الطاعة ومباينة المخالفة .

وسئل الجنيد عن المحبة ، فقال : دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب أشار بهذا إلى استيلاء ذكر المحبوب حتى لا يكون الغالب على قلب المحب إلاّ ذكر صفات المحبوب والتغافل بالكلية عن صفات نفسه والإحساس بها .

وقال أبو علي الروذباري : المحبة الموافقة . وقال أبو عبد الله القرشي : حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء . وقال الشبلي : سميت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب . وقال ابن عطاء : المحبة إقامة العتاب على الدوام [١] .

وقال القشيري : الخلق كالميل إلى الشيء ، والاستئناس بالشيء ، وكحالة على التعظيم له وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه والاهتياج إليه وعدم القرار من دونه ، ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه ، وليست محبة العبد له سبحانه فتضمه ميلاً ، ولا اختطاطاً كيف ، وحقيقة الصمدية مقدسة عن اللحوق والدرك والإحاطة ، والمحب بوصف الاستهلاك في المحبوب أولى منه بأن يوصل بالاختطاط ، ولا توصف المحبة بوصف ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب إلى الفهم من المحبة والاستقصاء في المقال عند حصول الأشكال [٢] .

وذكر زكريا الأنصاري أن الجنيد سأله السري يوماً عن المحبة فقال له :

---

(١) عبد الكريم القشيري : الرسالة القشيرية في علم التصوف .

(٢) الرسالة القشيرية في علم التصوف .

قال قوم هي الموافقة للمحبوب . وقال قوم : هي الإيثار لغيره على نفسه بالأمور الدنيوية . وقال قوم هي كذا وكذا ، فأخذ السري جلدة ذراعه ومدها فلم تمتد ، ثم قال : وعزته تعالى لو قلت ان هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت ، ثم غشي عليه [1] .

وقال قوم المحبة هي الإيثار أي تقديم المحب محبوبه على نفسه في الأغراض الدنيوية والاخروية ان لم يفوت على نفسه فضيلة شرعية [2] .

وقال عبد الله الطوسي : أما حال المحبة فقد ذكر الله تعالى المحبة في مواضع من كتابه ، فقال : فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه . وقال (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) . وقال في موضع آخر (يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله . . .)

وحال المحبة لعبد نظر بعينه إلى ما أنعم الله به عليه ونظر بقلبه إلى قرب الله تعالى منه وعنايته به وحفظه له ، فنظر بإيمانه وحقيقته يقينه إلى ما سبق له والله تعالى من العناية والهداية وقديم حب الله ، فأحب الله عز وجل .

وأهل المحبة على ثلاثة أحوال : فالحال الأولى من المحبة محبة العامة يتولد ذلك من إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم .

وقد روي عن النبي (ص) انه قال : جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها (الحديث) .

وسئل سهل بن عبد الله عن المحبة ، فقال : موافقة القلوب لله والتزام الموافقة لله واتباع الرسول (ص) مع دوام ذكر الله تعالى ووجود

---

(١) زكريا الأنصاري : شرح الرسالة القشيرية في التصوف .
(٢) مصطفى العروسي : نتائج الأفكار القدسية في معاني شرح الرسالة القشيرية .

حلاوة المناجاة لله عز وجل . وسئل الحسين بن علي عن المحبة ، فقال : بذل المجهود والحبيب يفعل ما يشاء .

والحال الثانية من المحبة وهو يتولد من نظر القلب إلى الله تعـالى وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته ، وهو حب الصادقين والمتحققين ، وشرطها ووصفها كما حكي عن أبي الحسين النوري انه سئل عن المحبة ؟ فقال : هتاك الأستار وكشف الأسرار ، وسئل أيضاً إبراهيم الخوّاص عن المحبة ؟ فقال : محو الإرادات واحتراق جميع الصفات والحاجات . وسئل أبو سعيد الخزاز عن المحبة ؟ فقال : طوبى لمن شرب كأساً من محبته ، وذاق نعيماً من مناجاة الجليل وقربه بما وجد من اللذات بحبه وملأ قلبه حباً وطار بالله طرباً .

وأما الحال الثالث من المحبة ، فهي محبة الصديقين والعارفين ، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقيم حب الله تعالى بلا علة، فكذلك أحبوه المحبة الصافية التي لا كدرة فيها ، قال حب الله الصافي الذي لا كدرة فيه سقوط المحبة عن القلب والجوارح حتى لا يكون فيها المحبة ، وتكون الأشياء بالله ولله ، فذلك المحب لله .

وقال أبو يعقوب السوسي : لا تصح المحبة حتى يخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ، ولم يكن هو بالمحبة فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة ، كان محباً من غير محبة .

وسئل الجنيد عن المحبة فقال : دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب ، فهذا على معنى قوله تعالى حتى أحبه : فإذا احببته كنت عينه الذي يبصر وسمعه الذي يسمع به ويده الذي يبطش بها [1] .

---

(١) عبد الله بن علي الطوسي : اللمع في التصوف .

وقال السهروردي : للمحبة وجوه ، وبواعث المحبة في الإنسان متنوعة فمنها محبة الروح ومحبة القلب ومحبة النفس ومحبة العقل .

وقال بعضهم : المحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة ، فإذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة ، فإذن الحب حبان : حب عام ، وحب خاص ، فالحب العام مفسر بامتثال الأمر ، وربما كان حباً من معدن العلم بالآلاء والنعماء ، وهذا الحب مخرجه من الصفات .

وقد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات ، فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذي يكون لكسب العبد فيه مدخل ، وأما الحب الخاص فهو حب للذات على مطالعة الروح ، وهو الحب الذي فيه السكرات ، وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه إياه ، وهذا الحب يكون من الأحوال لأنه محض موهبة للكسب فيه مدخل .

وهذا الحب هو روح ، والحب الذي يظهر عن مطالعة الصفات ، ويطلع من مطالع الإيمان ، قالب هذا الروح ، ولما صحت محبتهم هذه أخبر الله عنهم بقوله: أذلة على المؤمنين، لأن المحب يذل لمحبوبه ولمحبوب محبوبه ، وهذا الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها ، وهو في الأحوال كالتوبة في المقامات .

وقال أبو يزيد من قتلته محبته فديته رؤيته ومن قتله حبيبه فديته منادمته [1] .

وقال الجنيد : العشق إلفة رحمانية وإلهام شوقي أوجبه كرم الله تعالى عن كل ذي روح لتحصل اللذة العظمى التي لا يقدر على مثلها إلا بتلك الإلفة ، وهي موجودة في الأنفس بقدر مراتبها عند أربابها في أحد إلا عاش

---

(١) السهروردي : عوارف المعارف .

لأمر يستدل به على قدر طبقته من الخلق ، ولأجل ذلك كان أشرف المراتب في الدنيا مراتب الذين زهدوا بها مع كونها معاينة ومالوا إلى الآخرة مع كونها مخبراً لهم عنها بصورة لفظ [1] .

وأفضل ذكر المرء وأشرفه وأرفعه حين يكون لقلبه حضور مع مولاه يغيب الذاكر بسبب ذلك الحضور لقوته وغلبته واستيلائه عليه عن الذكر نفسه وعن غيره من الخليقة ، فلا يبقى له عن نفسه أخبار ولا مع غير الله قرار أو يغيب بعده في قربه [2] .

وقيل : لما كان غاية المحبة وصولاً إلى المطلوبات الدنيوية والأخروية ومبدؤها الحواس الظاهرة غالباً ، أو الباطنة ، ومطالبها العالية ومقاصدها الذاتية ، إما اشتغال عن الحق بخيالات وهمية تنتقش في الفضل من الخلق أو ميل نفسي إلى المبدع باستيحاش ممن سواه لا جرم قسمت المحبة قسمين أشرفها متعلقاً الثوابي ، وهو الحب في الله ، لأنه لا يفنى متعلقه ولا تكيف غايته ولا يفضله شيء في الحقيقة ، إذ ما سواه أوهام تضمحل وتزول .

قال الحصري : وصول إلى مقام الانس والنعمة باطناً والوحشة والبلاء ظاهراً ، بشرط الإشراف على الغيوب وفناء الكل في المحبوب ، وهذا تعريف لها بحسب الغاية الخاصة ، وكان عليه أن يورد التعريف التام أولاً ثم يفصل .

وقال أبو يزيد البسطامي : هي استهلاك النفسانية مع بقاء الروحانية ، وهذا قريب من الأول ، بخير وأحسن ، ونقل عن شيخ الطريقة الجنيد وقد سئل ما المحبة ؟ فقال : هي الصفاء في الباطن مع حقائق الحق والوفاء في الظاهر مع استعمال دقائق الشرع ، فهذا والله هو الحد التام وإن كان إلى الخاص أميل.

---

(١) صلاح الدين الصفدي : شرح لامية العجم (مخطوط) .
(٢) أحمد بن يوسف الفاسي : شرح رائية أحمد البكري الشريشي .

وينسب إلى ذي النون الحصري ، قوله : المحبة أرق بلا رقاد ، وجسم بلا فؤاد ، وتهتك في العباد وتشتت عن البلاد .

وقال بعض الصوفية : شرط المحبة أن تكون ميلاً بلا نيل وشرطاً بلا جزاء لئلاّ تزول عند زوال العوض .

وعن سهل بن عبد الله التستري : الناس ثلاثة أصناف : صنف مضروب بسوط المحبة ، مقتول بسيف الندامة ، مضطجع على بابه ينتظر العفو ، وصنف مضروب بسوط الفعلة مقتول بسيف الشهوة ، مضطجع على بابه ينتظر العقوبة .

وعن حيان القيسي : العباد مع الله على ثلاثة طبقات : قوم ظعن بهم على البلاء لئلاّ يسترق الجزع سرهم ، فيكون هذا حكمة أو يكون في صدورهم حرج من قضائه ، وقوم ظعن بهم عن مساكنة أهل المعاصي لئلاّ تغتم قلوبهم ، فمن أجل ذلك سلمت صدورهم للعالم وقوم صب عليهم العذاب حباً ، فما ازدادوا بذلك إلاّ حباً [١] .

---

(١) انظر داود الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .

الحب الالهي

وجعل ابن عربي الحب على ثلاث مراتب : حب طبيعي وهو حب العَوام ، وغايته الاتحاد في الروح الحيواني ، فتكون روح كل واحد منهما روحاً لصاحبه بطريق الالتذاذ وإثارة الشهوة ونهايته من الفعل النكاح ، فإن شهوة الحب تسري في جميع المزاج سريان الماء في الصفوة ، بل سريان اللون في المتلون ، وحب روحاني نفسي ، وغايته التشبه بالمحبوب مع القيام بحق المحبوب ومعرفة قدره ، وحب إلهي وهو حب الله للعبد وحب العبد لربه ، كما سبحانه يحبهم ويحبونه ونهايته من الطرفين أن يشاهد العبد كونه مظهراً للحق . وهو لذلك الحق الظاهر كالروح للجسم باطنة ، وغيب فيه لأنه لا يدرك أبداً ولا يشهده إلاّ محب ، وان يكون الحق مظهراً للعبد ، فيتصف بما يتصف به العبد من الحدود والمقادير والاعراض ، ويشاهد هذا العبد حينئذ يكون محبوباً للحق ، وإذا كان الأمر كما قلنا ، فلا حد للمحب يعرّف به ذاتي ، ولكن يحد بالحدود الرسمية واللفظية لا غير ، فمن حدّ الحب ما عرفه ، ومن لم يذقه شرباً ما عرفه ، ومَن قال : رويت منه ما عرفه ، فالحب شرب بلا وعي .

وقد يكون الحب طبيعياً والمحبوب ليس من عالم الطبيعة ، ولا يكون الحب طبيعياً إلاّ إذا كان المحب من عالم الطبيعة لا بد من ذلك ، وذلك أن الحب الطبيعي سببه نظرة أو سماع فيحدث في خيال الناظر مما رآه إن كان المحبوب ممن يدركه البصر ، وفي خيال السامع مما سمعه فحمله على نشأته

فصوره في خياله بالقوة المصورة ، وقد يكون المحبوب ذا صورة طبيعية مطابقة لما تصوره في الخيال بالقوة المصورة أو دون ذلك أو فوق ذلك ، وقد لا يكون للمحبوب صورة ، ولا يجوز أن يقبل الصورة فيصور هذا الحب من السماع ما لا يمكن أن يتصور ، ولم يكن مقصود الطبيعة في تصوير ما لا يقبل الحصر والصورة إلاّ اجتماعها عن أمر محصور ينضبط لها مخافة التبديد والتعلق بما ليس في اليد منه شيء فهذا هو الداعي كما ذكرناه من تصوير من ليس بصورة أو من تصوير مَن ليس يشهد له صورة وإن كان ذا صورة وفعل الحب في هذه الصورة أن يعظم شخصها حتّى يضيق مجال الخيال عنها فيما يخيل إليه ، فتشتد تلك العظمة والكبر التي في تلك الصورة نحولاً في بدن المحب فلهذا تنحل أجساد المحبين فإن مواد الغذاء تنصرف إليها ، فتعظم ، وتقل عن البدن فيتحيل فإن حرقة الشوق تحرقه فلا يبقى للبدن ما يتغذى به ، وفي ذلك الاحتراق نمو صورة المحبوب في الخيال ، فإن ذلك أكملها، ثم أن القوة المصورة تكسو تلك الصورة في الخيال حسناً فائقاً وجمالاً رائقاً يتغير لذلك الحسن صورة المحب الظاهرة ، فيصفر لونه وتذبل شفته وتغور عينه ثم ان تلك القوة تكسو تلك الصورة قوة عظيمة تأخذها من قوة بدن المحب تجعله يحب لقاء محبوبه ويجبن عن لقائه ، لأنه لا يرى في نفسه قوة للقائه ، ولهذا يغشى على المحب إذا لقي المحبوب ويصعق ومن فيه فضلة ، وحبه ناقص يعتريه عند لقاء محبوبه ارتعاد وخبل . . .

ثم إن قوة الحب الطبيعي تشجع المحب بين يدي محبوبه له لا عليه ، فالمحب شجاع مقـدام ، فلا يزال هـذا حاله ما دامت تلك الصورة موجودة في خياله إلى أن يموت وينحل نظامه ، أو يزول عن خياله فيسلو ، ومن الحب الطبيعي أن تلتبس تلك الصورة في خياله ، فتلصق بصورة نفسه المتخيلة له وإذا تقاربت الصورتان في خياله تقارباً مفرطاً ، وتلتصق به لصوق الهواء بالناظر ، يطلبه المحب في خياله فلا يتصوره ، ويضيع ولا ينضبط له

للقرب المفرط ، فيأخذه لذلك خيال وحيرة مثل ما يأخذ من فقد محبوبه ، وهذا هو الاشتياق والشوق من البعد والاشتياق من القرب المفرط .

كان قيس ليلى في هذا المقام ، كان يصيح ليلى ليلى في كل ما يتكلم به . . . فإذا تقوت تلك الصورة في خيال المحب أثرت في المحبوب تأثير الخيال في الحس مثل الذي يتوهم السقوط ، فيسقط أو يتوهم أمراً ما مفزعاً ، فيتغير حال المزاج فتتغير صورة حسه كذلك ، هذه الصورة إذا تقوت أثرت في المحبوب فقيدته وصيرته أشد طلباً لها منها له ،فإن النفوس قد جبلت على حب الرياسة ، والمحب عبد مملوك بحبه لهذا المحبوب ، فالمحبوب لا تكون له رياسة إلاّ بوجود هذا المحب فيعشقه على قدر عشقه رياسته ، وإنما يتيه عليه للطمأنينة الحاصلة في نفس المحبوب ، فإن المحب لا يصبر عنه ، وهو طالب إياه ، فتأخذه العزة ظاهراً وهو الطالب له باطناً ، ولا يرى في الوجود أحداً مثله لكونه ملكه ، فالمحب لا يعلل فعل المحبوب لأن التعليل من صفات العقل ولا عقل للمحب .

والمحبوب يعلل أفعال المحب بأحسن التعليل ، لأنه ملكه ، فيريد أن يظهر شرفه وعلوه حتى يعلو المحبوب ، اذ هو المالك، وهو يحب الثناء على نفسه ، وهذا كله من أعجب الأشياء أن المعنى أوجب حكمه لمن لم يقم به ، وهو المحبوب فإنه أثر فيه حب المحب كما أثر في المحب ، وكذلك الحب لا يجتمع مع العقل في محل واحد ، فلا بد وأن يكون حكم الحب يناقض حكم العقل ، فالعقل للنطق والهيام للخرس ، ثم انه من شأن الحب الطبيعي أن تكون الصورة التي حصلت في خيال المحب على مقدار المجال الحاصلة فيه بحيث لا يفضل عنها منه ما يقبل به شيئاً أصلاً ، وإن لم يكن كذلك فما هي صورة الحب ، أوبهذا تخالف صورة الحب سائر الصور .

وإن الحب كان سبب إيجاد العالم ، فطابق الأسماء الإلهية ، ولولا تعشق

النفس بالجسم ما تألم عند مفارقته مع كونه ضداً له فجمع بين المقادير والأحوال لوجود النسب والأشكال ، فالنسب أصل وجود الأسباب ، وإن كانت الأرواح تخالف الأشباح والمعاني تخالف الكلمات والحروف ، ولكن تدل الكلمة على المعنى بحكم المطابقة بحيث لو تجسد المعنى لما زاد على كمية الكلمة ومثل هذا النوع يسمى حباً .

وأما الحب الروحاني فخارج عن هذا الحد وبعيد عن المقدار والشكل ، وذلك أن القوى الروحانية لها التفات نسبي فمتى عمت النسب في الالتفاتات بين المحب والمحبوب عن نظر أو سماع أو علم . كان ذلك الحب ، فإن نقص ولم يستوف النسب لم يكن حباً ، ومعنى النسب أن الأرواح التي من شأنها أن تهب وتعطي تتوجه على الأرواح التي من شأنها أن تأخذ وتمسك ، وتلك تتألم بعدم القبول ، وهذه تتألم بعدم الفيض ، وإن كان لا ينعدم إلاّ أن كونه لم يكمل شروط الاستعداد والزمان سمي ذلك الروح القابل عدم فيض ، وليس بصحيح فكل واحد من الزوجين مستفرغ الطاقة في حب الآخر ، فمثل هذا الحب إذا تمكن من المحبين لم يشكُ المحب فرقة محبوبه ، لأنه ليس من عالم الأجسام ولا الأجساد ، فتقع المفارقة بين الشخصين أو يعتثر فيه القرب المفرط ، كما فعل في الحب الطبيعي ، فالمعاني لا تتقيد ولا تتحير ولا يتخيلها إلاّ ناقص الفطرة فإنه يتصور ما ليس بصورة ، وهذا هو حب العارفين الذين يمتازون به من العوام أصحاب الاتحاد ،فهذا محب شبه محبوبه في الافتقار لا في الحال والمقدار ، ولهذا يعرف المحب قدر المحبوب من حيث ما هو محبوب .

وأما الحب الإلهي فمن اسمه الجميل والنور فيتقدم النور إلى أعيان الممكنات فينفي عنها ظلمة نظرها إلى نفسها وإمكانها فيحدث لها بصراً هو بصره إذ لا ترى إلاّ به فيتجلى لتلك العين بالاسم الجميل فتعشق به ، فيصير عين ذلك الممكن مظهراً له ، فتبطن العين من الممكن فيه أو تغني عن نفسها فلا تعرف أنها محبة له سبحانه أو تفنى عنه بنفسها ، فلا تعرف أنها مظهر له سبحانه مع

كونها على هذه الحالة ، وتجد من نفسها أنها تحب نفسها ، فإن كل شيء مجبول على حب نفسه وما ثم ظاهر إلاّ هو في غير الممكن ، فما أحب الله إلاّ الله والعبد لا يتصف بالحب أو لا حكم له فيه، فإنه ما أحبه منه سوى الظاهر فيه ، وهو الظاهر ، فلا يعرف أيضاً أنها محبة له فتطلبه ، وتحب أن تحبه من حيث أنها ناظرة إلى نفسها بعينه فنفس حبها أن تحبه هو بعينه جماله ، ولهذا يوصف هذا النور بأنه له أشعة أي أنه شعشعاني لامتداده من الحق إلى عين الممكن ليكون مظهراً له بنصب الهاء لا اسم فاعل فإذا جمع من هذه صفته بين المتضادات في وصفه ، فذلك هو صاحب الحب الإلهي ، فإنه يؤدي إلى إلحاقه بالعدم عند نفسه كما هو في نفس الأمر ، فعلامة الحب الإلهي ، حب جميع الكائنات في كل حضرة معنوية أو حسية أو خيالية أو متخيلة ، ولكل حضرة عين من اسمه النور ينظر بها إلى اسمه الجميل ، فيكسوها ذلك النور حلة وجود فكل محب ما أحب سوى نفسه ، ولهذا وصف الحق نفسه بأنه يحب المظاهر ، والمظاهر عدم في عين الظاهر ، فما تعلق المحبة إلاّ بما ظهر وهو الظاهر فيها ، فتلك النسبة بين الظاهر والمظاهر هي الحب ومتعلق الحب إنما هو العدم ، فمتعلقها هنا الدوام ، والدوام ما وقع فإنه لا نهاية له وما لا نهاية له لا يتصف بالوقوع ، ولما كان الحب من صفات الحق ، حيث قال يحبهم ، ومن صفات الخلق حيث قال ويحبونه اتصف الحب بالعزة لنسبته إلى الحق ووصف الحق به وسرى في الخلق بتلك النسبة العزية فأورثت في المحل ذلة من الطرفين ، فلهذا ترى المحب يذل تحت عز الحب لا عزة المحبوب ، فإن المحبوب قد يكون مملوكاً للمحب مقهوراً تحت سلطانه ، ومع هذا تجده يذل له المحب فعلمنا أن تلك عزة الحب لا عزة المحبوب . . .

فالمحب في حكم الحب لا في حكم المحبوب ،وهي من صفته،وصفته عينه،

فعينه تحكم عليه لا أمر زائد فلا نقص غير أن أثره في المخلوقين التلاشي عند استحكامه لأنه يقبل التلاشي ، فلهذا يتنوع العالم في الصور فيكون في صوره ، فإذا أفرط فيها الحب من حيث لا يعلم وحصل التجلي من حيث لا يظهر تلاشت الصورة وظهرت في العين صورة أخرى .

فحب الله لا ينكر على محب حب مَن أحب فإنه لا يرى محباً إلاّ الله في مظهر ما ، ومن ليس له هذا الحب الإلهي فهو ينكر على من يحب . . . وانه يستحيل أن يحب الله تعالى في أحد ، فإن الحق لا يمكن أن يضاف إليه ، ولا إلى ما يكون منه نسبة عدم أصلاً ، والحب متعلقه العدم ، فلا حب يتعلق بالله من مخلوق ، لكن حب الله يتعلق بالمخلوق لأن المخلوق معدوم ، فالمخلوق محبوب لله أبداً دائماً ، وما دام الحب لا يتصور معه وجود المخلوق فالمخلوق لا يوجد أبداً فأعطت هذه الحقيقة أن يكون المخلوق مظهراً للحق لا ظاهراً ، فمن أحب شخصاً بالحب الإلهي ، فعلى هذا الحد يكون حبه إياه فلا يتقيد بالخيال ولا الجمال ، ولا بحال ما فإنها كلها موجودة له ، فلا يتعلق الحب بها ، فقد بان الفرقان بين المراتب الثلاث في الحب ، واعلم أن الخيال حق كله والتخيل منه حق ، ومنه باطل .

وأما كأس الحب فالجواب هو القلب من المحب لا عقله ولا حسه ، فإن القلب يتقلب من حال إلى حال ، كما أن الله الذي هو المحبوب كل يوم هو في شأن ، فيتنوع المحب في تعلق حبه بتنوع المحبوب في أفعاله كالكأس الزجاجي الأبيض الصافي ، فيتنوع بحسب تنوع المائع المحال فيه ، فلون المحب لون محبوبه ، وليس هذا إلاّ للقلب فإن العقل من عالم التقييد ، ولهذا سمي عقلاً من العقال .

والحس معلوم بالضرورة انه من عالم التقييد بخلاف القلب ، وذلك أن الحب له أحكام كثيرة مختلفة متضادة فلا يقبلها إلاّ من قوته الانقلاب معه فيها ، وذلك لا يكون إلا للقلب .

وإن الله جميل يحب الجمال ، وهو يحب العالم ، فلا شيء أجمل من العالم ، وهو جميل والجميل محبوب لذاته ، فالعالم كله محب لله وجمال صنعه سار في خلقه ، والعالم مظاهره ، فحب العالم بعضه بعضاً حب من حب الله نفسه ، فإن الحب صفة الموجود ، وما في الوجود إلاّ الله والجلال والجمال لله من الأوصاف الذاتية في نفسه وفي صنعه والهيبة التي هي من أثر الجلال والأنس الذي هو من أثر الجمال ، نعتان للمخلوق لا للخالق ، ولا مما يوصف به ولا يهاب ولا يأنس إلاّ موجود ، ولا موجود إلاّ الله ، فالأثر عين الصفة والصفة ليست مغايرة للموصوف في حال اتصافه بها بل هي عين الموصوف. (١)

المصادر العربية المخطوطة :

صلاح الدين بن أيبك الصفدي : شرح لامية العجم .
المسامرات المنسوبة لابن عربي .

المصادر العربية المطبوعة :

ابن عربي : الفتوحات المكية .
أحمد بن يوسف الفاسي : شرح رائية أحمد البكري الشريشي .
داود الأنطاكي : تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .
الراغب الأصبهاني : محاضرات الأدباء .
عبد الكريم القشيري : الرسالة القشيرية .
عبد الله بن علي الطوسي : اللمع في التصوف .
السهروردي : عوارف المعارف .
زكريا الأنصاري : شرح الرسالة القشيرية .
مصطفى العروسي : نتائج الأفكار القدسية في معاني الرسالة القشيرية .

(١) ابن عربي : الفتوحات المكية .

قصص من الحب في المجتمع العربي

١ ـ أرينب بنت إسحاق :

كانت أرينب بنت إسحاق من ربات الجمال البارع والحسن الباهر والكمال والشرف وكثرة المال . تزوجها ابن عمها عبد الله بن سلام القرشي ، وكان من معاوية بن أبي سفيان بالمنزلة الرفيعة في الفضل ، فعشقها يزيد بن معاوية ، ووقع حبها في قلبه موقعاً ملأه هماً وأوسعه غماً فشكا أمره إلى أبيه معاوية ، فنصحه معاوية بقوله :

مهلاً يا يزيد ، فقال: (علام) تأمرني بالمهل وقد انقطع منها الأمل ؟ فقال له معاوية : فأين جمالك ومروءتك وتقاك ؟ فقال يزيد : يغلب الهوى على الصبر والحجا ولو كان أحد ينتفع فيها يبتلي من الهوى بتقاه أو يدفع ما أقصده بحجاه لكان أولى الناس بالصبر داود عليه السلام .

فلما لم يرَ معاوية بدأً من إجابة طلب ابنه يزيد ، أخذ في الحيلة والنظر ليصل إليها ويجمع بينه وبينها ، حتى يبلغ رضا يزيد فيها ، فكتب معاوية إلى عبد الله بن سلام ، وكان قد استعمله على العراق : أن اقبل حين تنظر في كتابي هذا لأمر حظك فيه كامل ولا تتأخر ، فأخذ المسير والإقبال .

وكان عند معاوية بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء صاحبا رسول الله (ص) فلما قدم عبد الله بن سلام إلى الشام ، أمر معاوية أن ينزل منزلاً قد هيء له وأعد له فيه نزله .

ثم قال لأبي هريرة وصاحبه : قد بلغت لي ابنة أردت إنكاحها والنظر في تبعل من يريد أن يباعلها لعل من يكون بعدي يهتدي منه بهديي ويتبع فيه أثري ، فإني قد تخوفت أن يدعو من يلي هذا الأمر من بعدي زهوة السلطان وسرفه إلى عضل نسائهم وألاّ يرون لهن فيمن ملكهن أمره كفؤاً ولا نظيراً ، وقد رضيت لها عبد الله بن سلام لدينه وفضله ومروءته وأدبه .

فقال أبو هريرة وأبو الدرداء : ان أولى الناس برعاية أنعم الله وشكرها وطلب مرضاته فيها فيما خصه به منا ، أنت صاحب رسول الله وكاتبه . فقال معاوية : أذكر الله ذلك عني ، وقد كنت جعلت لها في نفسها شورى ، غير أني أرجو أنها لا تخرج من رأي إن شاء الله .

فلما خرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله بن سلام بالذي قال لهما ، دخل معاوية إلى ابنته ، فقال لها : إذا دخل عليك أبو هريرة وأبو الدرداء فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام وإنكاحي إياك منه ودعواك إلى مباعلته وحضك على ملائمة رأيي والمسارعة إلى هواي فقولي لهما : عبد الله بن سلام كفوء كريم وقريب حميم ، غير انه تحته أرينب بنت إسحاق وأنا خائفة أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء فأتولى منه ما أسخط الله فيه ، فيعذبني عليه فأفارق الرجاء واستشعر الأذى ولست بفاعلة حتى يفارقها .

فذكر ذلك أبو هريرة وأبو الدرداء لعبد الله بن سلام وأعلماه بالذي أمرهما معاوية ، فلما أخبراه سر وفرح وحمد الله ، ثم بعثهما خاطبين عليه ، فلما قدما ، قال لهما معاوية : قد تعلمان رضائي به وحرصي عليه ، وقد كنت أعلمتكما بالذي جعلت لها في نفسها من الشورى ، فادخلا إليها واعرضا عليها الذي رأيت لها ، فدخلا عليها وأعلماها بالذي ارتضاها لها أبوها لما رجا من ثواب الله عليه ، فقالت لهما : كالذي قال لها أبوها ، فأعلماه بذلك .

فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلاّ أمرها فارق زوجته وأشهدهما على طلاقها ،

وبعثهما خاطبين إليه أيضاً، فخطبا وأعلما معاوية بالذي كان من فراق عبد الله ابن سلام امرأته طلاباً لما يرضيها وخروجاً عما يشجيها ، فأظهر معاوية كراهة لفعله ، وقال : ما استحسن له طلاق امرأته ولا أحببته ، ولو صبر ولم يعجل لكان أمره إلى مصيره ، فإن كون ما هو كائن لا بد منه ولا محيص عنه ولا خيرة فيه للعباد ، والاقدار غالبة وما سبق في علم الله لا بد جار فيه ، فانصرفا في عافية ، ثم تعودان إلينا فيه وتأخذا إن شاء الله رضانا .

ثم كتب إلى يزيد ابنه يعلمه بما كان من طلاق أرينب بنت إسحاق ، فلما عاد أبو هريرة وأبو الدرداء إلى معاوية أمرهما بالدخول عليها وسألاها عن رضا تبرياً من الأمر ونظراً في القول والعذر ، فيقول : لم يكن لي أن أكرهها ، وقد جعلت لها من الشورى في نفسها ، فدخلا عليها وأعلماها بالذي رضيه ان رضيت هي ، وبطلاق عبد الله بن سلام امرأته أرينب طلاباً لمسرتها ، وذكرا من فضله وكمال مروءته وكريم محتده ، فقالت لهما: جف القلم بما هو كائن ، وانه في قريش لرفيع ، غير أن الله عز وجل يتولى تدبير الأمور في خلقه وتقسيمها بين عباده حتى ينزلها منازلها فيها ، ويضعها على ما سبق في أقدارها ، وليست تجري لأحد على ما يهوى ولو كان لبلغ منها غاية ما شاء، وقد تعرفان أن التزويج هزله جد وجده ندم المنادم عليه يدوم والعثور فيه لا يكاد يقوم والأناة في الأمور أوفق لما يخاف فيها من المقدور ، فإن الأمور إذا جاءت خلاف الهوى بعد التأني فيها كان المرء بحسن العزاء خليقاً ، وبالصبر عليها حقيقاً ، وعلمت أن الله ولي التدبير فلم تلم النفس على التقصير واني بالله أستعين ، سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره ويصح لي الذي أريد علمه من أمره ومستخيره وان كنت أعلم انه لا خيرة لأحد فيما هو كائن . فعلمتكما بالذي يرينيه الله في أمره ولا قوة إلاّ بالله . فقالا : وفقك الله وخار لك ثم انصرفا ، فلما أعلماه بقولها تمثل وقال :

فإن يكُ صدر هذا اليوم ولى فـــان غداً للناظرين قريب

وتحدث الناس بالذي كان من طلاق عبد الله امرأته قبل أن يفرغ من طلبته ، وقبل أن يوجد له الذي كان من بغيته ، ولم يشكوا في غدر معاوية إياه ، فاستحث عبد الله بن سلام أبا هريرة وأبا الدرداء وسألهما الفراغ من أمره ، فأتياها ، فقالا لها : قد أتيناك لما أنت صانعة في أمرك ، وان تستخيري الله يخر لك فيما تختارين ، فإنه يهدي من استهداه ويعطي من اجتداه ، وهو أقدر القادرين .

قالت : الحمد لله أرجو أن يكون الله قد خارني فإنه لا يكل إلى غيره من توكل عليه ، وقد استبرأت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا بموافق لما أريد لنفسي مع اختلاف من استشرته فيه ، فمنهم الناهي عنه ومنهم الآمر به واختلافهم أول ما كرهت من الله ، فعلم عبد الله انه خدع واشتد عليه الهم والحزن .

ولما انقضت إقراؤها وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد ، فخرج حتى قدمها وبها يومئذ الحسين بن علي ، وهو سيد أهل العراق فقهاً وحالاً وجوداً وبذلاً ، فقال أبو الدرداء إذ قدم العراق : ما ينبغي لذوي الحجا والمعرفة والتقى أن يبدأ به ويؤثره على مهم أمره بما يلزمه حقه ويجب عليه حفظه ، وهذا ابن بنت رسول الله (ص) وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة ، فلست بناظر في شيء قبل الإلمام به والدخول عليه والنظر إلى وجهه الكريم وأداء حقه والتسليم عليه ، ثم أستقبل بعد إن شاء الله ما جئت إليه وبعثت إليه ، فقصد حتى أتى الحسين ، فلما رآه الحسين قام إليه فصافحه إجلالاً له ومعرفة لمكانه من رسول الله (ص) وموضعه في الإسلام .

ثم قال الحسين : والله إني لذو حرص عليك ولقد كنت بالاشتياق إليك ، فقال أبو الدرداء : وجهني معاوية خاطباً على ابنه يزيد أرينب بنت إسحاق ، فرأيت أن لا أبدأ بشيء قبل إحداث العهد بك والتسليم عليك .

فشكر له الحسين ذلك وأثنى عليه ، وقال : لقد كنت ذكرت نكاحاً وأردت الإرسال إليها بعد انقضاء إقرائها ، فلم يمنعني من ذلك إلاّ تخيير مثلك ، فقد أتى الله بك فاخطب رحمك الله عني وعليه فلتختر من اختاره الله لها وانها أمانة في عنقك حتى تؤديها إليها وأعطاها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه .

فقال أبو الدرداء : أفعل إن شاء الله ، فلما دخل عليها قال لها : أيتها المرأة إن الله خلق الأمور بقدرته وكونها بعزته، فجعل لكل أمر قدراً ولكل قدر سبباً ، فليس لأحد عن قدر الله مستحاص ولا عن الخروج عن علمه مستناص، فكان مما سبق لك وقدر عليك الذي كان من فراق عبد الله بن سلام إياك ، ولعل ذلك لا يضرك وأن يجعل الله لك فيه خيراً كثيراً وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن الملك وولي العهد والخليفة من بعده يزيد بن معاوية وابن بنت رسول الله (ص) وابن أول من آمن به من أمته وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة ، وقد بلغ سناهما وفضلهما ، وجئتك خاطباً عليهما ، فاختاري أيهما شئت ، فسكتت طويلاً ثم قالت : يا أبا الدرداء لو أن هذا الأمر جاءني وأنت غائب عني أشخصت فيه الرسل إليك واتبعت فيه رأيك ولم أقطعه دونك على بعد مكانك ونأي دارك ، فأما إذا كنت المرسل فيه فقد فوضت أمري بعد الله إليك وبرئت منه إليك وجعلته في يدك ، فاختر لي أرضاهما لديك ، والله شهيد عليك واقض فيه قضاء ذي التحري المتقي ، ولا يصدنك عن ذلك اتباع هوى فليس أمرهما عليك خفياً وما أنت عما طرقتك عمياً .

فقال أبو الدرداء : أيتها المرأة إنما عليّ اعلامك وعليك الاختيار لنفسك . قالت : عفا الله عنك إنما أنا ابنة أخيك ومن لا غنى بها عنك ، فلا يمنعك رهبة أحد من قول الحق فيما طرقتك ، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك والله خير من روعي وخيف انه بنا خبير لطيف .

فلما لم يجد بداً من القول والإشارة عليها ، قال : أي بنية . ابن بنت رسول الله (ص) أحب إليّ وأرضاهما عندي والله أعلم بخيرهما لك ، وقد كنت رأيت رسول الله (ص) واضعاً شفتيه على شفتي الحسين فضعي شفتيك حيث وضعها رسول الله . قالت : قد اخترته ورضيته فاستنكحها الحسين بن علي وساق إليها مهراً عظيماً .

وبلغ معاوية الذي كان من فعل أبي الدرداء في ذكره حاجة أحد مع حاجته وما بعثه هو له ونكاح الحسين إياها ، فتعاظمه ذلك جداً ولامه لوماً شديداً وقال : من يرسل ذا بلاهة وعمى يركب في أمره خلاف ما يهوى ، ورأي كان من رأيه أسوأ ولقد كنا بالملامة منه أولى حيث بعثناه ولحاجتنا انتحلناه .

وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه إياها بدرات مملوءة دراً كان ذلك الدر أعظم ماله وأحبه إليه . وكان معاوية قد اطرحه وقطع جميع وافده عنه لسوء قوله فيه ، وتهمته إياه على الخديعة ، فلم يزل يجفوه ويغضه ويقطع به عنه ما كان يجديه حتى عيل صبره ، فخرج من عنده راجعاً إلى العراق، وهو يذكر ماله الذي كان استودعها إياه ولا يدري كيف يصنع فيه وأنى يصل إليه ، ويتوقع جحودها عليه لسوء فعله وطلاقه إياها على غير شيء أنكره منها ولا نقمة عليها .

فلما قدم العراق لقي الحسين ، فسلم عليه ، ثم قال : قد علمت جعلت فداك الذي كان من طلاقي أرينب بنت إسحاق ، وكنت قبل فراقي إياها قد استودعتها مالا عظيماً وداراً ، وكان الذي كان ولم أقبضه والله ما أنكرت منها في طول ما صحبتها فتيلاً ، ولا أظن بها إلا جميلاً ، فذاكرها أمري واحضضها على الرد عليّ فإن الله يحسن عليك ذكرك ويجزل به أجرك .

فسكت عنه فلما انصرف الحسين إلى أهله قال لها : قدم عبد الله بن سلام وهو يحسن الثناء عليك ويحمل الشر عنك في حسن صحبتك وما أنسه قديماً من

أمانتك ، فسرني ذلك وأعجبني وذكر انه كان استودعك مالاً قبل فراقه إياك فأدي إليه أمانته وردي عليه ماله .

قالت : صدق والله استودعني مالاً لا أدري ما هو ، وإنه لمطبوع عليه بطابعه ، ما أخذت منه شيئاً إلى يومه هذا ، فأثنى عليها الحسين خيراً ، وقال : بل أدخله عليك حتى تبرئي إليه منه كما دفعه إليك .

ثم لقي عبد الله بن سلام ، فقال : ما أنكرت مالك فادخل عليها وتوف مالك منها ، فقال عبد الله بن سلام : أو تأمر بدفعه إليّ جعلت فداك ؟ قال : لا . حتى تقبضه منها ، كما كان دفعته إليها وتبرئها منه إذا أدته ، فلما دخلا عليها قال لها الحسين : هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلب وديعته فأديها إليه كما قبضتيها منه . فأخرجت البدرات فوضعتها بين يديه ، وقالت له : هذا مالك ، فشكر لها وأثنى عليها وخرج الحسين .

ففض عبد الله خاتم بدرة فحثا لهـــا من ذلك الدر حثوات ، فقال : خذي فهذا قليل مني لك ؛ واستعبرا جميعاً حتى تعالت أصواتهما بالبكاء أسفاً على ما ابتليا به ، فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما للذي سمع منهما ، فقال : أشهد الله أنها طالق ثلاثاً . اللهم انك تعلم أني لم أستنكحها رغبة في مالها ولا جمالها ولكنني أردت إحلالها لبعلها وثوابها على معاجلته في أمرها ، فأوجب لي بذلك الأجر وأجزل لي عليه الذخر انك على كل شيء قدير .

ولم يأخذ بما ساق إليها في مهرها قليلاً ولا كثيراً ، وقد كان عبد الله بن سلام سأل ذلك أرينب أي التعويض على الحسين ، فأجابته إلى رد ماله عليه شكراً لما صنعه بهما ، فلم يقبله ، وقال : الذي أرجو عليه من الثواب خير لي منه ، فتزوجها عبد الله بن سلام ، وعاشا متحابين متصافيين حتى قبضها الله (١) .

---

(١) الامامة والسياسة المندب لابن قتيبة ، ابن حجة الحموي : ثمرات الاوراق .

٢ — بثينة بنت حبا العذرية :

من شواعر بني عذرة ، اشتهرت بأخبارها مع عشيقها جميل بن معمر العذري ، وفي شعرها رقة ومتانة وكانت صدوقة اللسان ، جميلة الوجه ، حسنة البيان ، عفيفة البطن والفرج .

وأول ما علق جميل بثينة ، أن جميلاً خرج في يوم عيد ، والنساء إذ ذاك يتزين ، ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال في كل عيد ، فوقف جميل على بثينة وأختها أم الحسين في نساء من بني الأحب فرأى منهن منظراً وأعجبته وعشق بثينة وقعد معهن ، ثم راح وقد كان معه فتيان من بني الأحب ، فعلم أن القوم قد عرفوا في نظره حب بثينة ، ووجدوا عليه فراح وهو يقول شعراً مذكوراً في أعلام النساء .

ولما علمت بثينة أن جميلاً قد نسب بها حلفت بالله لا يأتيها على خلاء إلاّ خرجت إليه ، ولا تتوارى منه فكان يأتيها عند غفلات الرجال فيتحدث إليها مع أخواتها ، حتى نمي إلى رجالها انه يتحدث إليها إذا خلا منهم وكانوا أصلافاً غيارى ، فرصدوه بجماعة نحو من بضعة عشر رجلاً ، وجاء على ناقته الصهباء حتى وقف على بثينة وأم الحسين وهما يحدثانه وهو ينشدهما يومئذ فقال شعراً ذكر في أعلام النساء .

فبينا هو على تلك الحال إذ وثب عليه القوم ، فرماهم بها فسبقت به وهو يقول :

إذا جمع الاثنان جمعاً رميتهم بأركانها حتى تخلى سبيلها

فكان هذا أول سبب المهاجاة بينه وبين عبد الله بن قطبة .

ثم أن بثينة واعدت جميلاً أن يلتقيا في بعض المواضع ، فأتى لوعدها ،

وجاء أعرابي يستضيف القوم فأنزلوه وقروه ، فقال لهم : قد رأيت في بطن هذا الوادي ثلاثة نفر متفرقين متوارين في الشجرة ، وأنا خائف عليكم أن يسلبوا إبلكم ،فعرفوا انه جميل وصاحباه ، فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده ، فلما أسفر له الصبح انصرف كئيباً سيء الظن بها ورجع إلى أهله ، فجعل نساء الحي يقرعنه بذلك ويقلن له : إنما حصلت منها على الباطل والكذب والغدر أولى بوصلك منها كما أن غيرك يحظى بها ، فقاله شعراً ذكر في أعلام النساء .

ولقي جميل بثينة بعد تهاجر بينهما طالت مدته فتعاتبا طويلاً ، فقالت له : ويحك يا جميل أتزعم أنك تهواني وأنت الذي تقول :

رمى الله في عيني بثينة بالقذى   وفي الغر من أنيابها بالقوادح

فأطرق طويلاً يبكي ثم قال : بل أنا القائل :

ألا ليتني أعمى أصم تقودني   بثينة لا يخفى علي كلامها

وسعت أمة لبثينة بها إلى أبيها وأخيها ، وقالت لهما : إن جميلاً عندها الليلة ، فأتياها مشتملين على سيفين فرأياه جالساً يحدثها ، ويشكو إليها بثه ، ثم قال لها : يا بثينة أرأيت ودي إياك وشغفي بك ألا تجزينه ؟ قالت بماذا ؟ قال : بما يكون بين المتحابين ، فقالت له : ياجميل أهذا تبغي والله لقد كنت عندي بعيداً منه ولئن عاودت تعريضاً بريبة لا رأيت وجهي أبداً ، فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه ولو علمت أنك تجيبيني إليه لعلمت أنك تحبين غيري ، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفي هذا ما استمسك في يدي ولو أطاعتني نفسي لهجرتك هجرة الأبد وقال شعراً ذكر في أعلام النساء .

فقال أبوها لأخيها : قم بنا فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها فانصرفا وتركاهما .

وما زال جميل يقول فيها الشعر حتى أشهرها فضاق أهل بثينة بجميل ذرعاً فشكوه إلى السلطان ، فأهدر لهم السلطان دم جميل وأباحهم قتله ، فمشت مشيخة حي بثينة إلى أبي جميل وكان يلقب صباحاً ، وكان ذا مال وفضل وقدر في أهله فشكوه إليه وناشدوه الله والرحم وسألوه كف ابنه عما يتعرض له ويفضحهم به في فتاتهم ، فوعدهم كفه ومنعه ما استطاع ، ثم انصرفوا ، فدعا به فقال له : يا بني حتى متى أنت عَمِه في ضلالك لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وينكحها ،وأنت عنها بمعزل ،ثم تقوم من تحته إليك فتغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة ، وهي مضمرة لبعلها ما تضمنه الحرة لمن ملكها ، فيكون قولها لك تعليلاً وغروراً ، فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على حالتها المبذولة إن هذا لذل وضيم ما أعرف أخيب سهماً ولا أضيع عمراً منك ، فأنشدك الله ألاّ كففت وتأملت أمرك فإنك تعلم ان ما قلته حق ، ولو كان إليها سبيلي لبذلت ما أملكه فيها ، ولكن هذا أمر قد فات واستبد به من قدر له ، وفي النساء عوض .

فقال له جميل : الرأي ما رأيت والقول ما قلت ، فهل رأيت قبلي أحداً قدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسلي نفسه أو استطاع أن يدفع ما قضي عليه ، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها عن عيني لفعلت . ولكن لا سبيل إلى ذلك ، وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي وأنا أمتنع من طروق هذا الحي والإلمام بهم ولو مت كمداً ، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه وقام وهو يبكي ، فبكى أبوه ومَن حضر جزعاً لما رأوا منه ثم قال شعراً ذكر في أعلام النساء .

ثم خرج جميل إلى الشام ، فلما أراد الخروج هجم ليلاً على بثينة ، وقد وجد غفلة فقالت له : أهلكتني والله وأهلكت نفسك ويحك ما تخاف ؟ فقال لها : هذا وجهي إلى الشام إنما جئتك مودعاً ، فحادثها طويلاً ثم ودعها ،

وقال : يا بثينة ما أرانا نلتقي بعد هذا وبكيا طويلاً ، ثم قال لها شعراً ذكر في أعلام النساء .

ثم أن جميلاً طال مقامه بالشام ، ثم قدم وبلغ بثينة خبره فراسلته مع بعض نساء الحي تذكر شوقها إليه ووجدها به وطلبها للحيلة في لقائه وواعدته لموضع يلتقيان فيه ، فسار إليها وحدثها طويلاً وأخبرها خبره بعدها .

وقد كان أهلها رصدوها ، فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما ، فوثب جميل فانتضى سيفه وشد عليهما فاتقياه بالهرب ، وناشدته بثينة ألاّ انصرف ، وقالت له : إن أقمت فضحتني ولعل الحي أن يلحقوك ، فأبى وقال : أنا مقيم وامضي أنت وليصنعوا ما أحبوا ، فلم تزل تناشده حتى انصرف ،وقد هجرته وانقطع التلاقي بينهما مدة .

ثم ضاقت به الدنيا ذرعاً ، فكان يصعد بالليل على رمل يتنسم الريح نحو حي بثينة ويقول :

أيا ريح الشمال أما تريني أهيم واني بادي النحول
هبي لي من نسمة ريح بثن ومني بالهبوب إلى جميل
وقولي يا بثينة حسب نفسي قليلك أو أقل من القليل

فإذا وضح الصبح انصرف. وكانت بثينة تقول لجواري الحي عندها : ويحكن اني أسمع أنين جميل من بعض الغيران ، فيقلن لها : اتقي الله فهذا شيء يخيله لك الشيطان لا حقيقة له .

ثم كانت بثينة تراسله مع بعض نساء تذكر شوقها إليه ووجدها به وطلبها للحيلة في لقائه .

وقيل لبثينة : هذا جميل لما به ، فهل عندك من حيلة تنفسين بها وجده ؟

فقالت : ما عندي أكثر من النظر إلاّ أن ألقاه في الدار الأخرى أو زيارته وهو ميت تحت الثرى .

ولما حضرت الوفاة جميلاً قال :

صدع النعي ومـــا كنا بجميل وثوى بمصر ثواء غير قفول
ولقد أجر الذيل في وادي القرى نشوان بين مزارع ونخيل
قومي بثينة فاندبي بعويـــل وأبكي خليلك دون كل خليل

ثم دعا رجلاً فقال له : أهل أعطيك كل ما أخلفه على أن تفعل شيئاً أعهده إليك ؟ فقال الرجل : نعم . قال : إذا أنا مت فخذ حلتي فاعزلها جانباً ، ثم ارحل إلى رهط بني الأحب من عذرة ، وهم رهط بثينة ، فإذا صرت إليهم ، فارتحل ناقتي هذه واركبها ، ثم البس حلتي هذه واشققها ، ثم اعل على شرف وصح بهذه الأبيات .

فلما قضى جميل نحبه وواراه الرجل أتى رهط بثينة ، ففعل ما أمره به جميل ، فلما استتم الأبيات حتى برزت إليه امرأة يتبعها نسوة قد فرقتهن طولاً ، وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز في دجنة حتى أتت ، فقالت : يا هذا والله لئن كنت صادقاً لقد قتلتني ، ولئن كنت كاذباً لقد فضحتني قال : والله ما أنا بصادق وأخرج حلته ، فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها ، واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبنه حتى صعقت فمكثت مغشياً عليها ساعة ثم فاقت وهي تقول :

وإن سلوي عن جميل لساعة من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر إذا مت بأساء الحياة ولينها

ثم اجتمع نساء الحي وأنشدتهن الأبيات ، وترحموا عليه ، وقالوا :

انه كان عفيفاً صدوقاً . وأخذت بثينة على نفسها بعد وفاته أن لا تكتحل بإثمد ولا تفرق رأسها بمخيط ولا مشط ولا تدهنه إلاّ من صداع خافت على بصرها منه ، ولا تلبس خماراً مصبوغاً ولا إزاراً .

ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان ، فقال لها : والله يا بثينة ما أرى فيك شيئاً لما كان يقول جميل . قالت : يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إلي بعينين ليستا في رأسك ، وفي رواية : قال لها عبد الملك : ويحك يا بثينة ما رجا فيك جميل حين قال فيك ما قال . قالت : الذي رجت منك الأمة حين ولتك أمورها ، فما رد عليها عبد الملك كلمة .

وتوفيت بثينة بعد موت جميل بقليل سنة ٨٣ هـ [١] .

٣ ـ حَبابَة جارية يزيد بن عبد الملك :

مغنية من ألحن من رؤي في عصرها من قيان ، ومن أحسن الناس وجهاً واكملهم عقلاً وأفضلهم أدباً . قرأت القرآن وروت الأشعار وتعلمت العربية .

وهي مولدة من مولدات المدينة كانت لرجل من أهلها يعرف بابن رمانة ، وقيل : ابن مينا ، وهو الذي خرّجها وأدبها . فأخذت الغناء عن ابن سريج وابن محرز ومالك ومعبد وجميلة وعزة الميلاء .

ثم اشتراها يزيد بن عبد الملك بن مروان بأربعة آلاف دينار ، وفي روايتي الطبري والدميري أن سعدة زوجة يزيد بن عبد الملك قالت ليزيد : يا أمير المؤمنين هل بقي من الدنيا شيء تتمناه بعد ؟ قال : حبابة ، فأرسلت

---

(١) الأصفهاني : الأغاني ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ابن قيم الجوزية : روضة المحبين ، الوشاء : الموشى ، ابن حجة : ثمرات الأوراق ، الزركلي : الأعلام .

مَن اشتراها بأربعة آلاف دينار ، فصنّعتها وزينتها حتى ذهب عنها كلال السفر .

فأتت بها يزيد فأجلستها من وراء الستر ، فقالت : يا أمير المؤمنين أبقي شيء من الدنيا تتمناه ، قال : ألم تسأليني عن هذا مرة فأعلمتك ، فرفعت الستر وقالت : هذه حبابة ، وقامت وخلتها عنده ، فحظيت سعدة عند يزيد وأكرمها وغلبت على عقله ، فهام بها هياماً عظيماً ، فأصبح لها نفوذ كبير في نفسه ، فتأمره فيصدع لأمرها وتشاغل بها عن النظر في الأمور ، وفي أصحاب الظلامات حتى قال لها يوماً : قد استخلفتك على ما ورد علي ونصبت لذلك مولاي فلاناً واستخلفته لأقيم معك أياماً واستمتع بك . قالت : فإني قد عزلته فغضب عليها وقال : قد استعملته وتعزلينه وخرج من عندها مغاضباً .

فلما ارتفع النهار وطال عليه هجرها دعا خصياً ، وقال : انطلق فانظر أي شيء تصنع حبابة ، فانطلق الخادم ، ثم أتاه ، فقال : رأيتها بإزار خلوقي قد جعلت له ذنبين وهي تلعب بلعبها ، فقال : ويحك احتل لها حتى تمر بها علي ، فانطلق الخادم إليها فلاعبها ساعة ثم استلب لعبة من لعبها وخرج ، فجعلت تحضر في أثره ، فمرت بيزيد ، فوثب وهو يقول : لقد عزلته ، وهي تقول : قد استعملته ، فعزل مولاه وولاه وهو لا يدري ، فمكث معها خالياً أياماً حتى دخل عليه أخوه مسلمة ، فلامه ، وقال : ضيعت حوائج الناس واحتجبت عنهم أترى هذا مستقيماً لك ، وهي تسمع مقالته فغنت لما خرج :

ألا لا تلمه اليوم أن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا
بكيت الصبا جهدي فمن شاء لامني ومن شاء آسى في البكاء وأسعدا
وإني وإن فندت في طلب الغنى لأعلم أني لست في الحب أوحدا

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا
فما العيش إلاّ ما تلذ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

وكانت حبابة إذا غنت وطرب يزيد ، قال لها : أطير . فتقول له فإلى مَن تدع الناس ؟ فيقول : إليك .

ونزل يزيد ببيت رأس الشام ومعه حبابة فقال : زعموا أنه لا تصفو لأحد عيشة يوماً إلى الليل إلاّ يكدرها شيء عليه وسأجرب ذلك ، ثم قال لمن معه : إذا كان غد فلا تخبروني بشيء ولا تأتوني بكتاب .

وخلا هو وحبابة فأتيا بما يأكلان ، فأكلت رمانة فشرقت بحبة منها فماتت ، فأقام يزيد لا يدفنها ثلاثاً حتّى تغيرت وانتنت وهو يشمها ويرشفها فعاتبه على ذلك ذوو قرابته وأصدقاؤه وعابوا عليه ما يصنع ، وقالوا : قد صارت جيفة بين يديك حتّى أذن لهم في غسلها ودفنها وأمر فأخرجت في نطع وخرج معها لا يتكلم حتّى جلس على قبرها ، فلما دفنت قال :

أصبحت والله كما قال كثير :

فإن يسل عنك القلب أو يدع الصبا فباليأس نسلو عنك لا بالتجلد
وكل خليل راءني فهو قائل من أجلك هذا هامة اليوم أو غد

وفي رواية أن مسلمة بن عبد الملك بن مروان قال : ماتت حبابة فجزع عليها يزيد فجعلت أواسيه وأعزيه وهو ضارب بذقنه على صدره ما يكلمني حتّى رجع ، فلما بلغ إلى بابه ، التفت إليّ فقال :

فإن تسل عنك النفس أو تدع الصبا فباليأس نسلو عنك لا بالتجلد

ثم دخل بيته فمكث أربعين يوماً ثم هلك .

وفي رواية : أن يزيد جزع عليها في بعض أيامه فقال : انبشوها حتّى انظر إليها ، فقيل : تصير حديثاً ، فرجع فلم ينبشها .

وقد روى المدائني انه اشتاق إليها بعد ثلاثة أيام من دفنه إياها ، فقال : لا بد من أن تنبش ، فنبشوا وكشف له عن وجهها ، وقد تغير تغيراً قبيحاً ، فقيل له : يا أمير المؤمنين اتق الله ألا ترى كيف صارت ؟ فقال : ما رأيتها قط أحسن منها اليوم ، أخرجوها ، فجاءه مسلمة بن عبد الملك ووجوه أهله ، فلم يزالوا به حتّى أزالوه عن ذلك ودفنوها .

وانصرف يزيد وقد كمد كمداً شديداً ، فلم يستطع الركوب من الجزع ولا المشي فحمل على منبر على رقاب الرجال ، ولم يأذن للناس بعد حبابة إلاّ مرة واحدة وقال : فوالله ما استتم دخول الناس .

وفي رواية : لما ماتت حبابة ضم يزيد جويرية لها كانت تخدمها إليه ، فكانت تحدثه وتؤنسه ، فبينا هو يوماً يدور في قصره إذ قال لها هذا الموضع الذي كنا فيه فتمثلت :

كفى حزناً للهائم الصب أن يرى   منازل من يهوى معطلة قفرى

فبكى حتّى كاد يموت ، ثم لم تزل تلك الجويرية معه يتذكر بها حبابة حتّى مات بعد حبابة بخمسة عشر أو سبعة عشر يوماً [1] .

٤ — رَمْلة بنت الزّبير :

كان يهواها خالد بن يزيد بن معاوية ، وحج عبد الملك بن مروان ومعه خالد بن يزيد ، فبينا خالد يطوف بالبيت إذ بصر برملة بنت الزبير : رأيتها

---

(١) الأصفهاني : الأغاني ، الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ، الدميري : حياة الحيوان ، المبرد : الكامل ، الميداني : مجمع الأمثال ، ياقوت : معجم البلدان ، ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ (مخطوط) الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف .

تطوف بالبيت قد أذهلت عقلي والله ما أبديت لك ما بي حتّى عيل صبري ، ولقد عرضت النوم على عيني فلم تقبله ، والسلو على قلبي فامتنع منه ، فأطال عبد الملك التعجب من ذلك ، وقال : ما كنت أقول إن الهوى يستأثر مثلك ، فقال : واني لأشد تعجباً من تعجبك في ، ولقد كنت أقول : ان الهوى لا يتمكن إلاّ من صنفين : الشعراء والأعراب .

فأما الشعراء فإنهم ألزموا قلوبهم الفكر في النساء والغزل ، فمال طبعهم إلى النساء ، فضعفت قلوبهم عن دفع الهوى فاستسلموا منقادين . وأما الأعراب فإن أحدهم يخلو بامرأته فلا يكون الغالب عليه غير حبه لها . وجملة أمري ما رأيت نظرة صارت بيني وبين الحزم وحسنت عندي ركوب الإثم مثل نظرتي هذه ، فتبسم عبد الملك فقال : أوكل هذا بلغ بك ، فوجه عبد الملك يخطب رملة على خالد ، فذكروا ذلك لها ، فقالت : لا والله أو يطلق نساءه ، فطلق امرأتين كانتا عنده وظعن بها إلى[1] الشام ، وقيل غير ذلك في أعلام النساء .

٥ ـ سلاّمة القسّ :

مغنية مولدة من مولدات المدينة ، نشأت بها ، وأخذت الغناء عن معبد وابن عائشة وجميلة ومالك بن أبي السمح وذويه فمهرت بالغناء وحذقت الضرب على الأوتار وقالت الشعر الكثير .

قال المدائني : كانت سلاّمة مغنية حاذقة جميلة ظريفة تقول الشعر وما رأيت خصالاً أربعاً اجتمعن في امرأة مثلها حسن وجهها وحسن غنائها وحسن شعرها .

---

(١) الأصفهاني : الأغاني ، المبرد : الكامل ، ابن قتيبة :المعارف ، طيفور : بلاغات النساء ، الحصري : زهر الآداب ، ابن الجوزي : مثير الغرام (مخطوط) .

وكان يهواها القس ، فسمع ذات يوم غناء سلاّمة على غير تعمد منه فبلغ غناؤها منه كل مبلغ ، فرآه مولاه فقال له : هل لك أن أخرجها إليك ؟ فأبى ، فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه فغنت ، فشغف بها وشغفت به . وعرف ذلك أهل مكة ، فقالت له سلاّمة يوماً أنا والله أحب ذلك . قال : وأنا والله أحبك . قالت : أن أضع فمي على فمك . قال : وأنا والله أحب ذلك . قالت : فما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لخال . قال : إني سمعت الله عز وجل يقول : الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تؤول إلى عداوة ، ثم قام وانصرف ، وعاد إلى ما كان عليه من النسك ، وقالت من فوره :

إن التي طرقتك بين ركائب ... تمشي بمزهرها وأنت حرام
باتت تعللنا وتحسب أننا ... في ذاك أيقاظ ونحن نيام
حتى إذا سطع الضياء لناظر ... فإذا وذلك بيننا أحلام
قد كنتُ أعذل في السفاهة أهلها ... فاعجب لما تأتي به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم إنما ... سُبُل الضلالة والهدى أقسام

ثم اشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان بعشرين ألف دينار ، فلما شريت سلاّمة من آل رمانة ، وخرجت من ملك أهلها طلبوا إلى الرسل أن يتركوها عندهم أياماً ليجهزوها بما يشبهها من حلي وثياب وطيب وصبغ ، فقالت لهم الرسل : هذا كله معنا لا حاجة بنا إلى شيء منه وأمروها بالرحيل ، فخرجت حتى نزلت سقاية سليمان بن عبد الملك وشيعها الخلق من أهل المدينة ، فلما بلغوا السقاية ، قالت للرسل : قوم كانوا يغشونني ويسلمون علي ، ولا بد لي من وداعهم والسلام عليهم ، فأذن للناس عليها فانقضوا حتى ملؤوا رحبة القصر ووراء ذلك فوقفت بينهم ومعها العود فغنتهم بشعر ذكر في أعلام النساء .

فلم تزل تردد ذلك حتى راحت وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها .
وكان يزيد يقول ما يقر عيني ما أوتيت من أمر الخلافة حتى اشتري سلاّمة وحَبابة ، فكانت حَبابة تنظر إلى سلامة بتلك العين الجليلة المتقدمة وتعرف فضلها عليها .

فلما رأت أثرتها عند يزيد ومحبة يزيد لها استخفت بها ، فقالت لها سلاّمة : أي أُخية نسيت لي فضلي عليك ، ويلك أين تأديب الغناء وأين حق التعليم ، أنسيت قول جميلة يوم تطارحنا ، وهي تقول لك : خذي أحكام ما أطارحك من أختك سلاّمة ، ولن تزال بخير ما بقيت لك وكان أمركما مؤتلفاً . قالت : صدقت خليلتي والله لا عدت إلى شيء تكرهينه ، فما عادت لها إلى مكروه وماتت حبابة وعاشت سلامة بعدها دهراً .

ولما توفي يزيد بن عبد الملك رثته سلاّمة فقالت :

لا تلمنا إن خشعنـــا أو هممنا بخشوع
إذْ فقدنـــا سيداً كا ن لنـــا غير مضيع
وهو كالليث إذا مـــا عد أصحاب الدروع
يقنص الأبطال ضرباً في مضي ورجوع

ثم رثته بمرثية أخرى ، فما سمع السامعون بشيء أحسن منها ، ولا أشجى ، ولقد أبكت العيون وأحرقت القلوب وأفتنت الأسماع وهي :

يا صاحب القبر الغريب بالشام في طرف الكثيب
بالشام بين صفائـــح صم ترصف بالجنوب
لمـــا سمعت أنينـــــه وبكاءه عند المغيب
أقبلت أطلب طبّـــه والداء يعضل بالطبيب

وبعد موت يزيد أحضر سلاّمة ابنه الوليد وأمرها بالغناء ، فتنغصت من ذلك وبكت ، ثم غنته فقال الوليد رحم الله أبي وأطال عمري وأمتعني بحسن غنائك يا سلامة ثم كان أبي يقدم عليك حبابة ؟ قالت : لا أدري والله . قال لها : لكنني والله أدري ذلك بما قسم الله لها . قالت : يا سيدي أجل [1] .

٦ – طَروب جارية الأمير عبد الرحمن الأوسط :

من فواضل نساء عصرها ، أُولع بها الأمير عبد الرحمن الأوسط ولعاً عظيماً ، وكلف بها كلفاً شديداً ، فأغضبها ذات يوم ، فهجرته وصدت عنه وأبت أن تأتيه ، ولزمت مقصورتها فاشتد قلقه لهجرها ، وضاق ذرعه من شوقها وجهد أن يترضاها بكل وجه ، فأعياه ذلك ، فأرسل من خاصته خصيانه من يكرهها على الوصول إليه ، فأغلقت باب مجلسها في وجوههم وآلت أن لا تخرج إليهم طائعة ولو انتهى الأمر إلى القتل .

فانصرفوا إلى عبد الرحمن وأعلموه بالأمر وأستأذنوه في كسر الباب عليها ، فنهاهم وأمرهم بشد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم ، ففعلوا وبنوا عليه بالبدر. وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضياً راغباً في المراجعة على أن لها جميع ما سد به الباب ، فأجابت ، وفتحت الباب ، فانهالت البدر في بيتها ، فأكبت على رجله تقبلها وحازت المال وأعطاها حلياً قيمته مائة ألف دينار .

وكانت ذات نفوذ وسلطان في الدولة تبرم الأمور ، فلا يرد لها شيء مما تبرمه [2] .

---

(١) الأصفهاني : الأغاني ، المسعودي : مروج الذهب ، النويري : نهاية الأرب ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ، الوشاء : الموشى ، ابن عساكر : تاريخ دمشق (مخطوط) ، الذهبي : المشتبه ، الصفدي : الوافي بالوفيات (مخطوط) .

(٢) المقري : نفح الطيب .

٧ ــ عائشة بنت طلحة التَيْمية :

من أندر نساء عصرها حسناً وجمالاً وهيأة ومتانة خلق وعفة وأدباً . كانت لا تحتجب من الرجال ، فتجلس وتأذن لهم بالدخول عليها .

فقد حدث ابن إسحاق عن أبيه فقال : دخلت على عائشة بنت طلحة ، وكانت لا تحتجب من الرجل تجلس وتأذن كما يأذن الرجل ، فعاتبها مصعب في ذلك فقالت : ان الله تبارك وتعالى وسمني بميسم الجمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم ، فما كنت لأستره والله ما في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد .

وقال أنس بن مالك لعائشة بنت طلحة : إن القوم يريدون أن يدخلوا إليك ، فينظروا إلى حسنك ؟ قالت : أفلا قلت لي فألبس ثيابي وكانت من أحسن الناس وجهاً في زمانها .

ورآها أبو هريرة فقال : سبحان الله كأنها من الحور العين .

وقال أبو هريرة لعائشة بنت طلحة : ما رأيت شيئاً أحسن منك إلاّ معاوية أول يوم خطب على منبر رسول الله (ص) ، فقالت : والله لأنا أحسن من النار في الليلة القرة في عين المقرور .

ووصفت عزة الميلاء عائشة بنت طلحة ، فقالت : فلا والله ان رأيت مثلها مقبلة ومدبرة محطوطة المتنين عظيمة العجيزة ممتلئة الترائب ، نقية الثغر وصفحة الوجه فرعاء الشعر لفاء الفخذين ممتلئة الصدر خميصة البطن ذات عكن ضخمة السرة مسردلة الساق يرتج ما بين أعلاها إلى قدميها وفيها عيبان أما أحدهما فيواريه الخمار ، وأما الآخر فيواريه الخف عظم القدم والأذن .
وكانت عائشة شرسة الخلق وكذلك نساء بني تيم هن أشرس خلق الله ،

وأحظى عند أزواجهن ، وكانت عائشة بنت طلحة من أشد الناس مغايظة لأزواجها ، وكانت لمن يجيء يحدثها في رقيق الثياب ، فإذا قالوا : قد جاء الأمير ضمت عليها مطرفها وقطبت وكانت كثيراً ما تصف لزوجها عمر بن عبيد الله ، وكان من أشد الناس غيرة مصعباً ، وجماله تغيظه بذلك فكان يموت .

ونالت عائشة من مصعب بن الزبير وقالت : عليّ كظهر أمي وقعدت في غرفة وهيأت فيها ما يصلحها ، فجهد مصعب أن تكلمه ، فأبت فبعث إليها ابن قيس الرقيات ، فسألها كلامه ، فقالت : كيف بيميني ، فقال : ههنا الشعبي فقيه أهل العراق فاستفتيه ، فدخل عليها فأخبرته ، فقال : ليس هذا بشيء ، فقالت : أتحلني وتخرج خائباً ، فأمرت له بأربعة آلاف درهم .

وغضبت عائشة بنت طلحة على مصعب بن الزبير ، فشكا ذلك إلى أشعب وكان يألف مصعباً ، فقال : إن رضيت ؟ حكمك . قال : عشرة آلاف درهم . قال : هي تلك ، فانطلق حتى أتى عائشة فقال : فداؤك قد علمت حبي لك وميلي قديماً وحديثاً إليك من غير منالة ولا فائدة وهذه حاجة قد عرضت تقضين بها حقي وترتهنين بها شكري . قالت : وما عناك ؟ قال : قد جعل لي الأمير عشرة آلاف درهم إن رضيت عنه ، قالت : ويحك لا يمكنني ذلك . قال : بأبي فارضي عنه حتى يعطيني ، ثم عودي إلى ما دعاك الله من سوء الخلق ، فضحكت منه ورضيت عن مصعب .

وكانت عائشة تمتنع على مصعب في غالب الأوقات ، فدخل عليها يوماً وهي نائمة ومعه ثماني لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار ، فأنبهها ونثر اللؤلؤ في حجرها ، فقالت : نومتي كانت أحب إليّ من هذا اللؤلؤ .

ولم تزل حال عائشة مع مصعب على مثل ذلك ، حتى شكا ذلك إلى كاتبه

ابن أبي فروة ، فقال له : أنا أكفيك هذا إن أذنت لي . قال : نعم افعل ما شئت فأتاها ليلاً ومعه أسودان فاستأذن عليها . فقالت عائشة : أفي مثل هذه الساعة ؟ قال : نعم : فأذنت له . فدخل فقال للأسودين : احفرا ههنا بئراً ، فقالت له جاريتها وما تصنع بالبئر ؟ قال : شؤم مولاتك أمرني هذا الظالم أن أدفنها حية وهو أسفك خلق الله لدم حرام . قالت عائشة : فانظري اذهب إليه . قال : هيهات لا سبيل إلى ذلك ، وقال للأسودين ؛ احفرا ، فلما رأت الجد منه بكت ، وقالت : يا ابن أبي فروة إنك لقاتلي ما منه بد ؟ قال : نعم وإني أعلم أن الله عز وجل سيجزيه بعدك ، ولكنه قد غضب وهو كافر الغضب . قالت : وفي أي شيء غضبه ؟ قال : من امتناعك عليه ، وقد ظن أنك تبغضينه وتتطلعين إلى غيره ، فقد جُن ، فقالت أنشدتك الله ألا عاودته . قال : أخاف أن يقتلني .

فبكت وبكى جواريها . فقال لها : قد رققت لك وحلف لها أنه يغرر بنفسه وقال لها : فما أقول ؟ قالت : تضمن له عني أني لا أعود أبداً . قال : فما عندك ؟ قالت : قيام بحقك ما عشت . قال فاعطيني المواثيق ، فأعطته . فقال للأسودين مكانكما وأتى مصعباً ، فأخبره ، فقال : استوثق منها بالإيمان فاستوثق منها ففعلت وصلحت بعد ذلك لمصعب .

وتوفيت عائشة بنت طلحة بعد نيف ومائة للهجرة (١) .

---

(١) انظر ما كتب عنها في المراجع الآتية : الأصفهاني : الأغاني ، ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ابن عساكر : تاريخ دمشق (مخطوط) ، الحصري : زهر الآداب ، اليافعي : مرآة الجنان ، الحافظ المقدسي : الكمال في معرفة الرجال (مخطوط) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، الذهبي : التذهيب (مخطوط) ، ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ، المبرد : الكامل ، النويري : نهاية الأرب ، أبو داود ، المسند ، ابن قتيبة : المعارف ، تسمية من أخرجهم البخاري ومسلم (مخطوط) ، ابن حبان : طبقات الأتقياء (مخطوط) الذهبي : الكاشف (مخطوط) ، الصفدي : الوافي بالوفيات (مخطوط). **Encyclopédie de l'Islam** .

٨ – عاتكة بنت زيد القرشية :

من شواعر العرب ذات جمال وكمال وخلق حسن ورجاحة عقل وجزالة رأي تزوجها عبد الله بن أبي بكر الصديق ، فغلبته على رأيه وشغلته عن مغازيه ومعاشه وتجارته .

فمر عليه أبو بكر الصديق وهو في علية يناغيها في يوم جمعة ، وأبو بكر متوجه إلى صلاة الجمعة ، فصلى أبو بكر ، ثم رجع فوجده لا ينفك يناغيها ، فقال : يا عبد الله . أجمعت ؟ قال : أوصلن الناس ؟ قال : نعم . قال له أبو بكر : قد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة ، وقد ألهتك عن فرائض الصلاة طلقها فطلقها تطليقة وتحولت إلى ناحية .

وبينا أبو بكر يصلي على سطح له في الليل إذ سمعه وهو يقول :

أعاتك لا أنساك ما ذر شارق　　وما ناح قمري الحمام المطوق
أعاتك قلبي كل يوم وليلة　　لديك بما تخفي النفوس معلق
لها خلق جزل ورأي ومنطق　　وخلق مصون في حياء ومصدق
فلم أرَ مثلي طلق اليوم مثلها　　ولا مثلها في غير شيء تطلق

فسمع أبو بكر قوله فأشرف عليه ، وقد رق له فقال : يا عبد الله راجع عاتكة ، فقال : أشهد أني قد راجعتها ، وأشرف على غلام له يقال له أيمن فقال له : يا أيمن أنت حر لوجه الله تعالى أشهدك أني راجعت عاتكة ثم خرج إليها يجري إلى مؤخر الدار وهو يقول شعراً ذكر في أعلام النساء.

ولما مات رثته بقولها :

فللّه عيناً من رأى مثله فتى　　أكر وأحمى في الهياج واصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها　　إلى الموت حتى يترك الرمح أحمرا

فأقسمت لا تنفك عيني سخينة عليك ولا ينفك جلدي أغبرا
مدى الدهر ما غنت حمامة أيكة وما طرد الليل الصباح المنورا

ثم تزوجت عمر بن الخطاب ولما قتل رثته بشعر ذكر في أعلام النساء ، ثم تزوجها الزبير بن العوام ، ثم خطبها علي بن أبي طالب بعد انقضاء عدتها ، فأرسلت إليه أني لأضن بك يا ابن عم رسول الله (ص) عن القتل ، فكان علي بن أبي طالب يقول : من أحب الشهادة الحاضرة فليتزوج عاتكة .

ثم تزوجها الحسين بن علي بن أبي طالب ، فكانت أول من رفع خده من التراب ، ولعن قاتله والراضي به يوم قتل وقالت ترثيه :

وحسيناً فلا نسيت حسيناً أقصدته أسنة الأعداء
غادروه بكربلاء صريعاً جادت المزن في ذرى كربلاء[1]

٩ ـ العباسة بنت المهدي :

من ربات الفضل والأدب والحسن والجمال ، فكان أخوها هارون الرشيد يحبها حباً عظيماً ، كما أنه يحب جعفر بن يحيى حباً عظيماً ، جعله لا يقوى على مفارقتها ، فقال الرشيد لجعفر ؛ ويحك يا جعفر ليس في الأرض طلعة أنا بها آنس ولا أميل وأنا بها أشد استمتاعاً وإنساً مني برؤيتك، ومن العباسة أختي مني موقعاً ليس بدون ذلك، وقد نظرت في أمري معكما فوجدتني لا أصبر

(١) الأصفهاني : الأغاني ، الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ابن عبد البر : الاستيعاب ، الوشاء : الموشى ، ابن الأثير : أسد الغابة ، ذيل الأمالي والنوادر ، مقصورة لبنى العامرية ، شرح الزرقاني على المواهب ، ابن حجر : الإصابة ، شرح ديوان الحماسة للتبريزي ، ابن قتيبة : المعارف ، الإبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ، البخاري : التاريخ الصغير ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ، الصفدي : الوافي بالوفيات (مخطوط) .

عنك ولا عنها ، ورأيتني ناقص الحظ والسرور وتتكاثف لي به اللذة والأنس.
فقال جعفر : وفقك الله يا أمير المؤمنين ، وعزم لك على الرشيد في أمورك كلها.

قال له الرشيد قد زوجتكما تزويجاً تمكن به مجالستها والنظر إليها والاجتماع بها في مجلس أنا معكما فيه . فزوجه الرشيد بعد امتناع من جعفر إليه في ذلك ، وأتى فأشهد له من حضره من خدمه وخاصة مواليه ، وأخذ الرشيد عليه عهد الله ومواثيقه وغليظ أيمانه انه لا يخلو بها ولا يجلس معها ولا يظله وإياها سقف بيت إلاّ وأمير المؤمنين الرشيد ثالثهما فحلف له جعفر على ذلك ورضي به وألزمه نفسه ، فكانوا يجتمعون على هذه الحالة وجعفر بذلك صارف بصره عنها مزور بوجهه هيبة لأمير المؤمنين ووفاء بعهده وأيمانه ومواثيقه على ما وافقه الرشيد عليه .

أما العباسة فقد علقت جعفر ، فأخذت تحتال عليه فكتبت إليه رقعة فزال رسومها وتهددها وعادت ، فعاد بمثل ذلك ، فلما استحكم اليأس عليها قصدت لأمه ، ولم تكن بالحازمة فاستمالتها بالهدايا من نفيس الجواهر والألطاف وما أشبه ذلك من كثرة المال وألطاف الملوك حتى إذا ظنت أنها لها في الطاعة كالآمة ، وفي النصيحة والإشفاق كالوالدة ألقت إليها طرفاً من الأمر الذي تريده وأعلمتها ما لها في ذلك من جزيل العاقبة وما لها من الفخر والشرف بمصاهرة أمير المؤمنين وأوهمتها أن هذا الأمر إذا وقع كان به أمان لها ولولدها من زوال النعمة وسقوط مرتبته .

فاستجابت لها أم جعفر ووعدتها إعمال الحيلة في ذلك ، وأنها تلطف لها حتى تجمع بينهما ، فأقبلت على جعفر يوماً ، فقالت له : يا بني قد وصفت لي وصيفة في بعض القصور من تربية الملوك، وقد بلغت في الأدب والمعرفة والظرف والحلاوة مع الجمال الرائع والقد البارع والخصال المحمودة ما لم ير مثله ، وقد عزمت على اشترائها لك ، وقد قرب الأمر بيني وبين مالكها .

فاستقبل جعفر كلامها بالقبول وعلقت قلبه وتطلعت إليها نفسه وجعلت تمطله حتّى اشتد شوقه وقويت شهوته وهو في أشد ذلك يلح عليها ، فلما علمت انه قد عجز عن الصبر واشتد به القلق قالت له : أنا مهديتها إليك الليلة وانصرف جعفر من عند الرشيد وقد بقي في نفسه من الشراب فضلة لما عزم عليه فدخل منزله وسأل عن الجارية . فخبر بمكانها ، فأدخلت على فتى سكران لم يكن بصورتها عالماً ولا على خلقها واقفاً ، فقام إليها فواقعها ، فلما قضى إليها حاجته قالت له : كيف رأيت حيل الملـــوك ؟ أنا مولاتك العباسة بنت المهدي . فوثب فزعاً قد زال عنه سكره وفارقه عقله ، فأقبل عليها وقال : لقد بعتني بالثمن الرخيص وحملتني على المركب الوعر ، وانظري ما يؤول إليه حالي . وانصرفت منه على حمل ، ثم ولدت غلاماً ، فوكلت به خادماً من خدمها يقال له : رياش وحاضنة تسمى برة ، فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره وجهت الصبي والخادم والحاضنة إلى مكة وأمرتها بتربيته .

وطالت مدة جعفر ، وغلب هو وأبوه وأخوته على أمر المملكة ، وكانت زبيدة من الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدمها أحد من نظرائها ، وكان يحيى بن خالد لا يزال يتفقد أمر حرم الرشيد ، ويمنعهن من خدمة الخدم ، فشكت زبيدة إلى الرشيد ، فقال ليحيى بن خالد : يا أبت ما بال أم جعفر تشكوك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أمتهم أنا في حرمك وتدبير منزلك عندك ؟ فقال : لا والله ، فقال : لا تقبل قولها . قال الرشيد : فلست أُعاود .

فازداد يحيى لها منعاً ، وعليها في ذلك غلظة ، وكان يأمر بقفل أبواب الحرم بالليل ويمضي بالمفاتيح إلى منزله ، فبلغ ذلك أم جعفر كل مبلغ ، فدخلت ذات يوم على الرشيد ، فقالت : يا أمير المؤمنين ما يحمل على ما تراك تفعل من منعه إياي في غير موضعي .

فقال لها الرشيد : يحيى عندي غير متهم في حرمي ، فقالت : إن كان

كذلك ليحفظ ابنه مما ارتكبه ، فقال : وما ذاك ؟ فخبرته وقصت عليه قصة العباسة مع جعفر . فسقط في يده ، وقال لها : هل لك على ذلك دليل وشاهد ؟ قالت : وأي دليل أدل من الولد ؟ وقد كان ههنا ، فلما خافت ظهور أمره وجهته إلى مكة .

فقال لها : أفيعلم هذا أحد غيرك ؟ قالت ما في قصرك جارية إلاّ وقد علمت به فأمسك على ذلك وطوى عليه كشحاً وأظهر انه يريد الحج ، فخرج هو وجعفر بن يحيى ، وكتبت العباسة إلى الخادم والحاضنة أن يخرجا بالصبي إلى اليمن ، فلما صار الرشيد إلى مكة وكل مَن يثق به بالفحص والبحث عن أمره فوجد الأمر صحيحاً ، فلما قضى حجه ورجع أضمر في البرامكة على إزالة نعمهم ، فأقام ببغداد مدة مديدة ، ثم خرج إلى الأنبار ، فلما كان في اليوم الذي عزم فيه على قتل جعفر ، دعا بالسندي بن شاهك ، فأمره بالمضي إلى مدينة السلام والتنكيل بدور البرامكة ودور كتابهم وقراباتهم ، وأن يجعل ذلك سراً من حيث لا يكلم أحداً حتى يصل إلى بغداد، ثم يفضي بذلك لمن يثق به من أهله وأعوانه . فامتثل السندي ذلك وقعد الرشيد وجعفر عنده في موضع يعرف بالأنبار بالقمر ، فأقاما يومهما بأحسن هيئة وأطيب عيش .

فلما انصرف جعفر من عنده خرج الرشيد حتى ركب مشيعاً له ، ثم رجع فمضى جعفر إلى منزله وفيه فضلة الشراب ، ودعا بأبي بكار الأعمى الطنبوري وابن أبي نجيح كاتبه ومدت ستارة وجلس جواريه خلفها يضربن ويغنين وابن بكار يغنيه .

ما تريد الناس منا ما تنام الناس عنا
إنما همّهم أن يظهروا ما قد دفنّا

وأمر الرشيد من ساعته ياسراً خادمه المعروف بعوخلة ، فقال له : إني

أندبك لأمر لم أرَ محمداً ولا القاسم له أهلاً ولا موضعاً ، ورأيتك به مستقلاً ناهضاً ، فحقق ظني واحذر أن تخالفني ، فقال : يا أمير المؤمنين لو أمرتني أن أدخل السيف في بطني وأخرجه من ظهري بين يديك لفعلت ، فمر بأمرك فإني والله مسرع .

فقال ألست تعرف جعفر بن يحيى البرمكي قال : يا أمير المؤمنين وهل أعرف سواه أو ينكر مثل جعفر ؟ قال : ألم تر تشييعي إياه عند خروجه ؛ قال : بلى . قال : فامضِ الساعة فأتني برأسه على أي حالة تجده عليها .

فارتج على ياسر الكلام وأخذته رعدة ، ووقف لا يحير جواباً ، فقال الرشيد : ألم أتقدم إليك بترك الخلاف علي ؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن الخطب أجل من ذلك ، والأمر الذي ندبني إليه أمير المؤمنين وددت لو أني كنت مت قبل أن يجري على يدي منه شيء ، فقال : دع عنك هذا وامضِ لما قد أمرتك .

. . . فمضى ياسر حتى دخل على جعفر ، وهو على حال لهوه ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد أمرني فيك بكيت وكيت . فقال جعفر : ان أمير المؤمنين يمازحني بأصناف من المزاح فاحسب أن هذا جنس منه فقال : والله ما افتقدت من عقله شيئاً ولا ظننته شرب خمراً في يومه مع ما رأيت من عبارته .

قال له : فإن لي عليك حقوقاً لم نجد لها مكافأة وقتاً من الأوقات إلاّ هذا الوقت . قال : تجدني إلى ذلك سريعاً إلاّ فيما خالف أمير المؤمنين . قال : فارجع إليه فاعلمه أنك قد نفذت ما أمرك به فإن أصبح نادماً كانت حياتي على يديك جارية ، وكانت لك عندي نعمة مجددة ، وإن أصبح على مثل هذا الرأي نفذت ما أُمرت به في غد .

قال ليس إلى ذلك سبيل ، قال فأصير معك إلى مضرب أمير المؤمنين

حتى أقف بحيث أسمع كلامه ومراجعته إياك ، فإذا أبديت عذراً ولم يقنع إلاّ بمصيرك إليه برأسي خرجت ، فأخذت رأسي من قرب ، قال له : أما هذا فنعم ، فمضيا جميعاً إلى مضرب الرشيد ، فدخل إليه ياسر ، فقال : قد أخذت رأسه يا أمير المؤمنين ، وها هو ذا بالحضرة ، فقال له : ائتني به وإلاّ والله قتلتك قبله .

فخرج فقال : أسمعت الكلام ؟ قال : نعم . فشأنك وما أمرت به فأخرج جعفر من كمه منديلاً صغيراً ، فعصب به عينيه ومد رقبته فضربها وأدخل رأسه إلى الرشيد ، فلما رأى الرأس أقبل عليه وجعله يذكره بذنوبه ، ثم قال : يا ياسر ائتني بفلان وفلان ، فلما أتى بهم قال لهم : أضربوا عنق ياسر فإني لا أقدر أنظر إلى قاتل جعفر [1] . وتوفيت العباسة بالرقة سنة ١٨٢ هـ.

١٠ – عريب المأمونية :

مغنية محسنة ذات فصاحة وبلاغة وحسن وجمال ، ولدت سنة ١٨١ هـ ، وكانت لعبد الله بن إسماعيل صاحب مركب الرشيد ، فرباها وأدبها وعلمها الغناء . ثم أن مولاها خرج بها إلى البصرة فأدبها وخرجها وعلمها الخط والنحو والشعر .

ثم صارت عريب إلى محمد الأمين بن هارون الرشيد ، ولما قتل محمد

---

(١) المسعودي : مروج الذهب . وذكر الطبري في سبب قتل الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي وإيقاعه بالبرامكة عدة أسباب بسطها في تاريخه ، منها القصة التي ذكرناها هنا . وانظر عن العباسة المراجع الآتية : الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، البلاذري : فتوح البلدان ، البدء والتاريخ المنسوب للبلخي ، المسعودي : مروج الذهب ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ (مخطوط) ، السيوطي : نزهة الجلساء في أشعار النساء (مخطوط) ، ياقوت : معجم البلدان .

Encyclopédie de l'Islam .

الأمين هربت عريب إلى مولاها المراكبي ، فكانت عنده حتّى اشتراها المأمون بخمسين ألف درهم ، فذهبت بالمأمون كل مذهب ميلاً إليها ، ومحبة حتّى أن المأمون قبل في بعض الأيام رجلها .

وعتب المأمون على عريب ، فهجرها أياماً ، فقالت : لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل ، ومن ذم بدء الغضب حمد عاقبة الرضا ، فخرج المأمون إلى جلسائه ، فحدثّهم بالقصة ، ثم قال : أترى هذا لو كان من كلام النظام ألم يكن كبيراً .

وجرى بين عريب وبين المأمون ، كلام ، فكلمها المأمون بشيء غضبت منه ، فهجرته أياماً . قال أحمد بن داود : فدخلت على المأمون ، فقال لي : يا أحمد أقض بيننا ، فقالت عريب : لا حاجة لي في قضائه ودخوله فيما بيننا وأنشأت تقول :

وتخلط الهجر بالوصال ولا يدخل في الصلح بيننا أحد

ولما مات المأمون بيعت في ميراثه ، ولم يبع عبد ولا أمة غيرها ، فاشتراها المعتصم بمئة ألف درهم وأعتقها .

وكان إبراهيم بن المدبر الشاعر الكاتب ومن ذوي الجاه والمتصرفين في كبار الأعمال ، يهواها وتهواه ، ولهما في ذلك أخبار كثيرة انظرها في أعلام النساء .

وتوفيت عريب سنة ٢٧٧ هـ وقيل : غير ذلك [١] .

---

(١) انظر أخبارها في المراجع الآتية : الأصفهاني : الأغاني ، ابن عساكر : تاريخ دمشق (مخطوط) ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، الوشاء : الموشى ، السيوطي : المستظرف من أخبار الجواري (مخطوط) .

١١ - عزة بنت جميل الحاجبية :

من أجمل النساء وأعقلهن وآدبهن ، حتى أمر عبد الملك بن مروان بإدخالها على حرمه ليتعلمن من أدبها .

وكان يهيم بها كثير من فحول شعراء الإسلام،وكان كثير ينسب بها ،وكان ابتداءعشقه إياها كاذباً، ولم يكن بعاشق ،وابتداء عشق كثير الصادق،لما مر كثير بنسوة من بني ضمرة ومعه جلب غنم ، فأرسلن إليه عزة وهي صغيرة ، فقالت : يقلن لك النسوة : بعنا كبشاً من هذه الغنم ، وانسئنا بثمنه إلى أن ترجع ، فأعطاها كبشاً ، وأعجبته ، فلما رجع جاءته امرأة منهن بدراهمه . قال : لا آخذ دراهي إلا ممن دفعت إليها وخرج وهو يقول :

قضى كل ذي دين فوفي غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

وقيل : غير ذلك في أول علاقة كثير بعزة (انظر أعلام النساء) .

فقلن له : أبيت إلا عزة وأبرزنها إليه وهي كارهة ، ثم أحبته عزة بعد ذلك أشد من حبه إياها .

وتبدلت عزة في غير زيها وتعرضت لكثير ، فراودها غير عالم بها ، فقالت : اذهب إلى محبوبتك عزة . فقال : ومن عزة حتى تقاس بك فسفرت عن وجهها وشتمته ، فأطرق حياء ولم يذكرها إلى سنة ، ثم أنشد بعدها تائية مطلعها :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من اعراضنا ما استحلت

ودخلت عزة ذات يوم على كثير متنكرة ، فقالت : أنشدني أشد بيت قلته في حب عزة . قال : قلت لها :

وجدتُ بها وجهَ المضلّ قَلوصَه بمكة والركبان غادٍ ورائح

قالت : لم تصنع شيئاً قد يجد هذا ناقة يركبها ، فأطرق ثم قال :

وجدت بها ما لم يجد ذو حرارة يمارس جهات الركي النوازح

فقالت له لم تصنع شيئاً ، يجد هذا من يسقيه ، فأطرق ثم قال :

وجدت بها ما لم تجد أم واحد بواحدها تطوى عليه الصفائح

فضحكت ، ثم قالت : إن كان ولا بد فهذا .

وأخبارها كثيرة ذكرت في أعلام النساء .

وتوفيت عزة سنة ٨٥ هـ ، وقد زار قبرها ورثاها ، وتغير شعره بعدها ، فقال له قائل : ما بال شعرك قد قصرت فيه ؟ فقال : ماتت عزة فلا أطرب ، وذهب الشباب فلا أعجب ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب ، وإنما الشعر عن هذه الخلال (١) .

١٢ ـ عَفْراء بنت عقّال :

من شواعر العرب كان يهواها ابن عمها عروة بن حزام وهو شاعر إسلامي أحد المتيمين الذين قتلهم الهوى لا يعرف له شعر إلاّ في عفراء بنت عمه عقال وتشبيبه بها .

وذلك أن حزاماً أبا عروة هلك وترك عروة صغيراً في حجر عمه عقال ابن مهاجر ، وكانت عفراء ترباً لعروة يلعبان جميعاً ، ويكونان معاً حتّى تألف كل واحد منهما صاحبه إلفاً شديداً .

---

(١) تجد أخبارها في المراجع الآتية : الأصفهاني : الأغاني ، ابن عساكر : تاريخ دمشق (مخطوط) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، طيفور : بلاغات النساء ، ابن حجة الحموي : ثمرات الأوراق ، ابن العماد : شذرات الذهب ، الحصري : زهر الآداب ، المرزباني : الموشح ، السيوطي : حسن المحاضرة .

وكان عقال يقول لعروة لما يرى من إلفها : أبشر ، فإن عفراء آمتك إن شاء الله ، فكانا كذلك حتى لحقت عفراء بالنساء ، ولحق عروة بالرجال ، فأتى عروة عمة له يقال لها هند بنت مهاجر ، وقال لها في بعض ما يقول : يا عمة إني لمكلمك، وإني منك لمستحي ، ولكن لم أفعل هذا حتى ضقت ذرعاً بما أنا فيه .

فذهبت عمته إلى أخيها ، فقالت له : يا أخي قد أتيتك في حاجة أحب أن تحسن فيها الرد ، فإن الله يأجرك لصلة رحمك بي ما أسألك ، فقال لها : قولي فلن تسألي حاجة إلاّ رددتك بها .

قالت : تزوج عروة ابن أخيك بابنتك عفراء ؟ فقال : ما عنه مذهب ولا هو دون رجل يرغب عنه ، ولا بنا عنه رغبة ، ولكنه ليس بذي مال ، وليست عليه عجلة . فطابت نفس عروة ، وسكن بعض السكون . وكانت أم عفراء سيئة الرأي فيه لا تريد لابنتها إلا ذا مال ووفر ،وكانت عرضة ذلك كمالاً وجمالاً . فلما تكاملت سنه ، وبلغ أشده عرف أن رجلاً من قومه ذا يسار ومال كثير يخطبها ، فأتى عمه فقال : يا عم قد عرفت حقي وقرابتي وإني ولدك وربيت في حجرك وقد بلغني أن رجلاً خطب عفراء ، فإن أسعفته بطلبته قتلتني وسفكت دمي فأنشدك الله ورحمي وحقي .

فرق له ، وقال له : يا بني أنت معدم ، وحالنا قريبة من حالك ، ولست مخرجها إلى سواك ، وأُمها قد أبت أن تزوجها إلاّ بمهر غال ، فاغترب واسترزق الله تعالى .

فجاء إلى أُمها فألطفها وداراها ، فأبت أن تجيبه إلاّ بما تحتكمه من المهر، وبعد أن يسوق شطره إليها ، فوعدها بذلك ، وعلم انه لا ينفعه قرابة ولا غيرها إلاّ المال الذي يطلبونه ، فعمل على قصد ابن عم له موسر ، كان مقيماً

بالري ، فجاء إلى عمه وامرأته فأخبرهما بعزمه ، فصوباه ووعداه أن لا يحدث حدثاً حتّى يعود .

وصار في ليلة رحيله إلى عفراء ، فجلس عندها ليلة هو وجواري الحي ، يتحدثون ، حتّى أصبحوا ، ثم ودعها وودع الحي وشد على راحلته وصحبه في طريقه فتيان من بني هليل بن عامر ، كانا يألفانه ، وكان حياهم متجاورين ، وكان في طول سفره ساهياً يكلمانه فلا يفهم ، وفكره في عفراء حتّى يردا القول عليه مراراً حتّى قدم على ابن عمه ، فلقيه وعرفه حاله وما قدم له فوصله وكساه وأعطاه مائة من الإبل ، فانصرف بها إلى أهله .

وقد كان رجل من الشام من أنساب بني أُمية نزل في حي عفراء ، فنحر ووهب وأطعم ، وكان ذا مال، فرأى عفراء ، وكان منزله قريباً من منزلهم فأعجبته وخطبها إلى أبيها ، فاعتذر إليه وقال : قد سميتها إلى ابن أخ لي يعدلها عندي وما إليها لغيره سبيل ، فقال له : إني أرغبك في المهر . قال : لا حاجة لي بذلك ، فعدل إلى أمها فوافق عندها قبولاً لبذله ورغبت في ماله ، فأجابته ووعدته .

وجاءت إلى عقال فأذنته واستصحبته وقالت : أي خير في عروة حتّى تحبس ابنتي عليه وقد جاءها الغني يطرق عليها بابها ، والله ما تدري أعروة حي أم ميت ، وهل ينقلب إليك بخير أم لا ، فتكون قد حرمت ابنتك خيراً حاضراً ورزقاً سنياً ، فلم تزل به حتّى قال لها : فإن عاد لي خاطباً أجبته ، فوجهت إليه أن عد إليه خاطباً ، فلما كان من غد نحر جزوراً عدة وأطعم ووهب وجمع الحي معه على طعامه ، وفيهم أبو عفراء ، فلما طعموا أعاد القول في الخطبة ، فأجابه وزوجه وساق إليه المهر ، وحولت إليه عفراء ، وقالت قبل أن يدخل بها :

يا عروَ إن الحي قد نقضوا عهد الإله وحاولوا العذرا

في أبيات طويلة ، فلما كان الليل دخل بها زوجها ، وأقام فيهم ثلاثاً ، ثم ارتحل بها إلى الشام . وعمد أبوها إلى قبر عتيق فجدده وسواه وسأل الحي كتمان أمرها .

وقدم عروة بعد أيام فنعاها أبوها إليه ، وذهب به إلى ذلك القبر ، فمكث يختلف إليه أياماً ، وهو مضنى هالك ، حتّى جاءته جارية من الحي فأخبرته الخبر ، فتركهم وركب بعض إبله ، وأخذ معه زاداً ونفقة ورحل إلى الشام ، فقدمها وسأل عن الرجل فأخبر به ودل عليه ، فقصده وانتسب له إليه في عدنان فأكرمه وأحسن ضيافته ، فمكث أياماً حتّى أنسوا به ، ثم قال لجارية لهم : هل لك في يد تولينها . قالت : نعم . قال تدفعين خاتمي هذا إلى مولاتك . فقالت : سوءة لك أما تستحي لهذا القول . فأمسك عنها ثم أعاد عليها ، وقال لها : ويحك هي والله بنت عمي وما أحد منا إلاّ وهو أعز على صاحبه من الناس فاطرحي هذا الخاتم في صحنها ، فإن أنكرت عليك فقولي لها اصطبح ضيفك قبلك ولعله سقط منه . فرقت الأمة وفعلت ما أمرها به ، فلما شربت عفراء اللبن رأت الخاتم ، فعرفته ، فشهقت ثم قالت : أصدقيني عن الخبر ، فصدقتها ، فلما جاء زوجها قالت له أتدري من ضيفك هذا ؟ قال : نعم فلان بن فلان ، للنسب الذي انتسب له عروة ، فقالت : كلا والله بل هو عروة بن حزام ابن عمي ، وقد كتمك نفسه حياء منك .

ثم بعث فدعاه وعاتبه على كتمان نفسه إياه ، وقال له : بالرحب والسعة نشدتك الله إن رمت هذا المكان أبداً ، وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان ، وأوصى خادماً له بالاستماع عليهما وإعادة ما تسمعه منهما عليه .

فلما خلوا تشاكيا وما وجدا بعد الفراق ، فطالت الشكوى وهو يبكي أحر بكاء ، ثم أتته بشراب وسألته أن يشربه ، فقال : والله ما دخل جوفي حرام قط ، ولا ارتكبته منذ كنت ، ولو كنت استحللت حراماً لكنت قد

استحللته منك، فأنت حظي من الدنيا، وقد ذهبت مني وذهبت بعدك، فما أعيش وقد أجمل هذا الرجل الكريم وأحسن وأنا مستحيي منه والله لا أقيم بعد علمه بمكاني واني عالم أني راحل إلى منيتي ، فبكت وبكى وانصرف .

فلما جاء زوجها أخبرته الخادم بما دار بينهما ، فقال : يا عفراء امنعي ابن عمك من الخروج ، فقالت : لا يمتنع هو والله أكرم وأشد حياء من أن يقيم بعد ما جرى بينكما ، فدعاه وقال له : يا أخي اتق الله في نفسك ، فقد عرفت خبرك ، وانك إن رحلت تلفت والله لا أمنعك من الاجتماع معها أبداً ، ولئن شئت لأفارقنها ولانزلن عنها لك فجزاه خيراً وأثنى عليه وقال : إنما كان الطمع فيها آفتي ، والآن قد يئست وحملت نفسي على الصبر ، فإن اليأس يسلي ولي أمور ولا بد لي من رجوعي إليها ، فإن وجدت بي قوة على ذلك ، وإلاّ عدت إليكم وزرتكم حتى يقضي الله من أمري ما يشاء فزوده وأكرمه وشيعوه ، فانصرف فلما رحل عنهم نكس بعد صلاحه مماسكه وأصابه غشي وخفقان ، فكان كلما أغمي عليه ألقى على وجهه خماراً لعفراء زودته إياه فيفيق .

وكان عروة يأتي حياض الماء التي كانت إبل عفراء تردها ، فيلصق صدره بها ، فيقال له : مهلا فإنك قاتل نفسك فاتق الله فلا يقبل حتى أشرف على التلف وأحس بالموت فجعل يقول :

بي اليأس والداء الهيام سقيته فإياك عني لا يكن بك ما بيا

ثم لم يزل عروة في طريقه حتى مات ، وفي موته روايات انظرها في أعلام النساء .

ثم قالت عفراء لزوجها يا هناه قد كان من خبر ابن عمي ما كان بلغك والله ما عرفت منه قط إلاّ الحسن الجميل ، وقد مات فيّ وبسببي ، ولا بد لي

من أن أندبه فأقيم مأتماً عليه . قال : افعلي ، فما زالت تندبه ثلاثاً حتى توفيت في اليوم الرابع .

وفي مروج الذهب للمسعودي : أن عفراء سألتهم : أين دفنوه ، فأخبروها فصارت إلى قبره ، فلما قاربته قالت : أنزلوني فإني أريد قضاء حاجة ، فأنزلوها ، فانسلت إلى قبره فأكبت عليه فما راعهم إلاّ صوتها ، فلما سمعوه بادروا إليها فإذا هي ممتدة على القبر قد خرجت نفسها .

وبلغ معاوية بن أبي سفيان خبرهما ، فقال : لو علمت بحال هذين الحرين الكريمين لجمعت بينهما [1] .

١٣ ــ عُنَيْزَة :

كان امرؤ القيس عاشقاً لابنة عمه عنيزة ، فطلبها زماناً ، فلم يصل إليها وكان في طلب غرة من أهلها ليزورها فلم يقض له حتى كان يوم الغدير ، وذلك أن الحي احتملوا فتقدم الرجال وتخلف النساء ، والخدم والثقل ، فلما رأى ذلك أمرؤ القيس تخلف بعدما سار مع قومه غلوة ، فكمن في غابة في الأرض حتى مر به النساء فإذا فتيات وفيهن عنيزة ، فلما وردن الغدير قلن : لو نزلنا فذهب عنا بعض الكلال ، فنزلن إليه ونحين العبيد عنهن ثم تجردن فاغتمسن في الغدير ، فأتاهن أمرؤ القيس محتالاً وهن غوافل ، فأخذ ثيابهن ، فجمعها وقال لهن : لا أعطي جارية منكن ثوبها ، ولو أقامت في الغدير يومها حتى تخرج مجردة ، فأبين ذلك عليه حتى تعالى النهار ، ثم خشين أن يقصرن دون المنزل الذي أردنه فخرجت إحداهن فوضع لها ثوبها ناحية فأخذته

---

(١) انظر أخبارها في المصادر الآتية : الأصفهاني : الأغاني ، طيفور : بلاغات النساء ، المسعودي : مروج الذهب ، ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ابن عساكر : تاريخ دمشق (مخطوط) ، الأنطاكي : تزيين الأسواق ، ابن قيم الجوزية : أخبار النساء .

فلبسته ، ثم تتابعن على ذلك حتى بقيت عُنَيْزة فناشدته الله أن يطرح إليها ثوبها . فقال : دعينا منك فأنا حرام ان أخذت ثوبك إلاّ بيدك ، فخرجت فنظر إليها مقبلة ومدبرة ، فوضع لها ثوبها فأخذته وأقبلن عليه يلمنه ويعذلنه عريتنا وحبستنا وجوعتنا .

قال : فإن نحرت مطيّي أتأكلن منها ؟ قلن : نعم . فاخترط سيفه ، فعقرها ونحرها وكشطها وصاح بالخدم فجمعوا له حطباً ، فأصبح ناراً عظيمة ثم جعل يقطع لهن من سنامها وأطايبها وكبدها فيلقيها على الحجر ، فيأكلن ويأكل معهن ويشرب من ركوة كانت معه ويغنيهن وينبذ إلى العبيد والخدم من الكباب حتى شبعن وطربن .

فلما أراد الرحيل قالت إحداهن : أنا أحمل طنفسته ، وقالت الأخرى : أنا أحمل رحله ، وقالت الأخرى : أنا أحمل حشيشته وانساعه فتقسمن متاع راحلته بينهن ، وبقيت عُنَيزة لم يحملها شيئاً ، فقال لها امرؤ القيس: يا ابنة الكرام لا بد لك أن تحمليني معك، فأنا لا أطيق المشي ، وليس من عادتي ، فحملته على غارب بعيرها ، فكان يدخل رأسه في خدرها ، فيقبلها ، فإذا امتنعت مال صاحبها فتقول : يا امرؤ القيس عقرت بعيري فانزل ، فقال :

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يا امرؤالقيس فانزل[1]

١٤ ــ لُبْنَى بنت الحُبَاب الكَعْبية :

من ربات الحسن والجمال ، كانت مديدة القامة شهلاء حلوة المنظر والكلام ، فاستسقى قيس بن ذريح ماء من خيمة لبنى فسقته وخرجت إليه به فلما رآها وقعت في نفسه وشرب الماء ، فقالت له : أتنزل فتتبرد عندنا ؟ قال : نعم . فنزل بهم وجاء أبوها فنحر له وأكرمه ، فانصرف قيس وفي

(١) الأصفهاني : الأغاني .

قلبه من لُبنى حر لا يطفأ ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتّى شاع وروي .

ثم أتاها يوماً آخر ، وقد اشتد وجده بها فسلم ، فظهرت له وردت سلامه وتحفت به فشكا إليها ما يجد بها وما يلقى من حبها ، وشكت إليه مثل ذلك ، فأطالت وعرف كل واحد منهما ما له عند صاحبه ، فانصرف إلى أبيه ، وأعلمه حاله ، وسأله أن يزوجه إياها ! فأبى عليه ، وقال : يا بني عليك بإحدى بنات عمك فهن أحق بك ، وكان ذريح كثير المال موسراً ، فأحب أن لا يخرج ابنه إلى غريبة .

فانصرف قيس وقد ساءه ما خاطبه أبوه به فأتى أمه ، فشكا ذلك إليها ، واستعان بها على أبيه، فلم يجد عندها ما يحب، فيأتي الحسين بن علي بن أبي طالب وابن أبي عتيق ، فشكا إليهما ما به وما رد عليه أبوه ، فقال له الحسين : أنا أكفيك فمشى معه إلى أبي لبنى ، فلما بصر به أعظمه ووثب إليه وقال : يا ابن رسول الله ما جاء بك ؟ ألا بعثت إليّ فآتيك ؟ قال : إن الذي جئت فيه يوجب قصدك وقد جئتك ، ابنتك لبنى لقيس بن ذريح ، فقال : يا ابن رسول الله ما كنا لنعصى لك أمراً وما بنا عن الفتى رغبة،ولكن أحب الأمر إلينا أن يخطبها ذريح أبوه علينا ، وان يكون عاراً أو سبة علينا ، فأتى الحسين ذريحاً وقومه وهم مجتمعون ، فقاموا إليه إعظاماً له ، وقالوا : له مثل قول الخزاعيين ، فقال لذريح :أقسمت عليك ألاّ خطبت لُبنى لقيس، قال : السمع والطاعة لأمرك ، فخرج معه في وجوه من قومه ، حتى أتوا لُبنى فخطبها ذريح على ابنه إلى أبيها فزوجه إياها وزفت إليه بعد ذلك .

فأقامت مدة لا ينكر أحد من صاحبه شيئاً وكان أبر الناس بأمه فألهته لُبنى وعكوفه عليها عن بعض ذلك ، فوجدت أمه في نفسها ، وقالت : لقد شغلت هذه المرأة ابني عن بري ، ولم ترَ للكلام في ذلك موضعاً ، حتى مرض مرضاً شديداً ، فلما برأ من علته قالت أمه لأبيه : لقد خشيت أن يموت قيس

وما يترك خلفاً ، وقد حرم الولد من هذه المرأة ، وأنت ذو مال ، فيصير مالك إلى الطلابة ، فزوجه بغيرها لعل الله يرزقه ولداً وألحت عليه في ذلك .

فأمهل ذريح قيساً حتى إذا اجتمع قومه دعاه فقال : يا قيس إنك اعتللت هذه العلة فخفت عليك ولا ولد لك ولا لي سواك ، وهذه المرأة ليست بولود فتزوج إحدى بنات عمك ، لعل الله أن يهب لك ولداً تقر به عينك وأعيننا ، فقال قيس : لست متزوجاً غيرها أبداً ، فقال أبوه : فإن في مالي سعة فتسرَّ بالإماء . قال : ولا أسؤها بشيء أبداً والله . قال أبوه : فإني أُقسم عليك ألاّ طلقتها ، فأبى وقال: الموت والله علي أسهل من ذلك ولكني أخيرك خصلة من ثلاث خصال .

قال تتزوج أنت فلعل الله يرزقك ولداً غيري . قال : فما فيّ فضلة لذلك . قال: فدعني أرتحل عنك بأهلي وأصنع ما كنت صانعاً لو مت في علتي هذه. قال ولا هذه . قال : فادع لُبنى عندك وارتحل عنك فلعلي أسلوها فإني ما أحب بعد أن تكون نفسي طيبة أنها في خيالي .

قال : لا أرضى أو تطلقها وحلف لا يكنه سقف بيت أبداً حتى يطلق لُبنى ، فكان يخرج فيقف في حر الشمس ويجيء قيس فيقف إلى جانبه فيظله بردائه ويصلي وهو في حر الشمس حتى يفيء الفيء فينصرف عنه ويدخل إلى لُبنى فيعانقها وتعانقه ويبكي وتبكي معه وتقول له : يا قيس لا تطع أباك فتهلك وتهلكني . فيقول : ما كنت لأطيع أحداً قبل أبداً ، فيقال : انه مكث كذلك سنة .

ومكث قيس عشر سنين وأبواه قد هجراه فاستأذن عليهما يوماً ، فأرغماه بأن يطلقها فطلقها ولقي عبد الله بن صفوان الطويل ذريحاً أبا قيس ، فقال له : ما حملك على أن فرقت بينهما ؟ أما علمت أن عمر بن الخطاب قال : ما أبالي أفرقت بينهما أو مشيت إليهما بالسيف .

فلما بانت لُبنى بطلاق قيس إياها وفرغ من الكلام لم يلبث حتّى استطير عقله ، وذهب به ولحقه مثل المجنون ، وتذكر لُبنى وحالها معه وأسف وجعل يبكي وينشج أحر نشيج ، وبلغها الخبر فأرسلت إلى أبيها ليحتملها ، وقيل : بل أقامت حتّى انقضت عدتّها وقيس يدخل عليها ، فأقبل أبوها بهودج في ناقة وبإبل تحمل أثاثها ، فلما رأى ذلك قيس أقبل على جاريتها ، فقال : ويحك ما دهاني فيكم ؟ فقالت : لا تسألني وسل لُبنى ، فذهب ليعلم بخبائها فيسألها ، فمنعه قومها ، فأقبلت عليه امرأة من قومه ، فقالت له : مالك ويحك لا تسأل كأنك جاهل أو تتجاهل هذه لُبنى ترتحل الليلة أو غداً ، فسقط مغشياً عليه لا يعقل ، ثم أفاق وقال شعراً ذكر في ترجمة لُبنى في أعلام النساء .

ولما ارتحل قومها بها اتبعها ملياً ، ثم علم أن أباها سيمنعه من المسير معها ، فوقف ينظر إليهم ويبكي حتّى غابوا عن عينه فكر راجعاً ونظر إلى أثر خف بعيرها ، فأكب عليه يقبله ورجع يقبل موضع مجلسها وأثر قدمها ، فليم على ذلك وعنفه قومه على تقبيل التراب فقال :

وما أحببت أرضكم ولكن — أُقبل أثر من وطىء الترابا
لقد لاقيت من كلفي بلُبنى — بلاء ما أُسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادي باسم لُبنى — عييت فما أُطيق له جوابا

وجعل قيس يعاتب نفسه في طاعته أباه في طلاقه لُبنى ويقول : فإلاّ رحلت بها عن بلده فلم أر ما يفعل ولم يرني ، فكان إذا فقدني أقلع عما يفعله وإذا فقدته لم أتحرج من فعله وما كان علي لو اعتزلته وأقمت في حيها أو في بعض بوادي العرب ، أو عصيته فلم أطعه ، هذه جنايتي على نفسي ، فلا لوم على أحد ، وها أنذا ميت مما فعلته ، فمن يرد روحي إليّ وهل سبيل إلى لُبنى بعد الطلاق ، وكلما قرّع نفسه وأنّبها بلون من التقريع والتأنيب

وبكى أحر بكاء وألصق خده بالأرض ووضعه على آثارها ثم قال شعراً ذكر في أعلام النساء .

وشهر أمر قيس بالمدينة وغنى في شعره الغريض ومعبد ومالك وذووهم، فلم يبق شريف ولا وضيع إلاّ سمع بذلك فأضربه وحزن لقيس مما به .

وجاءها زوجها فأنبها على ذلك وعاتبها وقال : قد فضحتني بذكرك ، فغضبت وقالت : يا هذا إني والله ما تزوجتك رغبة فيك ولا فيما عندك ولا دلس أمري عليك ، ولقد علمت أني كنت زوجته قبلك وأنه أُكره على الطلاق ووالله ما قبلت التزويـج حتى أهـدر دمه ، فخشيت أن يحمله ما يجد على المخاطرة فيقتل فتزوجتك وأمرك الآن إليك ، ففارقني فلا حاجة بي إليك ، فأمسك عن جوابها وجعل يأتيها بجواري المدينة يغنينها بشعر قيس كيما يستصلحها بذلك ، فلا تزداد إلاّ تمادياً وبعداً ، ولا تزال تبكي كلما سمعت شيئاً من ذلك أحر بكاء وأشجاه .

ثم ارتحل قيس إلى معاوية ، فدخل إلى يزيد فشكاه ما به إليه وامتدحه ، فرق له ، وقال : سل ما شئت إن شئت أن أكتب إلى زوجها فاحتم عليه أن يطلقها فعلت . قال : لا أريد ذلك ولكن أحب أن أقيم بحيث تقيم من البلاد، أتعرّف أخبارها واقنع بذلك من غير أن يهدر دمي . قال : لو سألت هذا من غير أن ترحل إلينا فيه لما وجب أن تمنعه فأقم حيث شئت وأخذ كتاب أبيه له بأن يقيم حيث شاء وأحب ، ولا يعترض عليه أحد وأزال ما كان كتب به في إهدار دمه .

وقد اختلف في آخر أمر قيس ولُبنى فذكر أكثر الرواة أنهما ماتا على افتراقهما ، فمنهم من قال : انه مات قبلها وبلغها ذلك فماتت آسفاً عليه ، ومنهم من قال : لا . ماتت قبله ومات بعدها أسفاً عليها وقد توفيا في حدود السبعين من الهجرة [١] .

---

(١) الأصفهاني : الأغاني ، ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات .

١٥ – ليلى بنت سعد :

من فواضل نساء عصرها ، كان يهيم بها قيس بن ملوح بن مُزاحم ، وكان من أجمل فتيان قومه وأظفرهم وأرواهم لأشعار العرب وأحسنهم إفاضة في الحديث ، وعرف بمجنون ليلى .

وكان سبب عشقه إياها أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة ، وعليه حلتان من حلل الملوك ، فمر بامرأة من قومه يقال لها كريمة وعندها جماعة نسوة يتحدثن فيهن ليلى فأعجبهن جماله وكماله فدعونه إلى النزول والحديث ، فنزل وجعل يحدثهن وأمر عبداً له كان معه فعقر لهن ناقته ، وظل يحدثهن بقية يومه فبينا هو كذلك إذ طلع عليهم فتى عليه بردة من برود الأعراب ، يقال له مُنازل يسوق مِعْزىً له : فلما رأينه أقبلن عليه وتركن المجنون ، فغضب وخرج من عندهن وقال شعراً ذكر في أعلام النساء .

فلما أصبح لبس حلته وركب ناقة له أُخرى ومضى متعرضاً لهن فألفى ليلى قاعدة بفناء بيتها ، وقد علق حبه بقلبها وهويته ، وعندها جوارٍ يتحدثن معها ، فوقف بهن وسلم ، فدعونه إلى النزول وقلن له : هل لك في محادثة مَن لا يشغله عنك منازل ولا غيره ؟ فقال : أي لعمري فنزل وفعل مثل ما فعله بالأمس ، فأرادت أن تعلم هل لها عنده مثل ما له عندها ، فجعلت تعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة ، وتحدث غيره ، وقد كان علق بقلبه مثل حبها إياه وشغفته واستملحها ، فبينا هي تحدثه إذ أقبل فتى من الحي فدعته وسارته سراراً طويلاً ، ثم قالت له : انصرف ونظرت إلى وجه قيس قد تغير وانتقع لونه وشق عليه فعلها فأنشأت تقول :

كلانا مظهر للناس بغضاً وكل عند صاحبه مكين
تبلغنا العيون بما أردنا وفي القلبين ثم هوىً دفين

فلما سمع البيتين شهق شهقة شديدة وأُغمي عليه ، فمكث على ذلك ساعة ونضحوا الماء على وجهه وتمكن حب كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ .

ووعدت ليلى قيساً إذا وجدت فرصة لذلك ، فمكث مدة يراسلها في الوفاء وهي تعده وتسوفه ، فأتى أهلها ذات يوم والحي خلوف ، فجلس إلى نسوة من أهلها حَجْزَةً منها بحديث تسمع كلامه فحادثهن طويلاً ، ثم قال ألا أنشدكن أبياتاً أحدثتها في هذه الأيام ، قلن : بلى فأنشدهن شعراً ذكر في أعلام النساء .

فقلن : ما أنصفك هذا الغريم الذي ذكرته ، وجعلن يتضاحكن وهو يبكي ، فاستحيت ليلى منهن ورقت له حتى بكت ، وقامت فدخلت بيتها وانصرف قيس .

ولما شهر أمر قيس وليلى ، تناشد الناس شعره فيها ، اجتمع أبو قيس وأُمه ورجال عشيرته ، إلى أبي ليلى فوعظوه وناشدوه الله والرحم ، وقالوا له : إن هذا الرجل لهالك ، وقبل ذلك ففي أقبح من الهلاك بذهاب عقله ، وإنك فاجع به أباه وأهله فننشدك الله والرحم أن تفعل ذلك فوالله ما هي أشرف منه ولا لك مثل مال أبيه ، وقد حكمك في المهر وإن شئت أن يخلع نفسه إليك وماله فعل .

فأبى أبوها وحلف بالله وبطلاق أمها انه لا يزوجه إياها أبداً ، وقال : أفضح نفسي وعشيرتي وآتي ما لم يأته أحد من العرب وأَسم ابنتي بميسم فضيحة فانصرفوا عنه وخالفهم لوقته فزوجها رجلاً من قومها فتزوجته ليلى على كره منها .

وبلغ الخبر قيساً ، فيئس وأشرف على الهلاك ، فقال الحي لأبيه : أحجج به إلى مكة وادع الله عز وجل ومره أن يتعلق بأستار الكعبة ، فيسأل الله أن

يعافيه مما به ويبغضها إليه فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء ، فحج أبوه فلما صاروا بمنى سمع صائحاً في الليل يصيح : يا ليلى فصرخ صرخة ظنوا أن نفسه قد تلفت وسقط مغشياً عليه ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ، ثم أفاق حائل اللون ذاهلاً وأنشأ شعراً ذكر في أعلام النساء .

ثم قال له أبوه : تعلق بأستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى فتعلق بأستار الكعبة وقال : اللهم زدني ليلى حباً وبها كلفاً ، ولا تنسني ذكرها أبداً .

وظل قيس يغشى بيوت أهل ليلى بالرغم من منع أبي ليلى وعشيرتها له ، فشكوه إلى السلطان ، فأهدر دمه لهم ، فأخبروه بذلك فلم يرعه وقال : الموت أروح لي فليتهم قتلوني ، فلما علموا بذلك عرفوا انه لا يزال يطلب غرّة منهم ، حتى إذا تفرقوا دخل دورهم فارتحلوا عنها وأبعدوا . وجاء عشية فأشرف على دورهم فإذا هي منهم بلاقع ، فقصد منزل ليلى الذي كان بيتها فيه ألطف صدره ، وجعل يمرغ خديه على ترابه ويبكي ، ثم أنشأ يقول شعراً ذكر في أعلام النساء .

ثم انصرف أهل قيس يعزونه عن ليلى ويقولون له نزوجك أنفس جارية في عشيرتك ، فيأبى إلاّ ليلى ويهذي بها ويذكرها ، ثم هاج عليه الحزن والهم ، فهام بها هياماً عظيماً فاختلط عقله وهام على وجهه في القفار ، مع البهائم وتوحش ، فكان لا يلبس ثوباً إلا خرقة ، ولا يمشي إلاّ عارياً ، ويلعب بالتراب ويجمع العظام حوله فإذا ذكرت ليلى أنشأ يحدث عنها عاقلاً ولا يخطىء حرفاً وترك الصلاة فإذا قيل له : ما لك لا تصلي لا يرد حرفاً ، وكانوا يحبسونه ويقيدونه فكان يعض لسانه وشفته حتى خشي عليه فخلي سبيله .

وجلست نسوة إلى قيس فقلن له : ما الذي دعاك إلى أن أحللت بنفسك

ما ترى في هوى ليلى ، وإنما هي امرأة من النساء ، هل لك في أن تصرف هواك عنها إلى إحدانا فنساعفك ونجزيك بهواك ويرجع إليك ما عزب من عقلك وجسمك ؟ فقال لهن : لو قدرت على صرف الهوى عنها إليكن لصرفته عنها ، وعن كل أحد بعدها وعشت في الناس سوياً مستريحاً ، فقلن له : ما أعجبك منها ؟ فقال كل شيء رأيته وشاهدته وسمعته منها أعجبني ، والله ما رأيت منها قط إلاّ كان في عيني حسناً وبقلبي علقاً ، ولقد جهدت أن يقبح منها ما عندي شيء أو يسمج أو يعاب لأسلو عنها فلم أجده ، فقلن له : فصفها لنا فأنشأ يقول :

بيضاء خالصة البياض كأنها قمر توسط جنح ليل مُبرد
موسومة بالحسن ذات حواسد إن الجمال مظنـة للحسد
وتُرى مدامعها ترقرق مقلة سوداء ترغب عن سواد الإثمد
خَوْد إذا كثر الكلام تعوذت بحمى الحياء وإن تكلم تقصد

ولما اختلط عقل قيس وترك الطعام والشراب مضت أُمه إلى ليلى ، فقالت : إن قيساً قد ذهب حبك بعقله وترك الطعام والشراب ، فلو جئته وقتاً لرجوتُ أن يثوب إليه بعض عقله ، فقالت ليلى : أما نهاراً فلا لأنني لا آمن قومي على نفسي ، ولكن ليلاً ، فأتته ليلاً ، فقالت له : يا قيس إن أُمك تزعم أنك جننت من أجلي وتركت المطعم والمشرب فاتق الله وابق على نفسك ، فبكى وأنشأ يقول :

قالت جُننت على قيس فقلت لها الحب أعظم مما بـالمجانين
الحب ليس يفيقُ الدهرَ صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

فبكت معه وتحدثا حتى كاد الصبح يسفر ثم ودعته وانصرفت ، فكان آخر عهده بها .

ولم يزل قيس على ندبه وهيامه حتى وافته المنية في واد كثير الحجارة فاحتمله أهله فغسلوه وكفنوه ودفنوه . ولم تبق فتاة من بني جعدة ولا بني الحريش إلا خرجت حاسرة صارخة عليه تندبه .

واجتمع فتيان الحي يبكون عليه أحر بكاء وينشجون عليه أشد نشيج ، وحضرهم ليلى وأبوها معزين فكانا أشد القوم جزعاً وبكاء عليه ، وجعل يقول أبو ليلى : ما علمنا أن الأمر يبلغ كل هذا ، ولكني امرأً عربياً أخاف من العار وقبيح الأحدوثة ما يخافه مثلي ، فزوجتها وخرجت عن يدي ، ولو علمت أن أمره يجري على هذا ما أخرجتها عن يده ، ولا احتملت ما كان علي في ذلك ، واسترجع ، وعلم أنه قد شارك في هلاكه. وبينا هم يقلبون قيساً وجدوا خرقة فيها مكتوب

ألا أيها الشيخ الذي ما بنا يرضى   شقيت ولا هنيت من عيشك الغضا
شقيت كما أشقيتني وتركتني   أهيم من الهُلاك لا أُطعم الغمضا

وقالت ليلى في قيس :

لم يكن المجنون في حالة   إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسر الهوى   وإنني قد ذبت كتمانا

وقيل لليلى : هذا قيس مات كآبة من عشقك . قالت : ولقد خفت والله ان أموت بذلك فيه . وقيل لها : فما عندك حيلة تخفف ما به ؟ قالت : صبري وصبره أو يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين [1] .

---

(١) الأصفهاني : الأغاني : القالي : الأمالي ، الإبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ، ابن قيم الجوزية : أخبار النساء ، ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، داود الأنطاكي : تزيين الأسواق .

١٦ – ليلى بنت عبد الله الأخيَلية :

من شواعر العرب المتقدمات في الإسلام . كان توبة بن الحمير يهواها ، فكان يقول فيها الشعر ، فخطبها إلى أبيها ، فأبى أن يزوجه إياها وزوجها في بني الأدلع ، فجاء يوماً كما كان يجيء لزيارتها فإذا هي سافرة ولم ير منها إليه بشاشة ، فعلم أن ذلك لأمر ما كان ، فرجع إلى راحلته فركبها ومضى ، وبلغ بني الأدلع انه أتاها ، فتبعوه ، فقال توبة في ذلك :

نأتك بليلى دارها لا تزورها وشطت نواها واستمر مريرها

وهي قصيدة طويلة يقول فيها :

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

ثم كان توبة يكثر زيارة ليلى ، فعاتبه أخوها وقومها فلم يعتب وشكوه إلى قومه فلم يقنع فتظلموا منه إلى السلطان ، فأهدر دمه إن أتاهم .

وعلمت ليلى بذلك وجاءها زوجها ، وكان غيوراً ، فحلف لئن لم تعلمه بمجيء توبة ليقتلنها ولئن أنذرته بذلك ليقتلنها ، فلما علمت بمجيء توبة خرجت سافرة حتى جلست في طريقه ، فلما رآها سافرة فطن لما أرادت ، وعلم أنه قد رصدوه وانها سفرت لذلك تحذره ، فركض فرسه فنجا .

ثم إن توبة قتلته بنو عوف في حدود الثمانين من الهجرة فقالت ليلى ترثيه :

نظرت ودوني من غمامة منكب وبطن الردى من أي نظرة ناظر
وتوبة أحيى من فتاة حييــــة وأجرأ من ليث بخفان خادر
ونعم فتى الدنيا وإن كان فاجراً ونعم الفتى إن كان ليس بفاجر

وقالت ترثيه :

أعيني ألا فابكي على ابن حُمير　　　بدمع كفيض الجدول المتفجر
لتبك عليه من خفَاجـة نسوة　　　بمـاء شؤون العبرة المتحدر
سمعن بهيجاً أزحفتْ فذكرنه　　　وقد يبعث الأحزان طول التذكر

انظر تكملة القصيدة وغيرها من رثائها توبة في أعلام النساء .

وسأل معاوية بن أبي سفيان ليلى الأخيَلية عن توبة بن الحمير ، فقال : ويحك يا ليلى ، أكما يقول الناس كان توبة ؟ قالت : يا أمير المؤمنين سبط البنان حديد اللسان شجاً للأقران كريم المخبر عفيف المئزر ، جميل المنظر ، وهو يا أمير المؤمنين كما قلت له . قال : وما قلت له ؟ قالت : قلت ولم أتعد الحق وعلمي فيه :

بعيد الثرى لا يبلغ القوم قفره　　　ألدّ ملدّ يغلب الحق باطله
إذا حل ركب في ذراه وظله　　　ليمنعهم مما تخاف نوازله
حماهم بنصل السيف من كل قادح　　　يخافونه حتى تموت خصائله

فقال لها معاوية: ويحك ! يزعم الناس انه كان عاهراً ضارباً ، فقالت من ساعتها :

معـاذ إلهي كان والله سيداً　　　جواداً على العائلات جماً نوافله

انظر بقية القصيدة في أعلام النساء .

ثم قال لها معاوية : ويحك يا ليلى لقد جزت بتوبة قدره . فقالت : والله يا أمير المؤمنين لو رأيته وخبرته لعرفت أني مقصرة في نعته وإني لا أبلغ ما هو أهله ، فقال لها معاوية : من أي الرجال كان ؟ قالت :

أتته المنـــايا حين تمّ تمامه | وأقصر عنه كل قرن يصاوله
وكان كليث الغاب يحمي عرينه | وترضى به أشبالـــه وحلائله
غضوب حليم حين يطلب حلمه | وسم زعاف لا تصاب مقاتله

فأمر لها بجائزة عظيمة .

وقالت في توبة طائفة من الشعر في المديح والرثاء وغيرهما تراجع في أعلام النساء .

وتوفيت ليلى ودفنت إلى جنب توبة وهي في زيارة لقبره [1] .

١٧ – ولادة بنت المستكفي بالله الأموي :

من شواعر وأديبات الأندلس ، كانت جزلة القول ، حسنة الشعر ، فكانت تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء وتفوق البرعاء ، حسنة المحاضرة مشكورة المذاكرة ، مشهورة بالصيانة والعفاف .

فكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، وعلى سهولة حجابها وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب

(١) انظر أخبارها في المراجع الآتية : الأصفهاني : الأغاني ، القالي : الأمالي ، المسعودي : مروج الذهب ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ، الميداني : مجمع الأمثال ، ابن قيم الجوزية : روضة المحبين ، البحتري : الحماسة ، المبرد : الكامل ، ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ (مخطوط) ، أبو تمام : الحماسة ، الراغب الأصبهاني : محاضرات الأدباء ، طيفور : بلاغات النساء ، ابن الأثير الجزري : اللباب في معرفة الأنساب (مخطوط) ، الحصري : زهر الآداب ، ابن عساكر : تاريخ دمشق (مخطوط) ، المرزباني : الموشح ، البلاذري : فتوح البلدان ، الإبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ، الجاحظ : البيان والتبيين ، الزمخشري : الفائق .

وكرم أنساب وطهارة الثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها .

وفيها خلع الوزير ابن زيدون عذاره وهام فيها كل هيام ، فقال فيها القصائد الطنانة والمقطعات ، فكان ابن زيدون يستضيء بنور محياها في الليل البهيم، ولم يزل ابن زيدون يروم دنو ولادة فيباح دمه دونها ويهدر، لسوء أثره في ملك قرطبة وواليها، وقبائح كان ينسبها إليه ويواليها، أحقدت بني جهور عليه ، وسددت أسهمهم إليه .

فلما يئس لقياها وحجب عنه محياها ، كتب إليها يستديم عهدها ويؤكد ودها،ويعتذر من فراقها بالخطب الذي غشيه والامتحان الذي غشيه، ويعلمها أنه ما سلاها بخمر ولا خبا ما في ضلوعه من ملتهب الجمر ، وهي قصيدة ضربت في الإبداع بسهم وطلعت في كل خاطر ووهم ونزعت منزعاً قصر عنه حبيب وابن الجهم ، وأولها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنـــا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا (١)

---

(١) ابن بشكوال، الصلة ، المقري : نفح الطيب ، الزبيدي : تاج العروس .



فهرست